

عبر الرقاب وطوارق

هو وهي والآخرون



الدار المصرية اللبنانية

عزيم

هو وهى والآخرون



الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت تليفون: +202 23910250

فاكس: +202 23909618 - ص.ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 2001 / 11844

الترقيم الدولي : x - 689 - 270 - 977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الثالثة : محرم 1427 هـ - فبراير 2006 م

الطبعة الرابعة : محرم 1430 هـ - يناير 2009 م

جذر الوقايع مطاوع

هو وهى والآخرون

المنشور
لدار الكتب
بمكتبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

صدق الله العظيم

هذا الكتاب

منذ سنوات قليلة كنت أشاهد بالفيديو فيلماً مصرياً جميلاً، فإذا بي أتوقف أمام مشهد عابر من مشاهدته وأتأمله طويلاً.. ثم أعيد عرضه عدة مرات وأستسلم بعد ذلك لتأملاتي وخواطري حوله.

أما المشهد الذي شد انتباهي فلقد كان لرجل أمّي لا يقرأ ولا يكتب ولا يفهم كلام المثقفين عن السعادة والحب ولغز الحياة، ويتلمس الرزق من أى طريق ولو كان غير مشروع، لكنه فى النهاية إنسان وله مشاعره التى قد لا يجيد التعبير عنها، وقد كانت تشاركه حياته فتاة جميلة ضائعة، تلح عليه من حين لآخر بأن يتزوجها لتشعر بالأمان وتتخلص من إحساسها الغامض بالإثم، فيعدها بذلك ويستمهلها بعض الوقت للوفاء بوعدده، حتى ضاقت بمراوغاته وهجرته وتزوجت من شاب آخر فقير، وأقامت معه فى بيت متهالك آيل للسقوط .

وأفاق الرجل من غفوته بعد اختفاء فتاته من حياته وأحس بمرارة
افتقاده لها، لكنه تظاهر بالاستهانة وعدم المبالاة موقنا بأنها لن تلبث أن
ترجع إليه كما فعلت من قبل ومستنكرا أن يضعف «كالنساء» ويتحدث
عن همومه وأشجانه، فمضت الأيام بغير أن ترجع .. وبدا له أن الفتاة
جادة هذه المرة في هجر الحياة غير الشريفة التي كانت تحياها معه، فإذا
بقناع الصلابة التي كان يتظاهر بها يسقط فجأة، وإذا به يمضى إلى بيتها
مخمورا ويقف في ساحة البيت يبكى ويولول كالأطفال أمام الجميع بلا
حياء، ويصيح مناديا فتاته مطالبا إياها بالعودة إليه ولو كان الزواج هو
الثمن، ومهددا بقتل كل من يعترض طريقه، فلا يلبث أن يتصدى له
بعض الجيران فينهار على الأرض بلا كرامة ويستسلم بلا مقاومة لمن
يرجوه العودة إلى رشده، ويمضى به مبتعدا عن البيت فلا يملك إلا أن
يزفر زفرة ثقيلة ويصيح مولولا وهو يغادر المكان :

- عَدِّ الجروح يا قلم !

هذا هو المشهد الذى توقفت أمامه متفكرا .. وهذه هى العبارة
الفريدة التى تأملتها طويلا وتعجبت لبلاغتها التلقائية وتعبيرها الموجز
عن الألم .

فلقد تخيلت هذا الرجل الأتى وهو ينطق بها بمرارة، وكأنه يتمنى
لو كان يستطيع الكتابة لكى يفضى إلى الورق بكل ما يشعر به من

وحدة ووحشة وحزن وضياع بعد افتقاده لمن كانت تشاركه حياته .

وتخيلت أيضا أن كل المحزونين والمهمومين الذين يكتبون إلى
بآلامهم وهمومهم في بريد الجمعة بالأهرام، إنما يهمسون بنفس هذه
العبارة لأقلامهم حين يضعونها على الورق لتعبر عما يشكون منه
ويضيقون به .

إننى كثيرا ما أقرأ فى رسائل المهمومين عبارات تختلف أحيانا فى
كلماتها لكنها تتفق دائما فى المعنى، وهو أنهم لو أطلقوا العنان «للقلم»
لكى يصور ما يشعرون به من قهر ووحدة وألم لنفد مداد القلم،
ولضاقت بكلماته الصفحات الطوال .

أفليس هذا هو نفس المعنى الذى أوجزته ببلاغة نادرة كلمات ذلك
الرجل الأُمى التلقائية، وهو أن الجراح كثيرة حتى تحتاج من القلم إلى
أن يعددها ويحصىها وليس فقط أن يعبر عنها !

وأليس من يستطيع الجهر بأحزانه وآلامه بلا تحفظ أحسن حالا ممن
يضاعف من آلامه بمعاناته لها وحده فى السر لأنه لا يستطيع الجهر بها..
أو لأنه لا يجد من يسمع له ويحترم آلامه !

إن الألم المكتوم أشد وطأة على النفس من الألم الصريح المعلن الذى
لا يجد صاحبه حرجا فى أن يتحدث عنه ويشكو منه .. وجزء هام مما

تقوم به وظيفة الإفضاء النفسية، هو أن تخفف عن المهموم بعض ضغوط هذا الألم عليه بمجرد الحديث عنه والتعامل معه كحقيقة من حقائق الحياة، التي لا ينجل منها الإنسان ولا يحتاج إلى التخفى بها عن الآخرين .

وفي هذا الكتاب مجموعة مختارة من قصص بعض المهمومين، الذين تخلصوا من قيد الكتمان و «أذنوا» للقلم بأن يعبر عنها .. ويعدّها !

فإذا كنت قد اخترت له عنوانا : هو .. وهى .. والآخرى ! فلأننى قد أردت أن أشير به إلى أضلاع المثلث الأبدى الذى تدور فى إطاره دائما حياة الإنسان وتمضى فى طريقها المقدور لها متراوحة دائما بين السعادة حيناً والشقاء أحيانا .

ولو أنى تركت نفسى لهواها، لما قاومت إغراء استعارة هذه العبارة البسيطة من ذلك الفيلم الجميل، ولما اخترت لهذا الكتاب سواها عنوانا.

لكن هذه قصة أخرى ربما نعود للحديث عنها فى كتاب آخر من نفس هذه السلسلة من كتبى، التى أجمع بين دفتيها نماذج متباينة لأحوال البشر وشاغلهم، وصورا متنوعة لحلمهم الأبدى القديم فى نيل السعادة .. وتجنب الشقاء .

عبد الوهاب مطاوع

الحلقة الثالثة

أريد أن أتحدث معك على سجيّتى وأروى لك قصتى، أنا إنسان مصرى أقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ اثنى عشر عاما، وقبل أن ينتهى بس المطاف إلى هنا، نشأت فى مصر ودرست بكلية التجارة، وخلال دراستى بالكلية انتقلت إلى الحى الذى نقيم به أسرة جديدة من الجيران، وتعرفت إلى ابنة هذه الأسرة وتعلقت بها على الفور، وكانت تكبرنى بعامين وجميلة وقوية الشخصية، فأسلمت قيادى لقلبى ومشاعرى معها، وقررت الارتباط بها ولم يرض أهلى عن نيتى فى ذلك لأنها تكبرنى بعامين ولأننا لا نكاد نعرف شيئا عن أسرتها، لكنى كنت كالمسحور لا أسمع لأحد.

وكنت يتيم الأب، وقد ترك لى أبى شيئا من الميراث أستطيع الاعتماد عليه مؤقتا حتى أخرج وأعمل، «فأخذتنى» فتاتى وتزوجنا على غير إرادة أهلى ورضاهم، وبدأت حياتى الزوجية معها، وعرفتنى زوجتى بأحد أقاربها المقربين وهو خالها الذى يكبرها بستة عشر عاما، فلاحظت عليه أنه خدوم وودود ويسعد بتأدية أية خدمة لنا، ويكثر من

زيارتنا ومجاملتنا، ثم حصلت على البكالوريوس، والتحقّت بالخدمة العسكرية كضابط احتياط وشاركت في حرب أكتوبر. وعملت بعد انتهاء الحرب في مصر لبعض الوقت، وكانت زوجتي قد أنجبت خلال ذلك طفلين، ومازلت مقبلا عليها وسعيدا بحياتي معها.. لكنني أشعر رغم ذلك بشيء غير طبيعي في شخصيتها وطباعها وأسلوب حياتها. فكل شيء لديها بمقابل حتى أوقات الصفاء بيننا، ولا بد لي دائما من أن أقدم شيئا لكي أحصل على أي شيء.. ولو كان جلسة آمنة بلا نكد، وخالها يقضى معنا أوقاتا طويلة.. ويزورنا أحيانا من الظهر فيبقى معنا حتى بعد منتصف الليل .

وبعد فترة من العمل في مصر أتيت لي فرصة طيبة للعمل بشركة أجنبية تعمل بإحدى الدول العربية وسافرت إليها وحدي، وأخلصت لعملي وحققت فيه تقدما كبيرا حتى أصبحت خلال ثلاثة أعوام مديرا ماليا وإداريا بالشركة. وبعد ٥ سنوات من زواجي، عرفت من زوجتي بالمصادفة أن خالها هذا ليس شقيق أمها، كما قدمته لي في البداية لكنه من أقاربها وبمنزلة خالها وأنها نشأت منذ صغرها على اعتباره خالها. وتعجبت لإخفائها عني هذه الحقيقة المهمة، لكنني واصلت حياتي معها في سلام ورزقني الله رزقا واسعا خلال عملي بهذه الشركة الأجنبية .

وكانت لى فى مقر عملى شقة فاخرة مؤثثة بأفخر الأثاث والأجهزة، وأرجع إلى أسرتى كل عام فى إجازة طويلة حاملا الهدايا والنقود، فنعيش بضعة أسابيع من أجمل أيام العمر. وفى إجازة عامى السادس بهذه الدولة العربية، رجعت إلى بلدى فلم أكد أستقر بين أسرتى الصغيرة بضعة أيام حتى جاءنى من يقول لى إن «خال» زوجتى هذا لا تربطه بها ولا بأسرتها أية صلة قرابة، وأن زوجتى مرتبطة به ارتباطا شخصيا من قبل أن أعرفها، واستمر ارتباطها به بعد الزواج وطوال السنوات الماضية ! ولم يكتف من همس لى بهذه الصاعقة بذلك، وإنما قدم لى أدلة وبراهين وإشارات غير قابلة للشك .

ومادت الأرض بى حتى لم أعد أرى من يحدثنى ولا أسمع صوته، وراجعت حياتى مع زوجتى التى فتنت بها منذ أول يوم رأيتها فيه، فوجدت هذا «الرجل» كان موجودا بيننا بالفعل منذ الأيام الأولى ولم يساورنى فيه أى شك.. إذ كيف أشك فى «خالها» أو فى زوجتى التى قبلت الارتباط بى دون أهلى ورغما عن إرادتهم؟! وكدت أصاب بالجنون ولم أجد مفرا من مواجهة زوجتى بما عرفت ففوجئت بها تعترف بصحة كل ما عرفت بلا أية محاولة للدفاع والإنكار!.. وتسألنى فى هدوء : وماذا بعد؟ ولم يكن هناك «بعد» آخر فى هذه الظروف القاسية سوى الطلاق .. خاصة وقد هربت من البيت واختفت لبعض

الوقت بعد هذه المواجهة خوفا مما قد أفعل بعد أن أستوعب الموقف. وطلقتها بعد ١٥ عاما من الغش والخديعة والغدر، واسودت الدنيا في وجهي.. وانهرت نفسيا وصحيا حتى وجدتني بعد أيام أبصق دما من فمي وأنزف الدم من أنفي، وعرضت نفسي على الطبيب فنصحني باتباع تعليمات العلاج بدقة والابتعاد عن أى انفعال مع التعجيل بالسفر والعودة إلى عملي بعيدا عما يثير انفعالاتي ورجعت بالفعل إلى عملي، فلم أستطع الاستمرار به بضعة شهور أخرى.. وكرهت كل شيء وفقدت الثقة في نفسي وفي الحب والإخلاص والوفاء والبشر وكل شيء.

ووجدتني عاجزا عن احتمال الحياة في تلك الدولة العربية بعد أن جرى لي ما جرى وصحتي تزداد تدهورا يوما بعد يوم فقررت إنقاذ نفسي بأن أبدأ من جديد في أرض بعيدة عن ذكريات الماضي وآلامه. وسعيت للحصول على تأشيرة دخول وهجرة إلى الولايات المتحدة، وبمجرد أن حصلت عليها ركبت الطائرة متجها إليها عن طريق روما تاركا خلفي شقتي الفاخرة بتلك الدولة بكل أثاثها وأجهزتها الحديثة إلى غير رجعة..

وخلال رحلة الطائرة إلى روما رحت أراجع شريط حياتي مع هذه السيدة التي عشت معها ١٥ عاما، وأتساءل طوال الطريق : لماذا؟!..

وماذا جنت هي مما فعلت..؟! وكيف تواجه به ربها وأولادها حين يكبرون ويسألون عن سبب انفصال أبويهم؟! واستغرقتني الأفكار والتساؤلات حتى بدأت أشعر بنفس الآلام المرضية التي عانيت منها من قبل، وتشاغلت عن هواجسي وأفكاري بالتفكير في الحياة الجديدة التي تنتظرني في الطرف الآخر من الدنيا.. حيث ينتظرني شقيق يقيم في كليفلاند بولاية أوهايو لأستعين به وبعض أقاربي الآخرين هناك على بدء حياتي الجديدة.

وهبطت الطائرة في مطار روما، وكان عليّ أن أتجه إلى صالة أخرى من صالات السفر لأركب الطائرة الأخرى المتجهة إلى نيويورك، وفي المطار وأنا أبحث عن البوابة المؤدية لطائرة نيويورك وجدت سيدة سمراء بعض الشيء، تسأل أحد الركاب عنها وتستعلم منه وتصور أنها إيطالية من الجنوب حيث البشرة السمراء من أثر أشعة الشمس، فسألتها بالإيطالية التي أعرفها ودرستها بمعهد خاص خلال مرحلة الجامعة عن البوابة المنشودة ففوجئت بها تجيبني بالعربية، وعرفت أنها مصرية تقيم في أمريكا منذ ١٦ عاما واسترحت إليها من اللحظة الأولى، وعرفتها بنفسى وبخططي للإقامة في أمريكا خلال فترة الانتظار وشجعتني على التجربة وأجابت على تساؤلاتي العديدة، وعرضت عليّ مساعدتي في حجز الطائرة من نيويورك إلى كليفلاند،

وأبلغتها أنني سأمضى فترة في نيويورك فعرضت على إرشادى إلى فندق صغير، وشكرتها وتحدثت إليها طويلا خلال رحلة الطائرة فلم يمرض على لقائنا هذا شهر آخرى حتى كنت قد غيرت كل خططى.. وتزوجت هذه السيدة.. وانتقلت إلى المدينة التى تعيش فيها.. فكأنما قد استجابت الأقدار لدعائى ووضععت هذه السيدة الطيبة فى طريقى، فقد وجدت لديها كل ما كنت أحتاج إليه بشدة فى هذه المرحلة العصيبة من حياتى وأعادت إلى ثقتى بنفسى وبالنساء وبالخير والحق والعدل فى الحياة.

واحتمت هى بى من الوحدة والغربة واحتमित أنا بها من أحزانى وجراحى، وكانت مشكلتها الوحيدة هى أنها قد بلغت سن الأربعين ولم تنجب من قبل، وقال لها الأطباء إن فرصتها فى الحمل ضعيفة للغاية فقررت أن ترعى طفلين من أحد ملاجىء الأيتام، وناقشتنى فى ذلك فوافقتها على رغبتها تقديرا لمشاعرها، فإذا بالحلم المستحيل يتحقق وتحمل وينجح حملها ويثبت خلال فترة إتمام إجراءات الحصول على الطفلين، فأوقفنا الإجراءات على الفور، وتفرغت للعناية بها خلال فترة الحمل والولادة القيصرية، وأنجبت زوجتى طفلة جميلة أسميتها «رضا» تعبيرا عن شكرى وامتنانى لله سبحانه وتعالى الذى عوضنى بهذه السيدة عما لقيت فى حياتى من غدر وخديعة، واستمر زواجنا

وأبلغتها أنني سأمضى فترة في نيويورك فعرضت على إرشادى إلى فندق صغير، وشكرتها وتحدثت إليها طويلا خلال رحلة الطائرة فلم يمض على لقائنا هذا شهور أخرى حتى كنت قد غيرت كل خططى.. وتزوجت هذه السيدة.. وانتقلت إلى المدينة التى تعيش فيها.. فكأنما قد استجابت الأقدار لدعائى ووضعت هذه السيدة الطيبة فى طريقى، فقد وجدت لديها كل ما كنت أحتاج إليه بشدة فى هذه المرحلة العصبية من حياتى وأعادت إلى ثقتى بنفسى وبالنساء وبالخير والحق والعدل فى الحياة.

واحتمت هى بى من الوحدة والغربة واحتमित أنا بها من أحزاني وجراحي، وكانت مشكلتها الوحيدة هى أنها قد بلغت سن الأربعين ولم تنجب من قبل، وقال لها الأطباء إن فرصتها فى الحمل ضعيفة للغاية فقررت أن ترعى طفلين من أحد ملاجىء الأيتام، وناقشتنى فى ذلك فوافقتها على رغبتها تقديرا لمشاعرها، فإذا بالحلم المستحيل يتحقق وتحمل وينجح حملها ويثبت خلال فترة إتمام إجراءات الحصول على الطفلين، فأوقفنا الإجراءات على الفور، وتفرغت للعناية بها خلال فترة الحمل والولادة القيصرية، وأنجبت زوجتى طفلة جميلة أسميتها «رضا» تعبيرا عن شكرى وامتنانى لله سبحانه وتعالى الذى عوضنى بهذه السيدة عما لقيت فى حياتى من غدر وخديعة، واستمر زواجنا

عشر سنوات هادئة وسعيدة وتشاركنا معا في أكثر من مشروع تجارى صغير.

وكنت خلال هذه السنوات على اتصال بالولدين اللذين أنجبتهما من زوجتى الأولى، فراح ابنى الأكبر يلح علىّ فى استقدامه للدراسة بأمريكا، وتشاورت مع زوجتى فى ذلك فشجعتنى عليه، وأحضرتة بالفعل وحصل على شهادته من هنا وعمل ونجح فى عمله واشترى بعد سنوات بيتا صغيرا بالتقسيط وأحضر أمه وشقيقه ليعيشا معه .

ومنذ عامين ونصف العام تقريبا شعرت زوجتى برغبة قاتلة فى الهرش بصفة دائمة ليل نهار ، واستشارت الطبيب فوصف لها دواء فلم يفعل شيئا ولم يتوقف الهرش القاتل الدامى وأجرينا فحصا شاملا لزوجتى، ففوجئت بالطبيب يقول لى : لدىّ أنباء سيئة لك.. إن زوجتك تعاني من المرض الخبيث وهو فى مرحلة متقدمة جدًا !

يا ربى.. أبعد أن عوضتنى بها وحققت لها حملها المستحيل فى الإنجاب وهى فوق الأربعين تقع زوجتى صريعة لهذا المرض الغادر؟! وتمالكت نفسى بصعوبة وبدأنا مراحل العلاج وعذابه الطويل، وأجابنى الطبيب ذات يوم حين سألته عن الأمل فى نجاتها من الخطر قائلاً فى جمود : فى مثل حالة زوجتك المتقدمة، فإننا لا نجرى وراء أمل الشفاء بقدر ما نجرى وراء « شراء » بعض الوقت الإضافى لحياتها !

ولم تستطع جهود الأطباء «أن تشتري» لها - أستغفر الله العظيم - سوى ١٥ شهرا فقط، ثم رحلت زوجتى الثانية إلى رحمة ربها مودعة منى بأحر الدمع وأطيب الدعاء، فلقد كانت إنسانة مسالمة مثلى وترغب فى الحياة فى سلام لهذا نجحت عشرتنا المشتركة، وحرصت على وداعها الوداع اللائق بنفسها الطيبة وروحها الخيرة فصلينا عليها فى المسجد الذى يبعد عن مدينتى الصغيرة مسافة كبيرة، وجعلت مثواها فى مقابر المسلمين، وتكبدت فى سبيل ذلك بعض العناء لبعد المسافة. وعشت لطفلى الصغيرة التى تركتها أمها وهى فى عمرها العاشر فوجدت طعم الحياة مريرا بغير هذه الزوجة الطيبة.. ومضى عام آخر فأصبحت الحياة شديدة الصعوبة على من كل الجوانب فالطفلة لا تتكلم العربية، وقد فشلت وحدى فى تعليمها الصلاة وقراءة بعض السور القصيرة من القرآن.

وقد بدأت المخاوف والهواجس تتابنى بشأنها فى هذا المجتمع المفتوح الذى أعيش فيه، وكلما شاهدت أو سمعت عن مآسى بعض الأسر العربية التى انفلت منها عيار بناتها واندجن فى المجتمع الأمريكى بكل تقاليده المتحررة تملكى الرعب والخوف من أن تتعرض ابنتى لنفس هذا المصير وأفقد السيطرة عليها خلال فترة قصيرة.. وقد تسألنى وما المشكلة فى أن تجد لنفسك زوجة أخرى حيث تعيش..

وأجيبك بأن نسبة السيدات هنا مرتفعة بالفعل لكنى لا أريد الزواج من أمريكية أو أجنبية تزيد حيرة طفلتى وتمزقها بين ما أقوله لها عن تعاليم دينها، وبين ما تلمسه وتراه فى المجتمع الأمريكى.. فماذا أفعل يا سيدى لأخرج من هذه الحيرة؟ هل أبحث هنا لنفسى عن شريكة حياة أخرى تتحمل معى مسئولية هذه الطفلة، أم أسافر لبلادى لأبحث عن هذه الشريكة وأرجع بها لأمرىكا، أم أرجع نهائيا وأستقر فى بلدى وأبدأ حياتى فيها من جديد للمرة الثالثة؟.. خاصة وأن مطلقتى سأمها الله قد أفسدت علىّ مشاعر الولدين اللذين يعيشان هنا مع أنى لم أذكر لهما بقليل مما فعلت ..

إننى فى الثانية والخمسين من عمرى، وصحتى جيدة لأننى لم أسلك مسالك بعض الشباب فى سن الطيش، وأملك بيتا فى المدينة الصغيرة التى أعيش بها هنا، وأتقاضى معاش زوجتى لأنها عملت ٢٨ عاما فى أمرىكا، فبماذا تشير علىّ؟.. وهل أستطيع أن أجده عن طريقك من ترغب فى مشاركتى ما بقى لى من رحلة الحياة، وتربية هذه الطفلة وحمايتها من أخطار الحياة فى مجتمع مفتوح، بشرط أن تكون راغبة فى الحياة بأمريكا وقادرة عليها، لأن بعض الزوجات القادمات من مصر يفقدن حماسهن للحياة فى أمرىكا بعد فترة حين يجدن كل إنسان فيها مشغولا بنفسه.. ولا أحد يتكلم مع أحد أو يسأل عنه، فيشعرن بالملل

والغربة ويفقدن الإحساس حتى بجمال الطبيعة بعد فترة قصيرة..؟
إننى أنتظر منك ردا عاجلا . وقاك الله وإيانا والجميع شر الوحدة
والحيرة وغدر الأيام.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لا أريد أن أنكأ الجراح القديمة بالحديث عن تجربتك المحزنة الأولى
بعد أن تجاوزتها أنت بسلام والحمد لله وعوضتك الحياة بمن كانت
بلسما لجراحك وآلامك رحمها الله، غير أن حياة الإنسان يا صديقى
كتاريخ الشعوب، حلقات متصلة ومراحل تفضى كل منها إلى
الأخرى، وليس من المفيد أن يتوقف الإنسان عند إحدى هذه المراحل
ويجأ أسيرا لأحزانها ومؤثراتها على نفسه وشخصيته إلى نهاية العمر،
وليس من المفيد أيضا أن يسقطها نهائيا من حياته وذاكرته كأنها لم تكن
ولم يعيشها ولم يتفاعل مع مؤثراتها سلبا وإيجابا.

والأجدى دائما هو أن يستفيد الإنسان بأخطاء كل مرحلة من
مراحل العمر.. وأن يستعين بخبرة الألم التى اكتسبها منها على تفادى
أشواك الحياة فى باقى الرحلة وتجنب المزالق والعثرات. ومهما كانت
الأحزان والآلام فلا مفر من أن يراجع الإنسان حياته من حين لآخر..
ليرى هل ازدادت خبرته حقًا بالحياة وبالنفس البشرية وعثرات الأيام

واختباراتها الصعبة أم لا؟! وهل ازداد فهما لنفسه ولنقاط القوة والضعف في شخصيته واستفاد بهذا الفهم المكتسب على التعامل مع الآخرين أم لا؟!!

ومع أن مأساتك الأولى كانت مرحلة من العمر وانقضت بخيرها وشرها.. إلا أنها من ناحية أخرى كانت أيضا الجسر الذي انتقل بك إلى المرحلة التالية من عمرك وهي الحلقة التي بدأت فيها هجرتك لأمریکا.. وتعرفت خلالها على زوجتك الثانية وأنجبت طفلتك الصغيرة التي تشقى الآن بهواجسك حول مستقبل أيامها .

ولأنه ليست هناك في النهاية معاناة إنسانية بلا جدوى، فلعلك قد عرفت الآن وبعد تجربة الألم القاسية في حياتك، أن السبب الرئيسي لمأساتك الأولى التي مازلت تعاني من ذيولها حتى الآن في موقف ابنك منك، كان هو الاندفاع والانقياد الأعمى للعاطفة الهوجاء من جانب فتى في العشرين أو الحادى والعشرين من عمره دون الاحتكام في ذلك إلى ضوابط العقل وكوابح المسئولية العائلية والإنسانية للمرء.. فلقد قادتك العاطفة الهوجاء وحدها إلى الاختيار السيء لشريك الحياة، ليس فقط قبل التأكد من رسوخ مشاعرهما نحوك، بل وحتى قبل التعرف جيدا على شخصيتها الحقيقية وظروفها العائلية والاجتماعية، بدليل عجزك فيما بعد حتى عن التمييز بين أقاربها الأقربين ومن تستروا

بادعاء القرابة على أغراضهم، فأى دليل أكثر من ذلك على التعجل والاندفاع بغير دراسة كافية لشخصية شريكة الحياة وظروفها العائلية؟!.. وأى دليل أكثر من ذلك على أن الانقياد للعاطفة وحدها بغير استشارة العقل لا يثمر إلا الأخطاء الفادحة في النهاية؟!

لقد كان القانون الفرنسى حتى القرن الثامن عشر لا يسمح للشباب بأن يتزوج قبل سن ٢٥ سنة بغير موافقة أبيه أو ولى أمره، ولم يكن ذلك نابعا من فراغ، وإنما من إدراك أن الزواج شأن عائلى بقدر ما هو شأن شخصى . ولهذا فإنه من المفيد لمن لم يكتمل نضجه النفسى والعقلى ولم يكتسب بعد الخبرة الكافية بالحياة، أن يستعين بعقول من يهمهم أمره على حسن اختيار شريكة الحياة، بغير أن يتعارض ذلك أبدا مع حقه فى الاختيار الحر. وسن العشرين لا يمكن أن تكون سن النضج الكامل أو الخبرة الكافية أو الفهم الصحيح للحياة سواء بالنسبة للشباب أو الفتاة، وما اعتبرته أنت دليلا على الحب ووقفت أمامه مذهولا تتعجب كيف غدرت بك زوجتك الأولى مع أنها قدمته لك، وهو أنها قد «أخذتك» وتزوجتك رغما عن إرادة أهلك، هو نفسه ما كان ينبغى له أن يكون من أسباب تحفظك عليها وتشكك فى قيمها الأخلاقية والعائلية وليس العكس، فمن ترحب بفتى فى العشرين من عمره يصغرها فى السن ويعترض أهله على اختياره لها، ثم تأخذه من يده

وتتزوج به دون أن تقيم وزنا لموقف أهله.. أو تطلب منه أن يبذل بعض الجهد معهم لإقناعهم بها.. مثل هذه الفتاة لا ينبغي الثقة أصلا بقيمتها الأخلاقية والدينية والعائلية، وتصرفها هذا لم يكن دليلا على الأعراف السائدة والقيم العائلية المستقرة. ولهذا أيضا فلم يكن غدرها بك ضعفا بشريا عابرا ولا نزوة طارئة وجدت من الظروف ما يساعد عليها، وإنما كان غدرا متأصلا، ومع سبق الإصرار والترصد أيضا.. بدأ قبلك. واستمر بعدك للأسف.

ولأننا جميعا تلاميذ حائرون في مدرسة الحياة وسنظل كذلك حتى النهاية، فلا بد لنا من أن نضيف إلى خبرتنا بالحياة من تجربتك شيئا آخر جديرا بالاعتبار، هو أنه حين يجد المرء في محيط أسرته الصغيرة رجلا لا تربطه بالأسرة علاقة مشروعة أو صلة المحارم، لكنه مع ذلك «موجود» دائما في سمائها.. وفي كل الأوقات والمناسبات.. ورهن الإشارة في كل حين ويسعد دائما بتلبية الطلبات والرغبات والخدمات بلا تذمر، بل يتهلل لأدائها باستمتاع.. أقول إنه حين يجد المرء مثل هذا الشخص «الخدوم» للغاية والذي يضحى دائما بوقته ومصالحه واعتبارات الشخصية لصالح اعتبارات هذه «الأسرة»، فإنه ينبغي له أن يتشكك في دوافعه وليس أن يحسن الظن به ويركن للثقة العمياء به ويتغنى بطبعه السمع الخدوم، فالأهل الأقربون لا يفعلون ذلك بنفس

هذا التهلل والاستمتاع.. وليس هناك عادة من يضحي باعتباره الشخصية على طول الخط لصالح اعتبارات الآخرين دون هدف أو مقابل، والعاقل هو من لا يدفعه «حسن الظن» بنفسه هو وبقيمته «الشخصية» لدى مثل هذا الشخص إلى الظن بأنه المستهدف بهذا العطاء الإنساني السخي، لأنه لا بد أن هناك «طرفا» آخر من الأقرب للمنطق ولفهم النفس البشرية أن يكون هو هدف هذا العطاء. وهذه القاعدة تنطبق بصفة عامة على الطرف الزائد الموجود دائما في محيط الأسرة الصغيرة بغض النظر عن نوعه رجلا كان أو سيدة. وفي كل الأحوال، فإن الاختلاط الزائد على كل حد مقبول في المحيط العائلي يفتح الباب دائما لمثل هذه الكوارث، ولا جدوى له غالبا إلا تهيئة الظروف المناسبة لاستدعائها والتشجيع عليها.

ولأن حياة الإنسان حلقات متصلة - كما قلت لك من البداية - فلقد أدت هذه الحلقة المأساوية في حياتك إلى الحلقة الثانية منها التي كانت أكثر رشدا وأكثر عدلا إنسانيا معك، فعشت مع زوجتك الثانية عشر سنوات هادئة وسعيدة.. ووجدت لديها كل ما كنت تحتاج إليه من الأمان والحنان والثقة والرغبة المشتركة في العيش في سلام، لكن الأوقات السعيدة لا تطول كثيرا في معظم الأحيان للأسف، فرحلت الزوجة الطيبة العطوف عن الحياة بعد أن حققت حلمها الصعب في

الإنجاب، وها أنت تواجه الآن الحياة وحيدا تتناوبك الهواجس بشأن مستقبل ابنتك الطفلة واحتمال تأثرها بمؤثرات الحياة في المجتمع الأمريكى. وأنت محق في هواجسك ومخاوفك يا سيدى لأن الطفلة لم تتشرب بعد من القيم الدينية ما يعينها على الصمود في وجه هذه المؤثرات.. ولو نجحت في غرسها فيها لكفتها وتكفلت بتحسينها ضدها وضد كل المؤثرات التى تستهدف هويتها.

والدافع الأول دائما لقرار بعض الأسر المصرية المهاجرة إلى الغرب على وجه التحديد بإنهاء هجرتها والعودة لبلادها بعد عشرين أو أكثر من الغربية، هو هاجس الخوف على ضياع هوية بناتها على وجه التحديد وسط مؤثرات الحياة الغربية.. وكثيرا ما ضحى آباء وأمهات بمناصب كبيرة فى المهجر ومكاسب مادية كبيرة ورجعوا لبلادهم تفضيلا لمصلحة بناتهم فى المقام الأول، على الاعتبارات مهما بلغ شأنها. لكنى أتصور أن ظروفك الشخصية لا تعينك الآن جديا على العودة النهائية لبلدك، وأنت ترغب فى الاستمرار فى الحياة حيث تقيم، وتحتاج إلى شريكة حياة تتحمل معك أمانة المسؤولية عن غرس القيم الدينية والأخلاقية فى هذه الطفلة ورعايتها معك.

وما أكثر من تناسبهن ظروفك وقد يجدن فى مشاركتك حمل هذه الأمانة حلا لمشكلتهن.. ومعنى جديدا لحياتهن.. وقربى مؤكدة إلى

الله...، والطريق الأمثل للاهتمام إلى مثل هذه الشريكة المناسبة هو العودة في إجازة طويلة لبلدك خلال فصل الصيف والاستعانة بالأهل والأقارب على ذلك. لكن للضرورة أحكامها من ناحية أخرى، وإنني لأستشعر من كلماتك أنك في حاجة ملحة لأي جهد يعينك على الاهتمام لشريكة الحياة المنشودة هذه في أقرب فرصة ولن أتردد في تقديم هذا العون البسيط لك إذا استطعته بإذن الله.. واسمك وعنوانك لدى، وأرجو ألا يطول انتظارك قبل أن يجمع الله سبحانه وتعالى بينك وبين من يختارها لك في هذه المرحلة من حياتك، كما أرجو أن تكون هذه الحلقة الثالثة من حلقات عمرك هي أكثرها سعادة وأماناً وسلاماً وأقلها آلاماً بإذن الله..

وقديماً قال شاعر الإغريق سوفوكليس في النشيد الختامي للملحمة أوديب : لا ينبغي أن نحكم على أحد بأنه سعيد إلا إذا انقضت الساعة الأخيرة من عمره، وانتقل إلى العالم الآخر من غير ألم تجرعه أو وزر تحمله».

فعسى أن يكون الحساب الختامي لك مع الحياة لصالح السعادة والأمان وراحة القلب إلى النهاية في حياتك بإذن الله.. والسلام !

* * *

العبارة القاسية

أردت أن أكتب لك منذ سنوات لكنى كلما قرأت فى بريد الجمعة ألام الآخرين وجدت غيرى أحق منى باهتمامك.. ومشكلتى يا سيدى هو ابنى الذى يبلغ من العمر ٢١ سنة ويدرس بإحدى الكليات ذات المصروفات الباهظة.. فبعد سنوات من فشله الدراسى ومعاناتنا معه كنت منذ فترة قصيرة أحدثه أنا وأبوه عن ضرورة تنظيم الوقت.. وتقسيم المنهج الدراسى فإذا به يرمىنى فى وجهى بعبارة قاسية أدمت قلبى هى : أنت لست أما !

وذهلت .. وطفرت الدمع إلى عينى ..

أنا لست أما ؟ لماذا يا حبيبى هل علمت عنى ما يشيننى ؟ .. هل تركتك وحدك وسافرت للعمل فى دولة بعيدة ؟ .. هل خرجت من البيت ذات يوم وتركتك مريضاً بلا رعاية ؟ .. هل بك عيب جسمى أو عقلى بسبب تقصيرى أو إهمالى فى رعايتك وأنت طفل ؟ ومن فى عائلتك أكثر أمومة منى !

إننى أرى الأمهات من حولي يعاملهن أبناءهن بتقديس واحترام، حتى ابن جارتى طالب الطب المتفوق ينشر لأمه الغسيل ويساعدها في صنع «المحشى» وهو سعيد بما يفعل، في حين يجف حلقى معك لكى تلبى لى طلبا واحدا .

صعبت علىّ نفسى يا سيدى واغرو رقت عيناي بالدموع، فأشار له والده بأنه أخطأ فى حقى، ثم قال لى : لا تتحدثى معه ودعيه لى، فتركته له، ولكنى كنت أنتظر من زوجى تصرفا أكثر إنصافا لى، لكن هذه هى عادته معى .

فأنا وزوجى من كبار موظفى الدولة أى من الكادحين، إذ لنا ابنتان أخريان لا تزالان تدرسان بمدارس اللغات، وقد تكلفنا الآلاف حتى حصل ابنى هذا بعد سنتين على الثانوية العامة، وها هو يعيد الآن سنته الدراسية الأولى فى التعليم الجامعى، ولا يقدر معاناتنا رغم أنه يعرف جيدا كم نعانى حتى نحصل على القرش ودخلنا معروف ومكشوف له بالمليم الواحد، ونحن نلهث لتلبية احتياجاته المستمرة وكلها بمئات الجنيهات.. ومع ذلك فهو لا يسعد قلوبنا بأى تقدم دراسى، بالإضافة إلى تهربه من مشاركتنا أى احتفال عائلى. ولقد بدأت مشكلته هذه بعد حصوله على الإعدادية بتفوق.. وقد رنا وقتها أنها متاعب المراهقة وسوف تنتهى ببلوغه سن الحادية والعشرين، وقد رجع والده بعد ٤

سنوات من العمل فى إحدى الدول العربية كنت خلالها لأبنائى نعم الأم بشهادة كل من يعرفنى.. وكان ابنى هذا عند عودة أبى فى الشهادة الابتدائية وأطفالى متفوقون ولا أعرف ماذا جرى بعدها ولا ماذا كان يثير زوجى ضدى، فقد بدأت سلسلة مستمرة من الإساءة لى وأصبح يحلو له أن يلعن على مسمع من الجيران بأعلى صوته الحظ الذى ربطه بى مع إنى اختياره الشخصى.. فلم يزدنى ذلك إلا احتراماً فى نظر جيرانى الذين يتعاملون معى.. كما كان زوجى كثيراً ما يقلب الموقف فوق رأسى إذا وجهت ابنى هذا وهو فى سن التكوين والتربية بالنسبة لطريقة تناوله للطعام أو ملابسه أو طريقة مذاكرته، ويحدث هذا بالطبع أمام الولد.. وعشت وصبرت وتنازلت باختيارى عن كل حقوقى، فدخل كل أنفقه فى البيت وأحاول جادة أن أحافظ على مظهرى بما يتناسب مع مركزى والوسط الذى أنتمى إليه، وليس لى مصروف شخصى ولا أتعامل مع الكوافير وأستخدم الأتوبيس فى تنقلاتى، بينما لكل زميلة لى فى العمل سيارة خاصة. ومع ذلك فلا زوجى راض ومعجب بى ولا ابنى يرى فى أمّاء وما له. فماذا أفعل بحياتى؟ إن احترام أهلى وزملائى لى يشبّعنى ويصبرنى على ما أعانيه، لكن الإنسان تضيق نفسه أحياناً ويشعر بالهوان والألم حين ينكأ أحد جراحه.. فماذا أفعل يا سيدى، وكيف أتعامل مع تمرد ابنى؟

ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

من حقك يا سيدتى أن تغرورق عيناك بالدمع الأسيف وأن تشعرى بغصة مؤلمة فى حلقك وفى قلبك حين يرمىك هذا الابن الشارد بهذه العبارة القاسية الظالمة، أو حين تستشعرين عدم التقدير لتضحياتك وعطائك له وللأسرة من جانبه أو من جانب زوجك على السواء.. لكن هوّنى على نفسك يا سيدتى فقد يجرح الابن المتمرد أحيانا فى عنفوان جهالته أمه الرءوم غير مدرك لعمق الجرح الذى حفره فى قلبها بكلماته الطائشة، وغير معبر بذلك عن حقيقة رأيه أو مشاعره تجاهها.

لكن ذلك لا يقلل من جريمته وحسابه عما رماك به مع ربه قبل أن يكون معك.. ولن يكتب له الله سبحانه وتعالى التوفيق أو السعادة فى حياته إذا لم يعتذر لك عن هذه العبارة القاسية وينال صفحك عنها وعنه، ويلتزم معك فى قادم الأيام بأدب الأبناء مع أمهاتهم وآبائهم وحسن مصاحبته لهما. أما زوجك فلقد شارك للأسف من حيث لا يدري فى تجرؤ ابنك عليك بهذه العبارة القاسية.. وذلك بتشاحنه المستمر معك أمامه وهو طفل على أساليب توجيهك له.. وبإساءته العلنية لك ولعنه لسوء حظه الذى ربطه بك أمام الصغار. ومن واجبه أن يكف عن كل تصرف يمس رمز الأم فى نظر أبنائها.

على أن الأمر فى النهاية لا يجوز الحكم عليه حكما نهائيا بظاهر

الكلمات وحدها، فما أكثر ما تطيش الكلمات فتجرح لكنها لا تعبر في الواقع عن تقييم قائلها لشريك عمره، وآفة البعض منا هي أنهم يسارعون بطريقة شبه آلية إلى انتقاص أقدار شركاء حياتهم فتتقافز الكلمات على ألسنتهم في ذلك بسرعة الصاروخ، فإذا دعوا للشهادة الحق فيهم تشاقلت كلمات الإنصاف والإعجاب والتقدير على نفس الألسنة كأنما ينتزعونها من أفواههم انتزاعا.. مع أنها رغم شحها وتقتيرها إنما تعبر عن موقفهم الحقيقي من هؤلاء الشركاء، لكنهم لا يفرجون عنها غالبا إلا إذا واجهوا خطر فقدهم !

فلا تبتئسى كثيرا يا سيدتى فزوجك أول من يعرف لك قدرك، لكنه ليس فيما يبدو ممن يستطيعون الاعتراف بذلك علنا أو ممن ييخلون به على شركاء الحياة ، مع أن كتمان الشهادة ليس من الإيمان.

وابنك الشارد.. يتخبط بين فشله الدراسي وإحساسه بالذنب عنه.. وبين رغبته في الإحساس بالجدارة والاستقلال وبأنه قد تجاوز سن التوجيه المتصل والتدخل الدائم في شئونه الخاصة كما يتصور. وأزمة أمثاله أنهم يسيئون تفسير حرص الأبوين على نجاحهم وشق طريقهم في الحياة، وتعبيرهم عن هذا الحرص بالتوجيهات والنصائح والقلق عليهم، ويعتبرون كل ذلك شيئا يتعارض مع رجولتهم ونموهم واستقلال شخصياتهم.. كأنما يريدون أن يقولوا لآبائهم وأمهاتهم

بذلك إننا لم نعد أطفالا لكيلا نتحدثوا معنا إلا بالنواهي والنصائح والتحذيرات، وهى أزمة معروفة من أزمات سن المراهقة الذى يوشك ابنك أن يودعها، ومن آثارها ذلك النفور من التكاليفات المنزلية بالنسبة للشباب من الأبناء على وجه الخصوص.. والنفور أيضا من المشاركة فى المناسبات العائلية باعتبارها لا تناسب فى نظرهم إلا الصغار الذين يسعدون بأمثالها.. وهم يرون أنفسهم كبارا ويبحثون عن ذواتهم مع أصدقائهم وفى عالمهم الخاص المستقل عن عالم الأسرة الذين يتصورون أنه لا يرتبط به إلا الأطفال .

ولا بأس بكل ذلك إذا عرفنا أنها فى النهاية مرحلة مؤقتة وعرفنا كيف نتعامل معها.. فنسلم لهم بقدر معقول من الاستقلالية.. ولا نحاول إجبارهم على مشاركتنا واجباتنا المنزلية أو مناسباتنا العائلية إذا شاءوا ذلك.. إلا بالترغيب وحده وليس باستشارة الإحساس بالواجب لديهم أو إشعارهم بالتقصير تجاه الأسرة إذا لم يؤدوه.. كما ينبغى أيضا أن نتجنب كثرة النصائح المباشرة لهم فى هذه السن الحرجة وأن نصوغها دائما فى شكل خبرات حياتية أتيح لنا الاطلاع عليها بحكم السن أو بمحض الصدفة، ولا بأس من أن نضعها عرضا تحت أنظارهم عسى أن يجدوا فيها ما يفيدهم، ثم نترك لهم ولعقولهم مهمة اكتشاف ما يناسبهم منها، وقد نعينهم على هذا الاكتشاف بطريقة غير

مباشرة.. فيشعر الابن في هذه السن أنه هو الذى قرر واختار ولم يفرض أحد عليه رغباته كما يحدث مع الأطفال !

وخفضى أيضا من تذكيره بمعاناتكم من أجله في كل مناسبة حتى لا يستثير ذلك رفضه وتمرده على غير المتوقع.. فلا تبتئسى، وتعاملى مع ابنك الشارد هذا بتحفظ يشعره بحزنك الشديد على ما بدر منه ولا تعودى إلى طبيعتك معه إلا بعد أن يعتذر لك اعتذارا كافيا ومرضيا، فإذا فعل وسوف يفعل بالضرورة فأطلقى العنان لعواطفك تجاهه وعبرى عنها أمامه بلا حرج وشجعيه أيضا على أن يعبر لك ولأبيه عن عواطفه تجاهكما بلا حرج، فنحن فى حاجة إلى استخدام كلمات الحب والاعتزاز كل يوم بل وكل ساعة فى علاقات الأبناء بالآباء والأمهات أكثر من أى شىء آخر.. وسوف تكون النتيجة مرضية لك بإذن الله .

* * *



الاعترافات المريرة

أنا يا سيدى من قراء بابك الأوائل منذ أنشأته فى بداية الثمانينيات، ولقد قرأت لك منذ فترة فى أحد ردودك عبارة تقول فيها إنك من كثرة ما قرأت من عجائب البشر فى رسائل القراء لم تعد تعجب لشيء أو تستبعد شيئا على النفس البشرية، التى لا يعرف أحد كل غوامضها ونوازعها الخفية، وأنا أصدقك تماما فيما تقول لكنى متأكدة أيضا من أننى سوف أضيف إلى رصيد العجب عندك جديدا، إذا صبرت على قراءة رسالتى هذه حتى النهاية، فأنا سيدة فى الثلاثينيات من عمري وزوجى فى الأربعينيات من عمره، وقد تزوجنا منذ ١٤ عاما بعد قصة حب جمعت بيننا برغم

معارضة أهلى فى هذا الزواج، لكننى تمسكت به وتم زواجنا ولم يحضره معظم إخوتى لسفرهم خارج البلاد وقتها، فأرسلت إليهم جميعا صور الزفاف والفرح، ومن بينهم شقيقة لى كانت تقيم مع زوجها وأولادها فى بلد غير عربى، فلم تمض أيام حتى فوجئت بشقيقتى هذه تدعونى

للسفر إليها مع زوجي لقضاء بضعة أيام من شهر العسل في ضيافتها، وسعدت بالدعوة وسافرنا إليها بالفعل، ومن أول لقاء بيننا في حضور زوجي أحسست بشيء غير مريح في نظرات أختي لزوجي. لكنني لم أعلّق على ذلك بأهمية كبيرة؛ لأنّ كلينا يحب الآخر وقد خضنا معاً حرباً عائلية حتى يرتبط كل منا بشريك قلبه، وطردت على الفور هذه الهواجس غير المريحة من رأسي، وساعدني على ذلك أن شقيقتي كانت قد تزوجت زوجها هي أيضاً عن حب ولها منه أبناء .

واستمتعنا بإجازة شهر العسل في ضيافتها. ورجعنا إلى بلدنا سعيدين ومضت حياتنا الزوجية هادئة وهانئة، وأنجبت طفلين سعدنا بهما غاية السعادة رغم أنّهما قد ولدا متعاقبين عاماً بعد عام، واحتاجا مني إلى جهد كبير لرعايتهما معاً، وبعد فترة قصيرة من مولد الطفل الثاني فوجئت بعودة شقيقتي من الخارج تاركة زوجها وأبنائها وراءها، وبأنها تطلب الطلاق من زوجها بإصرار بحجة أنه يسيء معاملتها في الغربية. وحاولنا معاً المستحيل لكي ترجع عن طلب الطلاق رفقا بأبنائها فلم نُجِدْ معها أية محاولة، ووقع الطلاق بالفعل بعد بضعة أسابيع واحتفظ زوجها بأبنائه معه؛ لأنهم تجاوزوا سن الحضانة، وقبعت أختي في بيت الأسرة مع أبي وأمي. وبعد فترة قصيرة بدأت

تشعر بالملل والوحدة والفراغ لأنها لا تعمل ولا أمل لها في عمل مناسب، فوجدت نفسى أعرض عليها الإقامة معى في بيت الزوجية لكى تشغل نفسها برعاية الطفلين الصغيرين خلال فترة غيابى أنا وزوجى في عملنا، ورحبت هى بهذا العرض رغم معارضة أهلى له في البداية، وانتقلت أختى للإقامة معى، فعاملتها - يعلم الله - أحسن معاملة، وسعدت بوجودها معى ووضعت بيتى وملابسى كلها تحت تصرفها، فلم يمض وقت طويل حتى بدأت ألاحظ انشغال زوجى بها، وانشغالها هى أيضا بزواجى، فاستيقظت الهواجس غير المريحة التى كادت تفسد علىّ إجازة شهر العسل وراحت تطاردنى من جديد، وفكرت كيف أواجه هذا الموقف الذى وضعت نفسى فيه من حيث لا أقصد، فأنتهى بى تفكيرى إلى أن أحصل على إجازة بدون مرتب من عملى، وأتفرغ لرعاية طفلى وبيتى فينتفى الغرض من إقامة أختى عندى وتجد نفسها بلا عمل تؤدّيه فتشعر بالخرج وترجع لبيت الأسرة .

ونفذت ذلك بالفعل، وبعد أيام من حصولى على الإجازة رجعت أختى إلى بيت الأسرة، واسترحت بعض الشئ من هواجسى المكتومة التى لا أستطيع مصارحة أحد بها، لكنه لم تمض فترة أخرى حتى بدأت ألاحظ شيئاً آخر مختلفاً وغير مفهوم بالنسبة لى، فقد لاحظت أن زوجى لا يذكر أختى أمامى إلا بسوء وأنه ينتقدها وينتقد تصرفاتها دائماً

ويبدى عدم ارتياحه لها، ولاحظت أيضا أن أختى فى المقابل لا تتحدث عنه أمامى إذا عرضت سيرته إلا بما لا يجب هو أن يسمعه عنه وأنها تسبه كثيرا وتنقده وتعيب عليه الكثير من تصرفاته وسلوكه وشخصيته! وحررت فى فهم هذا العداء الغريب وهذه الكراهية المتبادلة بينهما، واكتفيت بالصمت كلما تحدث زوجى عن أختى بسوء، وكلما تحدثت أختى عنه بنفس الطريقة .

ولن أنكر عليك أنى وجدت لذلك فى نفسى بعض الارتياح الصامت وبعض مما يبعد عنى تلك الهواجس المقلقة، وحرصت على ألا أنقل لأحدهما رأى الآخر فيه حفاظا على السلام العائلى، ولكى يظل بيت أسرتى الذى تقيم به أختى مفتوحا لى ولزوجى معى، ويظل بيتى مفتوحا لأسرتى وإخوتى ومنهم أختى هذه .

ومضت بنا الأيام ثم بدأت أسمع أن أختى تبالغ فى تلهفها على الزواج مرة ثانية، فتزيد من دائرة العلاقات الاجتماعية حولها، إلى حد يكاد يهددها بسوء السمعة من حيث لا تريد، وانتقد بعض الأهل بالفعل تصرفاتها هذه لدى أمى فدافعت عنها دفاعا أعمى، وقالت للجميع إنه يكفيها ما لاقتة من سوء معاملة زوجها لها فى الغربة ! ولم تحاول نصحتها بالاحتراس والحفاظ على سمعتها لكى تستطيع الزواج فعلا .

ثم ارتبطت شقيقتي ارتباطا سريعا بشخص مناسب وتزوجته خلال فترة قصيرة، فتنفست أنا الصعداء، ورجع الهدوء من جديد لحياتي الزوجية، ورحت أتبادل مع أختي وزوجها الدعوات المنزلية للغداء والعشاء في بيتي وبيتها من حين لآخر، فلاحظت مرة أخرى نفورا عجبيا ومتبادلا بينها وبين زوجي بلا مبرر واضح، وبدلا من أن أسعد هذه المرة بهذا النفور وأطمئن له، وجدته على العكس يثير قلقى ويجدد هواجسى القديمة من جديد، لأن وجود هذا النفور يعنى أن بينهما أسراراً لا أعرفها، ولهذا فهما يتنافران بلا سبب واضح لى أو لغيرى .

إلى أن حدث ذات يوم منذ بضعة شهور أن كنت بدون زوجى فى بيت الأسرة وكانت شقيقتى هناك وحدها أيضا لأن زوجها على سفر قصير، وكان مفهوما أنها ستبيت ليلتها فى بيت الأسرة لأن زوجها غائب، لكننى فوجئت بها تنهض للانصراف إلى شقتها لأن زوجها سيتصل بها تليفونيا، فعرضت عليها أمى إذا كان ضروريا لها أن تنصرف أن تذهب معها إلى شقتها لكيلا تمضى الليل وحيدة، لكنها رفضت ذلك وتعجلت الانصراف حتى لا تتأخر عن موعد المكالمة وخرجت معها عائدة إلى بيتى وقامت بتوصيلى إليه، ثم انصرفت على وعد منها بأن تتصل بى من شقتها لأطمئن على وصولها إليها، وبقيت فى بيتى أنتظر زوجى إلى أن جاء فى منتصف الليل، وسألته بتلقائية عما

أخّره كل هذا الوقت فاعتذر بالعمل، وبدلاً من أن أتقبل الأمر ببساطة وجدت نفسي فجأة وبلا سبب واضح أسأله عما إذا كان قد التقى بأختي هذا المساء في أى مكان ولو بالمصادفة؟!

وفوجيء بالسؤال غير المتوقع وسارع بالنفى مضطرباً فإذا بى ولغير سبب مفهوم أيضاً أقدم إليه مصحفاً شريفاً وأطلب منه أن يقسم على صدق ما قال، فنظر إلى متردداً وحائراً للحظات ثم أقسم على المصحف الشريف.. ورغم ذلك لم تهدأ هواجسى فطلبت منه أن يقسم أيضاً بالطلاق أنه صادق فيما أجابنى به فأقسم على ذلك، وكان المفروض عند هذا الحد أن أقنع بصدقه وينتهى الأمر إلا أننى لم أقنع ولم أصدق ولم تهدأ هواجسى وظنونى طوال الليل ونمت نوماً قلقاً مضطرباً طوال الليل، وفى الصباح كان أول ما فعلت هو أن اتصلت بأختي وتجاذبت معها أطراف الحديث بطريقة عادية وسألتها عن مكالمة زوجها لها مساء أمس، ثم سألتها على سبيل الشرثرة عما إذا كانت قد رأت زوجى بالمصادفة مساء أمس بعد انصرافها عني، فإذا بها تجيبني في زلة لسان مؤلمة بأنها قد رآته بالفعل وصافحته مصافحة عابرة! فأسقط في يدي ومادت بى الأرض وانتظرت عودة زوجى من عمله وأنا أحترق بالكمد والضيق والغيط، وواجهته بما عرفت من أختي خلال المكالمة، ففوجئت به ينهار ويعترف لى بأنه كان معها بالفعل مساء أمس في أحد

المحلات العامة، وأنه قد سأل عن جدية يمين الطلاق الذي أقسمه فأفتاه البعض بوقوع الطلاق فردّنى وأنه نادم على كل شىء... ثم توالت اعترافاته المفجعة، فاعترف لى بأنه على علاقة عاطفية معها طوال عشر سنوات، وبأن ذمّه فيها معى وذمّها فيه عندى والنفور المتبادل بينهما أمامى، كانا من ضمن خطة التمويه التى دبرها معا لكيلا أكتشف أمر هذه العلاقة، بعد أن لاحظا شكوكى فيهما وأن علاقته بها قد بدأت وهى مازالت تقيم فى بيتنا لرعاية أطفالنا، وأنه بدأها، بمحاولة التلامس معها، فلم تردعه عن ذلك ولم تستجب له فى نفس الوقت، واكتفت بأن قالت له إن هذا حرام، وإنه عرض عليها أن يطلقنى ويتزوجها، فأبت عليه ذلك خوفا من الأسرة وكلام الناس .

واستمرت العلاقة بينهما على هذا النحو عن طريق المكالمات التليفونية الطويلة، واللقاءات الخاطفة واللفتات العاطفية طوال السنوات الماضية تخللتها فترات صلح وخصام كأى طرفين فى علاقة، حتى إنه - كما اعترف لى بلسانه - قد تمنّى لى فى بعض الفترات الموت، لأنه الحل المثالى الذى يمكنه من الزواج منها بدون فضائح عائلية ! ولم أحتمل منه أكثر من ذلك فخهرت مغشيا علىّ، ولم أفق من إغمائى إلا على دموعه ونحيبه فحاولت تمالك نفسى بعض الشىء، وجلست أمام زوجى أحاول استيعاب الموقف، وانحنى هو على قدمى باكيا بحرارة،

وطلب منى أن أصفح عنه وأسامحه لأنه قد رجع الآن إلى رشده وعرف خطأه وأدرك قيمتى عنده... إلخ .

وجلست شاردة ذاهلة لا أعرف بماذا أجيبه ولا ماذا ينبغي لى أن أفعل، ثم ألهمنى الله فجأة فكرة جريئة فطلبت منه أن يكتب كل هذه الاعترافات بخط يده على ورقة إذا كان صادقا حقا فى ندمه وتوبته لكى تكون تحت يدى إذا رجع إلى هذه العلاقة مرة أخرى، ويكون من حقى حينئذ أن أقدمها للمحكمة كدليل على خيانتة لى وأطلب الطلاق وأحصل عليه وعلى كل حقوقى لديه !

ولا أعرف حتى الآن كيف استجاب زوجى لهذا المطلب الغريب، وربما كان ضعفه وانهاره قد ساعده على ذلك، فجلس يكتب كل ما قاله لى فى ورقة ويقر فيها على نفسه بخيانتة لى مع أختى ويتعهد أمام الله وأمامى ألا يعرف هذه «المرأة» وألا يخوننى مرة أخرى !

ولا أعرف أنا أيضا كيف مضت علينا الأيام التالية لهذه الطامة الكبرى بعد فجيعتى فى زوجى وأختى معا، لكنى على أية حال قد طلبت منه أن انفصل مؤقتا داخل البيت فيقيم فى حجرة أخرى، حتى تهدأ نفسى وتشفى جراحى، وحدث ذلك بالفعل، ومازال كل منا يعيش فى حجرة منفصلة. لكن مصيبتى لم تتوقف عند حد فجيعتى فى زوجى وأختى فقط، وإنما امتدت إلى غيرهما وتضاعفت بعد هذه

الاعترافات بفترة قصيرة، فلقد فكرت في أن أطلع أمي عليها لأنها شاركت من حيث لا تدري في خطأ أختي بدفاعها الأعمى المستمر عنها في كل الأحوال ورفضها قبول أي انتقاد لها، وفكرت أيضا في إطلاع بقية إخوتي عليها ليعرفوا «حقيقة» أختهم هذه، فما إن فعلت ذلك بيت أسرتي وفي وجود أمي وإخوتي وأختي الخائنة، حتى هجمت على أختي هذه لتحاول أن تضربني بدلا من أن تنهار وتقبل قدمي وتطلب أن أسامحها، وذلك لأنني «أظلمها» كما قالت وأرميها في شرفها !

وفوجئت أيضا بانقسام إخوتي إلى فريقين أحدهما معها والآخر معي. أما أمي فقد أنهت الموقف كله بطردى من بيتها بغير أن نتوصل إلى حل للمشكلة، ولم أجد ما أقوله لها حين فعلت سوى : حسبى الله ونعم الوكيل فيك يا أمي، فأنا وهى من أبناءك، لكنك لا تشهدين بالحق الذى تعلمين تماما أنه معي، فلم تكتف أمي بطردى بل وضربتني أيضا وغادرت بيت أسرتي وأنا مقهورة وقهر الدنيا كله في داخلي، وبكيت كما لم أبك في حياتي حتى عند وفاة أبي منذ بضع سنين، وعدت لبيتى ورويت لزوجي ما حدث فتأثر لخالى وقرر أن يرجع معي إلى بيت الأسرة ويعترف أمام أمي وإخوتي بصدق ما رويته لهم لكى يرفع عني هذا الظلم الذى تعرضت له منهم ورجع معي بالفعل واعترف أمامهم

بما قلته كله وأقسم عليه بالطلاق أيضا وقال لأمى وإخوتى إنه لا يتنصل من جريمته وأنه مستعد لتحمل أى عقاب يرون توقيعه عليه، فكذّبتة أختى مرة أخرى بجرأة أعجب وكذّبوه هم أيضا معها، ورجعنا كما ذهبنا .

وقد تسألنى الآن: لماذا أكتب لك هذه الرسالة المخزية، وماذا أريده من ورائها؟؟ وأقول لك إننى أكتبها لأن أمى قد أغلقت الآن فى وجهى بيتها، فلم يعد لى مكان آخر سوى بيت الزوجية الذى أتمنى أن أتركه، لكن إلى أين أذهب إذا تركته؟ لقد حاولت الانتحار، لكن زوجى يطالبنى بالصبر والنسيان، ويعرض على أن نحتكم إليك وأن تدعونا لمقابلتك لتساعدنا فى التوصل إلى حل عادل لوضعنا الحالى، وأنا أريدك بالفعل أن تدعونا لمقابلتك، كما أريدك أيضا أن توجه لأمى وإخوتى الذين اشتركوا جميعا فى تأييدهم لخائنة العيش والملح وصلة الرحم، وأن تقول لأمى إن ما فعلته معى حرام ولا يرضى به الله، وإننى أردد كل يوم: حسبى الله ونعم الوكيل فى كل من ظلمنى.. فهل تستجيب لهذين المطلبين يا سيدى؟

ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

لولا إشفاقى عليك يا سيدتى مما تشعرين به من قهر عائلى مؤلم، ومرارة قاسية لفقدان الأهل والنصير فى محنتك هذه، لما نشرت رسالتك

ولما شغلت بها فكرى، فالحق أننى أكره مثل هذه المشاكل الأخلاقية الشاذة وأتجنب قدر الإمكان عرضها على القراء تحسبا لآثارها السلبية الضارة على القيم الإنسانية والعائلية والأخلاقية، وتخوفا من أن تعطى البعض بشذوذها انطبعا خاطئا عن أحوال البشر، مع أننا نعرف جيدا أن الشر مزعج بطبيعته ولهذا فهو يلفت النظر ويستوقفنا، فى حين يمضى الخير فى دربه الآمن المألوف بلا ضجيج ولا إثارة فلا نكاد نشعر به، مع أنه الأغلب والأعم فى كل زمان ومكان.

وبعد هذا التحفظ المبدئى، فإننى أضيف إليه أيضا أننى أفترض فيمن يكتب لى عن مشكلته الصدق فيما يرويه لى ، مؤمنا بأنه إذا لم يكن صادقا معى، فلن يحصل منى على المشورة الصائبة فى أمره، وبالتالي فإننى أفترض دائما الصدق فيما أسمع وأقرأ معتبرا نفسى أتعامل فيها أناقشه من مشاكل مع «نماذج بشرية» تحددها لى وقائع الرسالة المعروضة علىّ، وليس مع أشخاص بعينهم، فإذا جاءنى الطرف الآخر ذات مرة وشكا لى من أن بعض ما قيل عنه فى هذه الرسالة أو تلك ليس صحيحا، قلت له على الفور، إذن فأنت لست «النموذج البشرى» الذى قصده بردى على تلك الرسالة، حتى ولو كنت البطل الحقيقى لها وكان ٩٥٪ من وقائعها صحيحا، لأننى إنما قد تحدثت عن نموذج آخر كونت رأى فيه على ضوء ما عُرض من وقائع أفترض صحتها كلها .

وبهذا المفهوم يا سيدى فقد أستعير لقصتك هذه من أعمال أديب الإنجليزية الأشهر شكسبير، عنوان ملهاته الشهيرة: «كوميديا الأخطاء»، لأشير به إلى وقائع هذه القصة الغريبة بعد تحويله إلى «تراجيديا الأخطاء المؤلمة» ليكون أصدق تعبيراً عنها .

فقصتك للأسف تكاد تكون من البداية سلسلة متصلة من الأخطاء المريرة التى اشترك فيها جميع الأطراف، حتى بلغوا بها فى النهاية حد المأساة المفجعة، ومن عجب أن تكونى أنت أيضاً يا سيدتى أول من بدأت هذه السلسلة غير الذهبية من الأخطاء، حين دعوت شقيقتك لكى تقيم فى بيتك، بالرغم من أنه قد ساورتك بشأنها الشكوك والهواجس من اللحظة الأولى التى التقت فيها بزواجك، ولاحظت عليها نظراتها غير المريحة إليه ! والمؤسف أيضاً أنك قد فعلت ذلك ليس لأنك قد تخلصت نهائياً من هذه الهواجس بشأنها، وإنما لأنك قد راهنت على تجاهلها طلباً لمصلحة مؤقتة هى رعاية طفليك فى غيابك، فكان رهانك خاسراً منذ البداية وأسهمت من حيث لا ترغبين فى نسج خيوط هذه القصة المخزية .

أما خطأ أختك فى حقك، فهو أشد هولاً وشناعة من خطأ زوجك، رغم بشاعة خيانتة لك من أقرب الناس إليك، وإن كان التفاضل فى الخطايا لا يكون دائماً إلا بين سيئ وأسوأ، ذلك أن زوجك حين تطلع

لشقيقتك فلقد خان بذلك علاقة الزوجية المقدسة وأساء إلى القيم الأخلاقية والدينية.. أما خطأ أختك حين بادأته بالإغواء أو استجابت لإغوائه فلقد كانت تهدر بذلك كل القيم الأخلاقية والدينية والإنسانية العائلية كذلك، لأن العلاقة الزوجية رغم قداستها علاقة قد تنفصم. أما علاقة الدم والرحم فهي علاقة أبدية ولا انفصام لها ولا يجوز المساس بها مهما كانت الإغراءات والأسباب. ومن هنا يثقل خطأ أختك في الميزان عن خطأ زوجك، وإن كان كلاهما خاطيء ولا تغسل خطيئته مياه البحر بأكملها.

أما والدتك فلقد أدلت هي الأخرى بدلوها في هذه الفاجعة حين التزمت موقف الدفاع الأعمى عن أختك، رغم كل ما وجه إليها من انتقادات قبل الزواج، ثم واصلت التزامها بهذا الدفاع الأعمى عنها حتى حين انفجرت الكارثة العائلية. وشاركها إخوتك سيمفونية الأخطاء الرهيبة، فكذبوك وكذبوا زوجك وأوصدت أمك بابها في وجهك بغير أن تنتصر لك أو تواسيك بكلمة واحدة تعينك على تحمل أقدارك.

أما الخطأ الدامي الذي حوّل اتجاه الريح لكى يصبح ضدك بدلا من أن يكون معك، فلقد تورطت أنت أيضا فيه يا سيدتى من حيث لا تقصدين، فكانت له نتائج شديدة الإيلام لك وللحق والعدل

والإنسانية أيضا. وحولك هذا الخطأ من ضحية إلى جانية في أنظار أسرتك، ومن صاحبة حق معتدى عليها، إلى مجترئة على الروابط العائلية ترمى «المحصنات» في شرفهن.. حتى ولو كان معها الدليل الدامغ وهو اعترافات زوجها بخط يده.. وبصوته وشخصه في مواجهة الجميع !

أما كيف حدث ذلك.. وأين كان خطأك فيه.. فهذا هو اجتهادى المتواضع في محاولة تفسيره ، وليس تأييده أو القبول به على أى وجه من الوجوه .

إن خطأك الأكبر يا سيدتى هو أنك لم تتعاملى مع هذه الفجيرة في زوجك وأختك بالطريقة الوحيدة التى كان ينبغى لك التعامل بها معها، حرصا على الأواصر العائلية، وسترا لما لا ينبغى له أن يخرج عن حدود صدر من يعانى، حتى ولو اكتوى بجحيم نيرانه، وهو تكتمه وحصره في حدود علاقتك بزوجك.. ومحاولة اتخاذ القرار الملائم لك بشأن حياتك مع زوجك، بغير أن يتحول الأمر إلى فضيحة عائلية تهز الجميع من أعماقهم وتدفعهم لاتخاذ مواقف دفاعية نفسية أكثر منها مواقف عقلانية أو منطقية أو عادلة .

ذلك أنه من مواقف الحياة يا سيدتى ما تضر فيه المواجهة والانتشار والذئوع بأكثر مما يضر الكتمان وتضييق الدوائر حتى ولو تعذب

الإنسان وحده بأقداره.. ولقد كان الموقف الذى واجهته فى حياتك الزوجية من هذه المواقف يا سيدتى. وكان أمامك حين واجهته خياران اثنان لا ثالث لهما، هما إما أن تطوى صدرك على السر المؤلم الذى يضربك أنت ويسىء إليك ذبوعه بقدر ما يسىء إلى أختك وزوجك، وتفكرى فى أمر حياتك مع زوجك، فتقبلى بتوبة شريك حياتك وتتأكدى من صدق ندمه، وتواصلى الحياة معه مع الاحتراس والتحوط من ألا يرجع إلى ما كان فيه مرة أخرى، ولو تطلب ذلك التلميح لأختك أو التلويح لها بتهديد ضمنى لا يحسب عليك عند الحساب بأن ما جرى طوال الفترة الماضية لن يستمر يوما واحدا بعد الآن، وإلا كانت العاقبة وخيمة عليها وعلى حياتها الزوجية، ثم تواصلى حياتك مع زوجك مع الحذر اللازم من تجدد العلاقة ومع تحفظك بعد ذلك فى علاقتك بأختك، وتجنب اللقاءات العائلية والشخصية معها لفترة طويلة، إلى أن تطمئنى تماما لاستيعابها درس التجربة. وإما أن تعجزى عن الصفح عن زوجك وعن القبول بالحياة معه بعد استنفاد كل محاولات مراودة نفسك على ذلك، فتطلبى الانفصال عنه مع تكتم أسبابه المخجلة للجميع وأولهم أنت، ثم ترجعى للإقامة فى بيت والدتك، وقد تشفى نفسك بعد حين وتستجيبنى لمحاولات زوجك لاستعادتك إذا لمست فيه استقامته

وصدق ندمه، وقد تتمسكين برفضه وتعلقين بالأمل في بدء حياة جديدة مع غيره ذات يوم .

أما طرح المشكلة بشكل علني .. وعلى هيئة محاكمة حضورية لأختك، على الأم والإخوة بهدف أن يعرفوا «حقيقتها» وتعرف أمك حقيقة دورها في إفسادها، فقد كان ذلك هو الطامة الكبرى حقا بكل المقاييس. ذلك أن كل تصرف يقدم عليه الإنسان طلبا لحل مشكلة يواجهها، ينبغي أن يكون له هدف يساهم في تحقيق هذا الحل. فماذا كان الهدف من وراء طرح هذه المشكلة المخزية على الإخوة والأم على هذا النحو الفاضح؟! .. وماذا كانت نتائجها المعاكسة؟!

لقد كان هدفك في تقديرى هو أن تستصدرى ضدها قرارا بالحرمان العائلي أو المقاطعة الجماعية، ولو فعلت أمك وإخوتك ذلك لما لامهم أحد عليه، لكن ماذا كان يجديك ذلك في حل مشكلتك مع زوجك؟! .. هل كان يغير شيئا مما جرى طوال عشر سنوات؟ هل كان يساعدك على تجاوز المحنة مع زوجك واستمرار الحياة معه حرصا على أبنائك؟! .. هل كان يعيد إليك ثقتك فيه؟ أو يغسل جريمة أختك في حقك ويمحوها محوا؟! .. لا شيء من ذلك للأسف كان سيحققه مثل هذا القرار حتى لو كان الجميع قد أنصفوك وانتصروا لك ضدها، وإنما كان الشيء الوحيد الذى سيحققه هو أن يروى لديك رغبة الانتقام من أختك والثار منها لإساءتها لك هذه الإساءة البالغة .

وهذا الانتقام نفسه لم يكن لو تحقق ليغير شيئاً من الواقع المر، ولم يكن ليضيف شيئاً إلا تحويل مأساتك الشخصية إلى مأساة عائلية جماعية يستخزي منها الجميع وتجرح مشاعرهم وكبرياءهم. لهذا فقد حققت نتائجها العكسية بدلا من أن تحقق لك نتائجها المرجوة، لماذا؟.. لأن الإنسان قد يفضل أحيانا خداع نفسه على مواجهة واقع شديد الإيلام لمشاعره وشديد المساس بكرامته وشرفه وكبريائه، فيلجأ إلى بعض الحيل النفسية الدفاعية لكي يعفى نفسه من ألم المواجهة .

وأنت يا سيدتي قد وضعت الجميع أمام هذا الاختيار الصعب، فإما أن يسلموا لك بكل ما اتهمت به أختك فتتأذى مشاعرهم العائلية وكرامتهم وشرفهم وكبرياؤهم الشخصى أشد الأذى، وإما أن يلجأوا إلى الإنكار، والتشكك في صدق اتهاماتك وأدلتك، ويأخذوا بمبدأ تفسير الشك لصالح المتهم مفضلين اتهامك أنت بالغيرة الجنونية وسوء الظن بأختك على أن يتحملوا آلام الاعتراف المؤلم لمشاعرهم وكرامتهم وشرفهم بصدق ما توجهينه لها من اتهام .

ولقد كان هذا بالفعل هو اختيار والدتك وإخوتك الذين انقسموا في البداية بينك وبينها، ثم تكتلوا في النهاية ضدك، ليس تفضيلا لها عليك ولا حبا في شخصها وكراهية لشخصك، وإنما حبا لأنفسهم هم قبل كل شيء، وإيثارا للسلامة النفسية من معاناة الخيار الأول المؤلم .

إنها حيلة نفسية دفاعية لم يتفقوا عليها بتدبير مسبق وإنما لجأوا إليها تلقائيا وفرادى لأنها تعفيهم جميعا من الإحساس بالعار العائلي ، حتى ولو تشكك بعضهم أو كل منهم في أعماقه في كذب دفاع الأخت عن نفسها وفي براءتها، ولا عجب في تفضيل هذا الخيار الأسهل لأنه أقل إيلا ما لهم وفي أن يتهموك أنت بالتجنى عليها، من أن يسلموا بأنها خاطئة وخائنة لشقيقتها مع زوجها لعشر سنوات كاملة !

لهذا فلقد خسرت أنت المعركة حين وضعتهم جميعا أمام هذا التحدى المؤلم لشرفهم وكبريائهم، فأثروا السلامة النفسية واختاروا الحل الأيسر لهم الذى يعفيهم من مكابدة إحساس العار ومواجهة الواقع المؤلم الذى يحتاج إلى شجاعة نفسية لمواجهة، لم تتوافر لهم .

وليس معنى ذلك أبدا أن موقفهم صحيح أو عادل .. فهو موقف ظالم لك ومخادع للنفس، لكنك قد ساعدتهم جميعا على اتخاذ بطرح هذه المشكلة المخجلة عليهم على هذا النحو الجماعى العلنى، وما كان ينبغى لك أن تفعل ذلك أبدا، وما كان ينبغى لك من البداية إلا أن تطوى صدرك على هذا الجرح المؤلم وتختارى حياتك مع زوجك ما يرتاح إليه ضميرك وتقوى عليه إرادتك فى هدوء وبلا ضجيج .

أما وقد فعلت، فلم يبق لك إلا دواء الأيام وحده وما أبطأه من دواء.. وما أنجعه أيضا من علاج، فالزمن كفيل بحل أعتى المشاكل

حتى ولو كانت من نوع المآسى الإغريقية كهذه المأساة، كما لم يبق لك أيضا إلا أن تختارى حياتك مع زوجك على ضوء هذه الأوضاع الجديدة التى ساهمت للأسف فى تعقيد موقفك، ولعل فى مساندة زوجك لك أمام أسرتك واعترافه أمامهم بما يشينه هو شخصيا ولا يجرؤ كثيرون على الاعتراف به فى محاكمة عائلية وبلا هدف سوى أن يبرىء ساحتك ويناصرك فى محنتك معهم، أقول إنه لعل فى هذا الموقف الذى لا ينكر أحد عليه شجاعته فيه ما يصلح لأن يكون بداية تبنيان عليها أو تبدآن منها صفحة جديدة خالية من كل الآثام والخطايا، إذا أردت ذلك أو لمست فى نفسك الاستعداد للقبول به .

وأنت على كل حال لا بدائل أخرى الآن أمامك سوى ذلك بعدما تحطمت كل الجسور بينك وبين أسرتك بهذه المواجهة الخاطئة، ففكرى فى الأمر على ضوء هذا الواقع المؤلم وتخلصى من تسلط رغبة الانتقام من أختك عليك، حتى لو كانت تستحقه، لأن إيذاءها لن يجديك شيئا ولن يعوضك عن شيء من سنوات العمر الضائعة فى الخيانة والغدر ، ولأن رد الإيذاء أيضا فى الأحوال العائلية إنما يصيب يد الرامى نفسه قبل أن يصيب قلب الهدف . ولأنه فى مثل هذه الحروب العائلية كذلك لا ينتصر فى النهاية سوى الألم وحده الذى يصيب رذاذه الضحايا والجناة على السواء!

وقديما قال شاعر الأطلال الدكتور إبراهيم ناجي :

عشت وامتدت حياتي لأرى في الثرى ما كان قبلا في القمم

وإذا انحط زمان لم تجد عاليا ذا رفعة .. إلا الألم !

وأى زمان أحط من زمان تخون فيه أخت أختها عشر سنوات كاملة
مع زوجها، ثم تواجهها الضحية بما فعلت .. فلا تثقب عينيها بمسما
ندما واستغفارا كما فعل أوديب حين اكتشف أنه قد تزوج من أمه بغير
أن يدري، وإنما تنقض على أختها كالنمرة الشرسة لتنشب فيها أظافرها،
وبدلا من أن يجتمع عليها أهلها وإخوتها حتى ينقذها منهم المنقذون
يشاركونها العدوان على الضحية وينتصرون لها عليها .. ويفضلون
«الإنكار» المريح على الاعتراف المؤلم بالواقع المخزى .. ولا حول ولا
قوة إلا بالله !!

* * *

اللحظة الفاصلة

أكتب إليك رسالتى هذه انفعالا برسالة «التضحية المخيفة»، التى روت لك فيها زوجة محبة ومخلصة عن صبرها على نزوات زوجها، إلى أن فوجئت به وقد تزوج سرا من سيدة تعرف بها قبل ٤ شهور فقط وتركت زوجها المسن بعد زواج ٢٣ عاما وضحت بأبنائها الشباب وحصلت على الطلاق لتتزوج من زوج كاتبة الرسالة زواجا عرفيا. وأريد أن أقول لك يا سيدى إننى لم أندesh لوقائع القصة نفسها فهى قد تحدث كثيرا فى الحياة، لكنى اندهشت حقا لردي عليها الذى قلت فيه إن هذه السيدة التى تزوجت من زوج كاتبة الرسالة إنما كانت تخطط منذ فترة بعيدة وقبل

التقائها به للتخلص من زوجها، ووجدت فى زوج كاتبة الرسالة الحماية لها فحسمت أمرها مع زوجها وأقدمت على الخطوة التى كانت تدبر لها منذ زمن طويل، وبالتالي فإن حبها لزوج كاتبة الرسالة الذى لا يزيد عمره عن شهور ليس هو دافعها لهدم أسرتها.. وليس هناك إذن ما

يدعو زوج كاتبة الرسالة للتذرع بعدم التخلّي عنها بحجة هذه التوضيحية
المزعومة من أجله !

وسر اندهاشى لهذا الرد هو أنه صحيح فعلا ولا أعرف كيف
توصلت إليه من تحليلك لوقائع القصة.. وقصتي تؤكد أن الزوجة ذات
الأبناء لا تحسم أمرها في طلب الطلاق بمثل هذه الرعونة وإنما بعد
تفكير طويل طويل، فأنا سيدة أبلغ من العمر ٤٠ عاما وعلى قدر من
الجمال والرشاقة والأناقة يدفع الناس للاعتقاد بأنى أصغر سنا من
عمري الحقيقي وقد تزوجت منذ ٢٣ عاما، أى وأنا في السابعة عشرة
من عمري من رجل يكبرنى بـ ١٧ عاما . ولم يجبرنى أحد على الزواج
منه حين تزوجته، وإنما كان هذا هو العرف السائد وقتها فى أسرتي
المحافظة، وهو أن يختار لنا الأهل شركاء الحياة فلا نعترض على
اختياراتهم مادامت فى حدود المألوف .

وقد كان زوجى حين ارتبطت به رغم فارق السن الكبير بيننا فى
مرحلة الشباب ولا يزيد عمره على ٣٤ عاما، وإنما ظهرت المشكلة
بسبب صغر سنّى بالقياس إليه.. وعلى أية حال فقد مضت حياتى مع
زوجى بعد الزواج فى استقرار ولكن بدون سعادة حقيقية.. بل ومع
كثير من المعاناة.. فلقد كان باختصار إنسانا فاشلا فى حياته بكل ما
تحمّله هذه الكلمة من معان، وكانت له نزواته النسائية العديدة وأوضاع

الكثير من ثروته فيها وفي تخبطه وفشله حتى لم يعد قادرا على الإنفاق على أسرته كما ينبغي، وفي مقابل ذلك كنت أظاھر دائما بالاستقرار في حياتي الزوجية وأعوض نقصه المادي، إلى أن صدمني بإهانة قاسية أسقطته من نظري كرجل وكانت هذه الإهانة موضوع رسالة نشرت في بريدك منذ حوالى عامين، ورغم ذلك فلقد تحاملت على نفسى.. وسويت أمورى معه وحافظت على استمرار الحياة لا حبا فيه.. ولا من أجل أبنائى كما تتصور، وإنما خوفا من أسرتى ومن نظرة المجتمع لى كمطلقة.. ومن نظرة أولادى أنفسهم لى كأم حرمتهم من الاستقرار العائلى ذات يوم، إلى أن بلغت «كوارثه» ذروتها بإصابته بالعجز الذى يدفعه لمحاولة إثبات العكس، فتحولت حياتى إلى جحيم حقيقى .

ونظرا لأننى إنسانة متدينة ولا أطيق فكرة الخيانة الزوجية أو أقبل بها، فلقد ازداد تفكيرى فى طلب الطلاق منه بعد كوارثه الأخيرة ولم أقل بدأ تفكيرى فيه ؛ لأنه كان قد بدأ منذ فترة طويلة بالفعل وتركزت آمالى فى أن أبدأ حياتى من جديد مع إنسان أرمل أو مطلق منذ فترة لكيلا أكون سببا فى هدم أسرة أخرى.. وأيضا لكى أبدأ حياتى مع إنسان محترم غير خائن لزوجته .

وهكذا صممت على الحصول على الطلاق حتى لا أخون نفسى أو زوجى ولكى أفتح الطريق أمامى للالتقاء ذات يوم بمثل هذا الإنسان

المحترم الذى لا يسمح لنفسه بأن يتطلع إلى زوجة رجل آخر، وبدأت أمهد الطريق لطلاق القريب لدى إختوتى وأمى وزوجى .. وبدأت أتحدث أمامهم كثيرا عن أن الطلاق ليس فى كل الأحوال كارثة عائلية يضع بسببها الأبناء .. بل إن هناك أسرا كثيرة انفصل فيها الأبوان، ومع ذلك فلقد سارت الحياة بالأبناء إلى شاطئ الأمان ولم يفشلوا فى دراساتهم، وكررت نعمة هذا الحديث مرارا وفى مناسبات مختلفة حتى بدأ زوجى يستشعر الخوف وعدم الأمان معى ويتربقب انفجار الموقف ومطالبته له بالطلاق فى أية لحظة .

وحزمت أمرى واستقر رأى نهائيا على طلب الطلاق وحددت الموعد الذى سأعلن فيه زوجى به والخطوات التى سأخذها لتنفيذه والتفسير الذى سأقدمه لأبنائى ولأهلى عنه .. ثم حدث حادث بسيط أثار اضطرابى وترتبت عليه نتائج بعيدة الأثر .. فلقد دعينا لحضور حفل زفاف إحدى قريباتنا وذهبنا جميعا أنا وزوجى وأولادى إلى الزفاف .. فإذا بى أنظر إلى قريبتى هذه فى فستان زفافها وحولها أبوها وأمها وهما فرحان بها وسعيان للغاية وهى سعيدة بوجودهما حولها وتستشعر الشرف والأمان فى قربهما منها فى هذا اليوم، فأسرح بأفكارى بعيدا وأقارن بين حال أولادى إذا ما تركت أباهم الآن وبين موقف هذه القريبة التى تنعم فى هذه اللحظة بفرحة أمها وأبيها اللذين يشرفانها

أمام الجميع، وإذا بي أضطرب نفسيا وأستشعر ضرورة وجود الأبوين في هذا اليوم إلى جوار أبنائهما ليشرّفاهم أمام الجميع ويفرحا به معهم، فلا أدري كيف عدلت فجأة عن فكرة الطلاق التي استولت على تفكيرى ومشاعرى طوال الشهور الماضية، ولا أدري كيف تبخرت هذه الفكرة في لحظات وأنا في حفل الزفاف فقررت الرضا بحياتى التعيسة مع زوجى من أجل أبنائى، بل ووجدت نفسى في هذه اللحظة أبحث عن زوجى في الفرح وأجلس إلى جواره، وقد كنت في العادة أجلس في مكان بعيد عنه . ومنذ ذلك اليوم عدلت عن الحديث عن الأسر التي انفصل الأبوان فيها ولم يفشل أبنائوها.. وبدأت أشعر زوجى بالأمان من ناحيتى بعد أن كان خائفا ويترقب قرارى بالانفصال في أية لحظة ..

ولست أزعم بعد ذلك أننى سعيدة فى حياتى.. لكنى أقول لك فقط إننى قد تركت نفسى لليأس والألم من أجل من أتيت بهم إلى الحياة، ومن حقهم على أن أقف إلى جوارهم فى رحلتهم معها .

وقد كتبت لك رسالتى هذه أولا لأضم صوتى إلى صوتك فى أن تلك السيدة التى تزوجها زوج كاتبة الرسالة كانت تخطط فعلا لترك

زوجها قبل أن تقابل هذا الرجل، وبالتالي فهي لم تقدم تضحية غالية من أجله كما توهمه. وثانياً لكى أوجه ندائى إلى الآباء والأمهات ألا يتعجلوا زواج بناتهم صغيرات السن لمجرد أن العريس المتقدم لهن من عائلة كبيرة أو فى مركز مرموق، إذ إنه ليس من الإنصاف فى شىء أن تتزوج فتاة فى سن الصبا من رجل أكبر منها فى العمر بكثير.. فىكون الزوج بعد عشرين عاماً مثلاً قد عرك الحياة وعركته وشبع منها واستنفدت قواه وقدرته، وتكون الزوجة التى مازالت شابة قد شارفت سن النضج التى تبدأ فيها فى «النظر» لنفسها والاهتمام بشأنها بعد أن شب أبناؤها عن الطوق وقل اعتمادهم عليها، فتغرق الزوجة فى فراغ نفسى وعاطفى رهيب، وتزداد غربتها وأزمتها حدة عندما لا يكون للزوج عندها رصيد سابق من الإخلاص أو الاحترام ..

هذا ما دفعنى للكتابة إليك.. فهل عندك من كلماتك الهادئة العاقلة ما تعيننى به على ما أنا فيه ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الفارق بين الذاتية وانحصار تفكير الإنسان فى ذاته وما يتعلق بها من اعتبارات ورغبات حتى ولو كانت عادلة فى بعض الأحيان، وبين الغيرية والتضحية واتساع قلب الإنسان لهمه بالآخرين إلى جوارهم

بنفسه، هو بالضبط الفارق بين حالك قبل حفل الزفاف هذا وحالك بعده !

فقبل هذا الحفل كنت قد حسمت هذا الصراع الطويل الذى دار فى أعماقك بين تطلعك للسعادة الشخصية، وهمك بمسئوليتك عن أبنائك، لصالح اعتباراتك الشخصية، ولم تبق إلا لحظة الانفجار .

وكعادة الإنسان حين يحسم صراعا فى أعماقه لصالح اختيار معين يترتب عليه شقاء غيره به، فإنه يحاول دائما وبطريقة لا إرادية أن يقنع نفسه أولا «بعدالة» هذا الاختيار وبأنه لم يظلم به أحدا .. وبأنه حتى لو شقى به أعزأؤه فإن شقاءهم به لن يكون مؤثرا على مسيرتهم فى الحياة !

.. كأنها يريد بذلك أن يتخفف من إحساسه بالذنب تجاه ضحايا اختياره الوشيك وأن يشجع نفسه عليه .

وهكذا فعلت أنت يا سيدتى حين حسمت الاختيار داخلك فى البداية لصالحك «كامرأة» جميلة فى الأربعين من عمرها ومن حقها بعدما عانت من خيانة وحرمان مع زوجها أن تتطلع لحياة أخرى جديدة مع رجل آخر .

فماذا غير من حالك خلال تلك اللحظات الفاصلة التى رأيت

فيها هذه العروس الشابة سعيدة بأبويها وأبواها سعيدان بها في ليلة زفافها؟!!

لقد حدث لك شيء هام وجوهري يقطع بأنك من أصحاب القلوب الحكيمة والضمائر الحية.. فلقد «ذُكر» هذا المشهد.. وفي لحظة تنوير ثمينة بأنك لست فقط امرأة جميلة في الأربعين من عمرها لكنك أيضا - وهو الأهم - «أم» لأبناء وبنات لا ذنب لهم في اختيارك لزوجك ولا في نزواته وتخطئه في الحياة وإسرافه على نفسه، ومن حقهم رغم كل ذلك أن يسعدوا بالحياة ويمثل هذه المناسبة العزيزة بين أبويهم كما يفعل كل الأبناء .

لقد أثبتت لك هذه اللحظة السحرية أنك لست من تلك النوعية من البشر التي تستطيع أن تسعد بحياتها الشخصية بعيدة عن أبنائها، وأن تفكيرك في تغيير حياتك وطلب سعادتك مهما طال فلقد كان مجرد سباحة قصيرة في بحر الفردية وأحلام السعادة الشخصية الذي لا تقوين على مغالبة أمواجه..، فأعادك مشهد حفل الزفاف على الفور إلى شاطئ الأمومة والعطاء والتضحية من أجل الأبناء والتحمل والتصبر على أنواء الحياة ..

كأنما كانت سباحتك في هذا البحر العاصف - بحر الفردية والتفكير الذاتى - نوعا من أحلام اليقظة التي يتعزى بها التعساء

والمهمومون عن تعاستهم حين تضيق الصدور بما تعاني ثم لا يلبثون أن يفيقوا منها بعد قليل على واقعهم الأليم، ويزفرون متصبرين مع الإمام الشهيد الحسين بن علي: «عند الله نحتسب أنفسنا»، ويواصلون طريق التضحية والتحمل من أجل الأبناء بلا نهاية وبلا رجاء أو انتظار لثمن لتضحياتهم .

ولا عجب في ذلك فمن يضحي باعتباره الشخصية من أجل أبنائه، إنما يفعل ذلك أساسا استشعارا لمسئوليته عنهم أمام خالقه وأداء لواجبه تجاههم واحتراما لنفسه قبل كل شيء، فإذا جوزى عن تضحيته بما يستحقه من أبنائه في المستقبل فخير وبركة.. وإن لم يقدرها له أحد كما يشككنا في ذلك دعاة المنهج الفردي في التفكير وطلب السعادة.. فلقد احتسب المضحون منذ البداية أنفسهم وتضحياتهم عند ربهم .. والعاقبة للصابرين !

ومنطق التضحية من البداية ضد منطق المقايضة وانتظار الثمن .

فهنيئا لك اختيارك النبيل يا سيدتي في لحظة التنوير الثمينة هذه، فلقد قدمت به لأبنائك وللحياة ذلك الشيء «الزائد» عن العدل الذي لا تستقيم الحياة بغيره، وهو «الفضل» الذي يملى على الفضلاء أن يترفقوا بأبنائهم ويؤثروهم على أنفسهم، ولولا هذا الفضل لانهارت

بيوت عديدة ولفقد أبناء كثيرون مظلاتهم الواقية التي يحتمون تحتها من
أعاصير الحياة ..

فآه لو يعرف لك زوجك قيمة هذا العطاء له ولأبنائه، ويحاول أن
يعوضك عنه وعن كل ما فعل بك من قبل .. وآه لو يعرف الأبناء كم
يتحمل بعض الآباء والأمهات من عناء وآلام لكيلا يحرموهم من تلك
المظلات الواقية فيقدروا لهم هذا العطاء وهذه التضحيات .. وشكرا
لك على رسالتك المفيدة .

* * *

الورقة المطوية

أنا سيدة في الخامسة والأربعين من عمري، متزوجة من رجل ميسور الحال، وقد عشنا حياتنا الزوجية في سعادة وهدوء، وأنجبنا ولدا وبناتا، وننتمي لأسرة مترابطة تحرص على القيم والتقاليد، وتربي أبناءها التربية الحديثة ونعيش معا حياة هادئة سعيدة، وما من مشكلة تعترضنا وتهددنا بتعكير صفو الحياة إلا وجدنا لها الحل بيني وبين زوجي بالإقناع والتفاهم، وفي بعض الأحيان نشرك أبناءنا في حل هذه المشاكل ونتفق على الحل المناسب، ويشعر كل منا بمشاركته وباتفاق آرائنا فيه وقد تخرج ابني الأكبر في الجامعة وما زالت ابنتي تواصل دراستها الجامعية. وقد

ربيناها كما ذكرت لك في البداية التربية الحديثة، فتعلما في مدارس مختلطة، ويذهبان إلى النادي ويصادقان فيه أصدقاء من الجنسين.. وكل شيء واضح وصريح أمامنا، فنحن نعرف أصدقاءهما ويحضرون معهما إلى البيت ويخرجون معا. ومنذ عامين تعرفت ابنتي على شاب من

أصدقاء «الشلة» في النادي وأحبته وكان عمرها حينذاك ١٦ عاما، وصارحتني بذلك ونصحتها كما تنصح كل أم ابنتها في مثل هذا الموقف وفي هذه المرحلة من العمر، فقلت لها إنها مازالت صغيرة، وإن المستقبل عريض أمامها وسوف تلتقى بأشخاص كثيرين ستجد في أحدهم فتى أحلامها المناسب لها، فكانت تسمع لما أقول وتصر على أنها تحب هذا الشاب وتريد أن تكمل باقى مشوار حياتها معه، وأمام إصرارها اتفقنا على أن تظل هذه العلاقة في حدود النادي وفي وجود باقى الأصدقاء وعلى أن نكون على علم بكل شىء وبصراحة تامة. وبعد ذلك فلا بأس من رؤيته أو مكالمته في حدود الأدب .

واستمر الحال على ذلك عامين وأنا ووالدها نعلم ونسكت على مضض، أما ابنى فهو فى قمة الاستياء لأنه لا يرى فى هذا الشاب شخصا مناسبا لأخته عائليا واجتماعيا وماديا، فضلا عن أنه لم يكمل تعليمه بعد .

وعشنا على أمل أن تدرك هى هذه الحقائق مع الزمن حين تكبر وتنضج وتعرف أنه عبث أطفال وليس حبا حقيقيا، وأنها كانت مخطئة فى اختيارها ومشاعرها، إلى أن فوجئت بها ذات يوم فى موعد رجوعها من الجامعة تدخل البيت مسرعة ووراءها أخوها الذى راح يضربها ويلعنها وهى تبكى وتصرخ وانزعجت بشدة وتساءلت عن الأمر ..

فعلمت من شقيقتها أنه رآها مع هذا الشاب يجلسان في مكان عام
ويشربان الشاي !

وكان ذلك صدمة بالنسبة لي، فلقد تركت لها الحرية بشرط ألا
تكذب وألا تخفى عني شيئا وأن تكون العلاقة في حدود النادي ولم
نمنعها من شيء ولم نتشدد معها، لكن يبدو أن هذه كانت غلطتنا
الكبرى التي أعترف لك بها وأعترف أيضا بأننا قد أخطأنا في هذه
التربية الحديثة التي يتبعها معظم أبناء جيلنا إذ لو كنا قد تشددنا معها
من بادئ الأمر ومنعناها من رؤيته لما حدث ما حدث، إذ بعد أن
ضربها أخوها غادر البيت غاضبا، ودخلت هي حجرتها وراحت تبكي
بحرقة، ودخلت وراءها وطالبتها بقطع علاقتها بهذا الشاب، لأنها قد
كذبت عليّ ولم تلتزم بوعداها لي بألا تخرج معه، فانهارت في بكاء أشد،
وقالت لي إنها لا تستطيع ذلك .

ثم نهضت وأخرجت ورقة مطوية وقدمتها لي فأخذتها مندهشة
وفتحتها، فما إن فعلت ذلك حتى مادت بي الأرض ولم أدر بما حولى ،
ولم أفق من غشيتي إلا بعد ساعتين، فوجدت ابنتي تبكي وتقبل يدي
وقدمي وترجونى الصفح عنها.. فلقد كانت الورقة المطوية قسيمة
زواج شرعى بهذا الشاب الملعون ! ولا أستطيع مهما حاولت أن أصف
لك مشاعري حين استوعبت ما قرأته في هذه الورقة، فقد وجدتنى

أشعر بكراهية شديدة لابنتى هذه التى داست على كل شىء، وداست على نفسها، وأشعر فى نفس الوقت بالعطف عليها وهى تتوسل لى وتعترف بخطئها وتطلب منى الوقوف بجوارها وألا أتخلى عنها فى محتتها. أما مشاعرى تجاه هذا الشاب اللعين فلقد كانت كراهية طاغية ومقتا شديدا لا يخالطهما أى إحساس آخر ! حتى تمنيت لو استطعت أن أذهب إليه فى نفس اللحظة فى بيته وأغرس فى صدره سكيننا حادة كما غرس هو هذا الخنجر المسموم فى قلب أسرتى التى كانت سعيدة وراضية بحياتها قبل أن يظهر فى الأفق .

ولا أعرف كيف تحرك مؤشر الساعة فحل الظلام وأنا وابنتى فى هذا الموقف العصيب.. ولا أذكر إلا أننى كنت أشعر فى بعض اللحظات كأننى فى كابوس مزعج سأصحو منه بعد قليل، ثم أعيد قراءة الورقة اللعينة فأجده واقعا وليس حلما مزعجا. وبعد أن هدأت بعض الشىء عاودت قراءة الورقة، فإذا بى أكتشف أيضا أن تاريخ الزواج قد مضت عليه سنة طويلة، كانت ابنتى تخرج وتدخل علينا خلالها فى براءة وهى تخذعنا وتخفى عنا أنها قد تزوجت هذا الشاب اللعين وعمرها ١٧ عاما فقط . فيالها من مصيبة، ويا لها من مصيبة كبرى !

وتكتمت الأمر عن زوجى وعجزت عجزا تاما عن مصارحته به،

وفوجئنا بعد ذلك باتصال من أسرة هذا الشاب يطلبون فيه زيارتنا بهدف التعارف والتمهيد للخطبة وجاءوا بالفعل لزيارتنا، ولا أعرف كيف تحكمت في مشاعري وأنا أرى هذا الشاب أمامي، وبعد خروجهم وجدت زوجي غاضبا ورافضا الخطبة رفضا قاطعا لأن ابنتنا مازالت صغيرة، ولأن هذا الشاب غير مناسب لها كما أنه لم ينته من تعليمه ولا يرى هو أى مبرر للاستعجال في هذا الأمر !

ولم أدر ماذا أقول له عن هذا «الأمر» الذى أطار النوم من عيني وأفقدنى سلامي وسعادتي.. ولم أجد ما أفعله سوى تشديد رقابتي على ابنتي فمنعتها من الذهاب إلى النادي، وراقبت التليفون بصفة دائمة، حتى بدأت تكرهني، ومازلت في حيرة من أمري وأحاول أن أتماسك أمام زوجي، وأبحث عن حل بلا جدوى. لقد كانت غلطتنا الكبرى هى أننا آمنا بالتربية الحديثة، وقلنا لأنفسنا وما الضرر وكثيرات من البنات يصادقن الشباب ويخرجن مع زملائهن في أعياد الميلاد وإلى دور السينما والمطاعم، وقلنا إن كل الشباب يفعلون هذا، وأن أبناءنا أفضل من غيرهم والحمد لله أنهم لم يدمنوا المخدرات ولم ينزلقوا، ولم نتصور أنهم يمكن أيضا أن يخطئوا وأن نشقى نحن بأخطائهم ونفقد السعادة والأمان .

ولهذا، فإننى أستحلفك بالله أن تنصح كل الآباء والأمهات بأن

يضعوا أبناءهم دائماً تحت الميكروسكوب، وألا يعتمدوا كما فعلنا على أنهم قد أحسنوا تربية أبناءهم والباقي بعد ذلك على الله، إذ يشهد الله والناس أننا قد ربينا أولادنا أحسن تربية ولم نتركهم وحدهم ونسافر للعمل في بلد آخر كما يفعل غيرنا ولم نكن نخرج للسهر أو للسفر وندعهم وحدهم لا نعلم عنهم شيئاً، وابنتى هذه يشهد لها الجميع فهي متفوقة وذكية في دراستها ومهذبة جداً، وفي البيت مطيعة ومحبوبة وتشارك في أعمال البيت وتصلى وتصوم وتقرأ القرآن. ولا أدري ماذا أصابها حتى فعلت بنا وببنفسها ما فعلت، كما لا أدري هل حدث ما حدث نتيجة لتقصير منا في التربية، أم لأن ابنتى ساذجة إلى هذا الحد حتى يخدعها هذا النذل، أم هو عقاب لنا من السماء؟!.. ولكن أى ذنب جنيناه يا رب لنعاقب عليه هذا العقاب الشديد، وأنا لا أذكر أننى آذيت أحداً أو فعلت ما يغضب الله؟!

إننى فى حالة ذهول، ولا أدري ماذا أفعل ليقف بجوارى ونستدعى هذا الشاب الملعون ونجبره على طلاقها حيث إنه تزوجها وهى فى السابعة عشرة من عمرها، وما أعلمه هو أن الفتاة لا تستطيع أن تزوج نفسها وهى دون الثامنة عشرة، وإذا حدث ذلك وطلقها فماذا سيكون مصيرها بعد هذه الفضيحة وكيف ستتزوج مرة أخرى بغير أن يفتضح أمرها؟! أم ترى هل أنتظر حتى يتخرج هذا «الجبان» وأضغط على

زوجى لكى يزوجها له وإن كنت أشك كثيرا فى موافقته على ذلك، وإذا فعلت هذا فكيف أتحمل هذه السنوات التالية حتى يتخرجوا فى الجامعة ويتزوجا؟! وكيف أستطيع أن أتقبل هذا الإنسان وأتعامل معه وأنا أمقته مقّا شديدا وأعرف أنه سبب تعاسة هذه الأسرة بأكملها؟!.. وكيف أتعامل أيضا مع ابنتى وأنا أشك الآن فى كل تصرفاتها؟! أرجو أن ترشدنى إلى الحل، مع العلم بأن هذا الشاب لا يعلم حتى الآن أننى أعرف بزواجه من ابنتى .

ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

من أشد أحزان الحياة إيلا ما للنفس، أن يصد منا الأحياء فيهم فنصحو ذات يوم من اطمئناننا الغافل إلى ثقتنا فيهم، على طعنة دامية من جانبهم، ونتوقف ذاهلين نتساءل : فيم أخطأنا معهم.. وكيف قست قلوبهم علينا إلى هذا الحد.. ولماذا باعونا بهذا الثمن الرخيص ونحن الذين أفنينا العمر فى محبتهم ورعايتهم وكانوا منا دائما ذؤب القلب وأمل النفس الحزينة؟!!

إنها لحظة مريرة يا سيدتى، لا يدرك بعض الأبناء للأسف عمق فسوتها على القلب الطعين.. ولا يستشعرون أبدا غصتها فى نفوس الآباء والأمهات، ولن يستشعروها إلا حين يكرر أبناؤهم معهم هذه الطعنة الدامية فى قادم الأيام، فتمتزج عندها حسرتهم من أبنائهم..

بحسرتهم على آبائهم وأمهاتهم الذين أدموهم من قبل بنفس الخنجر المسموم، والحياة ديون يسدها الإنسان كاملة ولا مهرب له من فواتير السداد .

لكن ماذا نملك لأبنائنا إذا هم طعنونا وألقوا بأنفسهم في اليم، ثم ولولوا صارخين طالبين منا النجدة ؟ .. هل نستطيع حقا أن ننكص عن مد أيدينا إليهم بطوق النجاة، ولو تجرعنا نحن غصص الألم كارهين ؟! إننا لا نملك يا سيدتى، ولا نستطيع أن ندعهم لأقدارهم تتلاعب بهم رياح الحياة كريشة تتطاير في الهواء، ولا مفر أمامنا من أداء مسئولياتنا تجاههم حتى النهاية، ثم فليكن بعد ذلك من أمرهم ما يكون .

وفي قصتك هذه فلا مفر من التسليم بالأمر الواقع الذى أراد هذان الفتيان أن يضعاكم أمامه . وفي بعض مواقف الحياة المؤلمة يكون التسليم بالهزيمة والقبول بها شجاعة أدبية ويكون التعامل مع معطياتها، هو التصرف الأمثل والأفضل من المقاومة اليائسة التى لا تثمر فى النهاية إلا تكريس الأمر الواقع مع مضاعفة الجراح والخسائر النفسية، واتساع دائرة الذيوع والعلانية لما ينبغى علينا أن نستتر به عن الآخرين .

لهذا فلست أرى لك مصارحة عم ابنتك بالأمر واستدعاء هذا

الشاب لإجباره على طلاق ابنتك، إذ لن تسفر المحاولة غالبا إلا عن الفشل وتشبث الفتى بموقفه الخاطيء من البداية ولجؤه إلى أسرته وربما إلى السلطات المختصة أيضا لمنعكم من محاولة إجباره على ما لا يريد خاصة أن ابنتك لا تريد هذا الطلاق ولا تطلبه، وقد تخذلكم مرة أخرى أمام هؤلاء الغرباء، فيتعمق الجرح ويزداد الألم.

وإنما أرى لك ألا تصارحي بهذا الأمر سوى زوجك.. ليس فقط لأنه شريك حياتك وصاحب الحق الأكبر في أن يعلم بما كان من أمر ابنته، وإنما أيضا لأنه الولي الشرعي الذي ما كان لها أن تتزوج بغير إذنه، وهي الفتاة غير الرشيدة، ولا أعرف كيف سمح ضمير هذا المأذون الذي عقد قرانها له بأن يعقد لها على فتاها بغير وليها، وهي في السابعة عشرة من عمرها.

نعم يا سيدتي لا مفر من أن يشارك زوجك ما تعانيين من ألم وحيرة وشعور مروع بالهوان على ابنته إلى الحد الذي تضعه معه أمام هذا الموقف العصيب، ثم لا مفر بعد ذلك من التعامل مع الموقف بواقعية تفرضها الظروف المحيطة بالقصة كلها، فتسلمان معا بما حدث، وتستكملان شكليات الخطبة أمام الجميع كأنما لم تخرج ابنتك على طوعكما ولم تتزوج فتاها في السر، ابتداء من قراءة الفاتحة في حضور الأهل.. إلى الخطبة العلنية.. إلى تقديم الشبكة والاتفاق على موعد

«عقد القران» بعد تخرج الخطيبين في الجامعة، وعلى أن تتعامل ابنتك مع فتاها خلال هذه الفترة كما تتعامل الخطيبة مع خطيبها في حدود ما تسمح به علاقة الخطبة .

ولسوف تكون السنوات الباقية على تخرجها معا هي الاختبار الحقيقي لإمكانية استمرار هذا الارتباط واستكمالها بالزواج والمساكنة، أو تعثره في الطريق وانكشاف التجربة عما كشفت عنه من قبل معظم تجارب زواج المراهقين من فشل مرجح خلال سنوات وبعد نضج الشخصية وتغير المشاعر واختلاف المزاج النفسى من مرحلة المراهقة إلى بداية مرحلة النضج.. فإذا فشلت التجربة وانتهت نهايتها المحتملة، فليتم الطلاق سرا، ولتواجه ابنتك المجتمع كفتاة سبقت لها تجربة الارتباط دون الزفاف .

وإذا تمسك كل منهما بالآخر ، ورغبا في استكمال المشوار، فلقد سلمتما من البداية بما لم يكن منه بد ، وهو التنازل عن اعتباراتكما العائلية في الشخص الملائم لها لأنها قد اختارت بمعاييرها هي، ولا مهرب لها من أن تتحمل تبعه اختيارها .

أما كيف تتعاملين مع هذا الفتى خلال سنوات الخطبة وأنت تمقتيه مقتا شديدا وتعتبرينه المسئول الأول عن هدم سعادة أسرة بأكملها، فما أكثر ما تضطربنا ظروف الحياة إلى أن نتعامل مع من لا نطبق، رعاية

لا اعتبارات الأعزاء، والاعتبارات العائلية والاجتماعية الأخرى، والمهم هو ألا يحملنا كرهنا لأحد على أن نبخسه حقاً من حقوقه، وألا يحملنا حبنا لأحد على أن نأثم فيه فنعطيه ما ليس من العدل والحق أن يناله منا، كما ينصحنا بذلك إمام المتقين على بن أبي طالب رضى الله عنه. إذ لو انسقنا وراء مشاعر الحب والكراهية وحدهما في تعاملنا مع الآخرين لحدنا عن العدل والحق، ولعجزنا عن أن نتعامل مع الكثيرين .

وأما ابتك فلسوف تعاملينها بما علمتك التجربة أن تعاملها بها، فلا تركنى إلى ثقتك الكاملة السابقة فيها بعد أن كشفت لك التجربة أنها لم تكن أهلاً لها ، ولا تستسلمى تماماً لشكوكك وهو اجسك تجاهها، فتوتر علاقتكما أكثر وتنقطع الخيوط بينكما وإنما قربيها منك أكثر وامنحها بعض ثقتك وليس كلها ولا تعفيها بعد ذلك من رقابتك وإشرافك ومتابعتك لكل خطواتها، لكيلا تتحول فترة «الخطبة» إلى زواج فعلى قبل الموعد الملائم، وتتضاعف المشاكل .

والمثل الفنلندى القديم يقول : إن الإنسان لا يخدع إلا من يثق به، وهذا صحيح لأن من يتشكك فينا يصعب علينا عادة أن نخدعه. أما من يثق فينا فهو للأسف من ننجح غالباً في خداعه اعتماداً على هذه الثقة، وليس من حق ابتك على أية حال أن تضيق بعدم ثقتك فيها، لأن من يخون ثقة الأهل به على هذا النحو الفادح لا يحق له أن يلومهم إذا تشككوا فيه، ولا أن يشكو من عدم ثقتهم به .. بعد أن وضع نفسه موضع الريبة والتهم .

وقد تسألين بعد ذلك، وماذا يكون الحال حين تجدون أنفسكم مضطرين إلى عقد قران ابنتكم على فتاها بعد سنوات لاستكمال الشكل العائلي والاجتماعي للزواج، وفي هذه الحالة فلسوف تجدون أنفسكم أمام خيارين.. الأول : هو أن تستغنوا عن هذه الشكلية اعتمادا على العقد الموجود، مع تدارك المظهر العائلي بأي طريقة ترونها مناسبة لذلك بالاتفاق مع أسرة الشاب. والثاني : هو أن تتمسكوا باستكمال الشكل أمام الآخرين وعقد قران جديد، ولقد استفتيت أحد شيوخنا الأجلاء في حالة مماثلة منذ سنوات فأفتى بجواز ذلك للضرورة الاجتماعية القصوى واعتبار العقد الجديد بمثابة تأكيد للعقد السابق مادام بين نفس الطرفين مع اعتبار الزوجية قائمة منذ تاريخ العقد القديم.

ونأتى لتساؤلاتك المريرة في النهاية يا سيدتي عن «التربية الحديثة» ونصيحتك للآباء والأمهات ألا يدعوا الأبناء يغيبون عن أنظارهم مهما أخذوا بمظاهر أو دعاوى هذه «التربية الحديثة». وأقول لك إنه في أعماق الجحيم يتعلم الإنسان الحكمة، ولكن غالبا بعد فوات الأوان. لكن المؤلم حقا هو أنني ألحظ في تعامل مع هموم الآخرين اتجاهها مزعجا جديدا لدى قلة من الأبناء، لحل مشاكلهم مع آبائهم وأمهاتهم، بتفضيل وضعهم أمام الأمر الواقع الذي يرفضونه، ثم تحمل ثورتهم

والتفاوض معهم بعد ذلك على أساس هذا الأمر الواقع الذى فرضوه عليهم عنوة، وبالألم المضنى المزلزل ، وهو اتجاه شرير وغير أمين فى نفس الوقت، ليس فقط لأنه يكشف عن جحود للآباء وتنكر لهم واستسهال لإيلاهم، وإنما أيضا لأنه يكشف وهو الأخطر عن بعد فادح عن حدود الله فى تعامل الأبناء مع الآباء والأمهات، وعن عجز أفدح لدى هؤلاء الأبناء عن مواجهة مشاكلهم بشجاعة وأمانة كما يليق بالشرفاء والأمناء مع أنفسهم ومع الحياة .

ومن عجب أن بعض هؤلاء الأبناء قد يبدأون بسلاح العاجز هذا قبل أن يخوضوا المعركة.. ويبدأوا من البداية الصحيحة وهى مواجهة الأهل باختيارهم «والجهاد» معهم لنيل رضاهم عنها مهما طال المدى، وتفسير بعض هؤلاء العجزة لما فعلوا لا يقبله الدين أو العقل، ويتركز دائما فى أنهم كانوا «واثقين» من رفض الأهل لاختياراتهم من الوهلة الأولى، ففضلوا وضعهم أمام الأمر الواقع وفرضه عليهم!.. أما من أين أتتهم هذه الثقة المتناهية؟! فمن استشعارهم للموقف الطبقي للأهل من شريك الحياة المرغوب، أو استشعارهم لحدة الفوارق الاجتماعية أو للتحفظات الأخلاقية الشديدة على هذه الاختيارات، وكلها أعذار أقبح من الذنب وأشد نكرا، ولا تبرر أبدا أن تخذل فتاة أو فتى أبويهما ويطعنهما فى سويداء القلب مثل هذه الطعنة الدامية. أما

«التربية الحديثة» التي أدركت أنت يا سيدتى بالثمن الباهظ مسئوليتها عن محتكم، فالاتجاهات التربوية الأكثر حداثة منها فى الغرب الذى بالغ البعض منا فى نقل مظاهر هذه التربية عنه بلا اعتدال قد بدأت تنادى الآن بالعودة للقيم المحافظة فى التربية، والاعتدال فى الحرية الممنوحة للصغار فى فترة المراهقة، وتحدث عن أهمية غرس القيم الدينية والالتزام الخلقى فى نفوسهم ليحميهم من مهالك الإدمان والجريمة والإيدز والإباحية، وتؤكد أهمية دور الأسرة والرقابة العائلية فى تقويم سلوك النشء وحمايتهم من الأخطار .

وفى الالتزام بحدود الله ونواهيه ما فوق الكفاية دائماً يا سيدتى لتجنب هذه المهالك، وفى الاعتدال والتوسط فى كل شىء بلا إفراط ولا تفريط ما يهديننا إلى سواء السبيل .. والسلام ..

* * *

الضيقة اللذيذة

أنا رجل فى الرابعة والأربعين من عمرى متزوج وأحمل مؤهلا صناعيا وأكبر إخوتى الذكور، وقد سافرت فى بداية حياتى العملية وعملت فى الخارج حتى تخرج أخى الذى يلينى مهندسا وعمل، ثم رجعت وعملت بالأعمال الحرة لفترة قبل أن أستقر فى وظيفة صغيرة بإحدى الشركات. أما أخى الأصغر فهو فى الثانية والعشرين ومصاب بحالة شيزوفرانيا كما يقول الأطباء، لكنه يعيش حياة طبيعية ولا يورقنى بشأنه إلا رفضه للعمل مع أنه طبيعى إلى أبعد الحدود. ولى شقيقتان توأم تكبراننى بخمس سنوات وقد تزوجت إحداهما بالإسكندرية وأنجبت وكبر أبناؤها

والتحقوا بالجامعات، ومات زوجها - يرحمه الله - وتعيش بمعاشها الضئيل وتساعد نفسها بالخياطة، وأما الأخرى فقد تزوجت فى أسوان ولها ثلاثة أبناء متفوقون، وزوجها رجل طيب وفاصل. أما والدتى فسيده أمية طيبة علمتنا كل طيب وجميل فى الحياة، وقد بترت ساقاها

من أثر غرغرينة السكر، لكنها سيدة مؤمنة برّبها وراضية بقضائه وقدره
وحامدة وشاكرة فضل ربها.. ونحن كإخوة نحب بعضنا البعض إلى
أقصى حد.. بل ونذوب حبّا، وحين نلتقى في إحدى المناسبات العائلية
تعم البهجة أرواحنا وتتعالى ضحكاتنا من القلب ونلعب الظروف التي
فرقتنا في مشارق الأرض ومغاربها ولم تعد تجمع بيننا إلا كل حين
وحين. وأنا أشعر بالتقصير تجاه جميع أسرّتى كأخ أكبر نتيجة لضعف
إمكاناتى المادية، فأختى الأرملة حين تجيء من الإسكندرية أستقبلها
بالأحضان والدموع السخينة وأقدر لها كفاحها في الحياة بدون رجل،
ثم تلسعنى المرارة لأنى لم أزرها في الإسكندرية منذ ست سنوات لنفس
السبب، وشقيقتى الأخرى المقيمة بأسوان لم أرها منذ سنوات وحين
تحضر للقاهرة ذات صيف أتذكر تقصيرى معها وأحترق ندما وعجزا،
وأمى حين أزورها لا أحمل لها إلا الخبز الطازج.. والسبب مفهوم ومؤلم
ولا يحتاج إلى تفصيل، وشقيقتى المهندس يعمل في الخارج منذ عامين
فقط وحين يرسل لى تحويلا بمبلغ ٣٢٥ جنيها وأربعين قرشا فإنى أدفع
الرسوم المصرفية عليه من جيبى وأحمل المبلغ كاملا لأمى فتعطى بعضه
لشقيقتى الأرملة وترسل البعض الآخر لشقيقتى المقيمة بأسوان
وتعيش بما يتبقى معها.. وتسالنى : هل معك نقود؟ فأجيبها بالإيجاب

وأرفض قبول شىء منها، مع أنها علمتنا أن نقسم ما معنا فيما بيننا بلا
غضاظة، وشقيقى المهندس رغم عمله بالخارج فإن دخله ليس كبيرا
وهو متزوج ولديه طفلة جميلة وعليه التزامات ثقيلة تجاه الشقة التى
اشتراها وأسرته الصغيرة... إلخ، وكل إنسان عنده ما يكفيه من الأعباء
ويزيد .

ولست أكتب لك رسالتى هذه لكى أشكو من قلة مواردى ولا من
شعورى بالتقصير تجاه أمى وإخواتى، لكنى أعطيك فكرة عامة عن
حياتى وأسرتى لأقول لك بعد ذلك إننى قد تزوجت منذ سنوات،
وقد شاءت لنا الأقدار أن تمرض زوجتى فى بداية الزواج، وأن تواجه
بعض المتاعب الصحية التى أدت إلى فقدانها لقدرتها على الإنجاب. وقد
تقبلت ذلك برضا وثبات، وحرصت على معاملتها معاملة طيبة لكيلا
أجرح مشاعرهما، وإن كانت ضغوط الحياة تجعلنى أحيانا فى غاية
العصبية .

والمهم أن حياتنا تمضى بسلام وأنا حاليا أعمل بشركة أمن خاصة
كفرد أمن بمرتب ١٥٠ جنيها فى الشهر وزوجتى تعمل بمرتب ١٢٠
جنيها، وأمارس عملى فى نوبات تستمر كل نوبة منها ١٢ ساعة كاملة،
مما لا يدع لى أى مجال للبحث عن عمل إضافى أو ممارسة هوايتى فى
الرسم، أو الاستفادة بخبرتى السابقة فى طباعة «التى شيرت» بما يحقق

لى بعض الدخل ويخفف من جفاف حياتى .. وليست هذه أيضا هى المشكلة .. فالحياة تمضى فى طريقها مهما كانت الصعاب وظروفنا أفضل من ظروف غيرنا والحمد لله .

وما أريد أن أقوله هو أننى نتيجة لهذه الظروف المادية غير المريحة .. وما أشعر به من عجز عن مساعدة شقيقتى وأمى بما كان ينبغى للأخ الأكبر أن يفعله قد وجدت نفسى منذ فترة أشعر بالكآبة والإحباط، وتزداد عصبيتى المكتومة ومعاناتى وضاعف من ظروف زوجتى الصحية التى اضطرتها لاستئصال أحد ثدييها . وفى وسط الكآبة والاختناق عرضت على زوجتى أن نستضيف طفلة صغيرة يتيمة من أحد ملاجئ الأيتام لنفرغ فيها نحن الاثنين عواطفنا المحرومة، ووعدتها بالتفكير جديا فى هذا الأمر، وملت بقلبى ومشاعرى مبدئيا إلى تحقيقه، لكنى ترددت أمام مسئولية رعاية طفلة صغيرة ونحن نعيش حياتنا بصعوبة .. وتساءلت: ترى هل أستطيع الوفاء بالتزاماتها وتوفير الحياة الكريمة لها والرعاية الصحية الأفضل لها أم سأعجز عن ذلك ؟

واستشرت أمى الطيبة فى ذلك فشجعتنى على الإقدام عليه وقالت لى إن الله سبحانه وتعالى يرزق النمل فى جحوره .. فكيف لا يرزقك برزق طفلة يتيمة محرومة تنقذها من العناء ؟! .. واستراح قلبى لمشورة أمى ولقبول أهلى للفكرة واستخرت الله وتقدمت أنا وزوجتى للملجأ

الأيتام بشارع...، وقمنا بإجراءات الحصول على طفلة صغيرة يتيمة، عمرها ستان، وانضمت بالفعل إلى بيتنا منذ فترة فإذا بها تملأ مسكننا الصامت صراخا ومرحاً وشقاوة، وتستقبلني عند عودتي منهكا من عملي بالصياح : بابا جه.. وتمرح في الشقة وتلاعب «البطة» في الحمام وتستسلم لعضاتها غير المؤلمة.. وكل من حولنا من الجيران والأهل يجبرونها ويعطفون عليها. ولقد فوجئت زوجتي في اليوم التالي لتسلم هذه الطفلة وهي تقوم بغسل شعرها وحمامها بوجود قراع كبير تحت شعرها، وبوجود أثر حرق في يدها فعالجناها من ذلك على الفور وشفيت منه والحمد لله وأصبحت كالقمر المضيء في سمائه..

ولو كانت إمكانياتي المادية تسمح لكنت أغرقتها بالملابس الجديدة الفاخرة والهدايا واللعب وجعلت منها ملكة متوجة على عرش حياتنا فهي طفلة ذكية جدا وجميلة، وقد صعقت زوجتي أيضا ذات يوم حين كانت في المطبخ والطفلة تقف إلى جوارها ثم أمسكت زوجتي بعلبة الكبريت لتشعل البوتاجاز، فإذا بالطفلة تجرى بعيدا عنها وهي تقول لها في رعب قاتل «كبريت لا ياماما»، وعبثا حاولت زوجتي أن تهدئ من روعها وتطمئنها إلى أنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تلسعها بلهب عود الكبريت كما تتوهم.. وكما يبدو أنه قد حدث معها من قبل.. واحتاج الأمر من زوجتي إلى أيام عديدة إلى أن أقنعتها ألا تخاف من الكبريت.. وألا تفزع حين تراه في يدها..

وفهمنا سر الحرق الذى وجدناه فى يدها حين استلمناها سامح الله
من تسبب لها فيه.. وأنا أقرأ يا سيدى فى بابك رسائل كثيرة لأزواج
وزوجات محرومين من الإنجاب ويشكون من تعاستهم وحرمانهم..
وإنى أدعو هؤلاء المحرومين والمعذبين لأن يجربوا الحل الذى اخترناه
نحن لمشكلتنا، وهو استضافة ضيفة لذيدة يتيمة فى بيتهم ورعايتها
وتربيتها التربية السليمة وتوفير ظروف الحياة الإنسانية الكريمة لها
وهى فى أحضانهم .

فهم حين يفعلون ذلك إنما ينقذون روحا بريئة من المعاناة والحرمان
والضياع.. وينقذون أنفسهم من التعاسة والوحدة والفراغ ويلبون
احتياجاتهم الأبوية والأمومية ويشعرون بمعنى جديد لحياتهم يدفعهم
للتمسك بها والحرص عليها، فلقد تغيرت حياتى كثيرا بعد حلول هذه
«الضيقة اللذيذة» بيننا، مع أنى مازلت أمارس عملا بعيدا عن دراستى
وهوايتى، ومع أن دخلى منه مازال محدودا وساعات عملى مازالت
طويلة، لكنى رغم تلك الظروف أفضل كثيرا الآن من الناحية النفسية
والمعنوية عما قبل، وكذلك زوجتى التى أصبح لا شغل لها ولا شاغل
سوى الطفلة وما قالت وما فعلت خلال غيابى فى العمل إلى آخر هذه
الاهتمامات الجميلة .

فادع قراءك التعساء لأن يكرروا تجربتنا وسوف يجدون فيها ما

وجدناه نحن من راحة قلب وضمير وسعادة، بل وادع أيضا قراءك القادرين على رعاية طفل يتيم إلى ألا يكتفوا بتقديم الهبات المالية للملاجيء الأيتام وأن يضموا إلى أسرهم - إذا استطاعوا - أحد هؤلاء المحرومين الصغار ويكفلوهم في حضانتهم ورعايتهم، فهذه هى أفضل وسيلة لكفالة اليتيم وأكثرها أثرا فى حياته.. وكافل اليتيم مع رسول الله ﷺ فى الجنة.. كما يقول الحديث الشريف، ولا شك أنهم إذا فعلوا ذلك فسوف ينقذون أرواحا كثيرة معذبة، وسوف يفوزون بجوائز السماء فى الدنيا والآخرة. والسلام عليكم ورحمة الله .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لا أعرف لماذا ذكرتنى رسالتك الجميلة هذه بتلك العبارة الغريبة التى قالها فرجيل العظيم أعظم شعراء الرومان فى أشعاره الرعوية الشهيرة، وهى : ما أسعد المزارعين !

لقد قيل فى تفسيرها إنه ما أسعد البشر لو جهلوا ما فى الحياة من صور الشر والخديعة والعداء.. ولو تعاونوا فيما بينهم على غرس البذور وجنى الثمار كما يفعل المزارعون، بدلا من أن يبددوا العمر فى الصراع والتناحر والإيذاء ..

والمؤكد أن رسالتك هذه تقدم للآخرين صورة صادقة للسعادة

الخفية أو للسلام النفسى الذى يستشعره الإنسان فى الرضا بأقداره..
وفى العطاء للآخرين من نفسه ومشاعره وقدراته مهما كانت ظروفه.
فرسالتك تقول لنا بأبلغ الكلمات إن الإنسان قادر دائما على أن يقدم
عطاءه السخى للحياة وأن يسهم فى تخفيف بعض عذاباتها مهما كانت
ظروفه غير مواتية، وتقول لنا أيضا ما قاله المعلم بانجلوس لتلميذه
كانديد فى رواية فولتير الشهيرة من أن الحب هو متعة المخلوقات
الآدمية الحقيقية وأنه سر بقاء الكون.. ولولاه لفنيت البشرية منذ قديم
الزمان .

وهذا أيضا صحيح، فالحب الإنسانى النبيل هو الذى سيحمى هذه
الطفلة اليتيمة المحرومة من الضياع ويقدمها للحياة شابة جميلة
عطوفا.. تضيف إلى الحياة بدلا من أن تخصم منها، والحب العائلى
الصادق هو الذى يشدّ بنیان أسرته الكبيرة رغم البعد وافتراقكم بين
مشارك الأرض ومغاربها، ويشعرك بهذا الإحساس المؤلم بالتقصير فى
أداء دورك كأخ لإخوتك ويدفعك أيضا للإشفاق على شقيقك
المهندس من مسئولياته والتزاماته والتماس الأعذار له فى قلة الدخل
وكثرة الأعباء.. والحب الإنسانى أيضا هو الذى حفظ عليك أسرته
الصغيرة وهداك لأن تضم إليها هذه الضيفة الصغيرة، فتعيد البهجة
والرواء إلى حياتها، وتعيد إليك إقبالك على الحياة ورغبتك فى استكمال
الرحلة وأداء الرسالة .

وما أريد أن أقوله لك يا صديقي هو أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وأن العطاء المادى ليس وحده هو مسئولية الأخ الأكبر تجاه إخوته الضعفاء الذين يحتاجون إلى عونهم ومساعدته، وإنما هناك دائما ما هو أهم منه وأبلغ أثرا في حياة الأعزاء وهو العطاء النفسى والعاطفى والإحساس النبيل بالمسئولية الأدبية والعائلية عنهم، فإذا كانت ظروفك لا تسمح لك الآن بأن تضيف إلى عطائك النفسى والعائلى لهم ما تتوق إليه من عطاء مادى مماثل فلا تسرف على نفسك فى الإحساس بالعجز والتقصير.. فهم أدرى منك بظروفك وأكثر التماسا لك للأعذار من نفسك، والأهل لا ينتظرون عادة العطاء المادى إلا ممن يدركون تماما قدرته عليه ويترفقون غالبا بغير القادر، وقد يأبون قبول مساعدته حتى لو أراد أن يقدمها إليهم .

ومن كانت تجمعهم مثل هذه العاطفة الأخوية الصادقة كإخوتك لابد أن يدركوا جيدا أن الأخ الأكبر لو كان قادرا على العطاء المادى لما تردد لحظة فى تقديمه، فلا تقس على نفسك.. ولا تفقد الأمل، فالحياة مازالت ممتدة أمامك.. ولسوف تتغير ظروفك إلى الأحسن فى المستقبل بإذن الله، وتستطيع تعويض مافاتك من الإسهام المادى فى تخفيف أعباء الحياة عن شقيقتيك ووالدتك، وربما تسمح الظروف بمساعدة قراء هذا الباب لك على ممارسة عمل إضافى جديد تستخدم فيه قدراتك

ومواهبك الأصيلة بما يزيد من دخلك ويعينك على تحمل مسئولياتك تجاه إخوتك وتجاه الضيفة العزيزة التى ضمنتها لأسرتك، كما قد أستطيع معاونتك أيضا فى علاج شقيقك الأصغر لكى يسترد قدرته على العمل ويخفف عنك بعض العبء . فاتصل بى لترتيب هذا العلاج فى أقرب وقت بإذن الله .

أما نداؤك للأزواج والزوجات المحرومين من الإنجاب بأن يجربوا حل مشكلتهم باستضافة طفلة أو طفل يتيم محروم كما فعلت أنت .. فهو نداء جدير بالتأمل حقا وأضعه تحت أنظار من يهمهم الأمر، وأشكرك على اهتمامك بإطلاع الآخرين على تجربتك المفيدة فى مواجهة مشكلة الحرمان من الإنجاب، وأرجو أن يستفيد بها الآخرون.. وأن يتأملوا أيضا نداءك الإنسانى للقادرين بأن يضمُّوا إلى أسرهم بعض هؤلاء المحرومين لكى ينقذوهم من الضياع ومن الإهمال الصحى ومن التربية الخاطئة باللسع بأعواد الكبريت، فهو أيضا نداء يستحق الاهتمام وما هو أكثر منه.. فلا سامح الله أصحاب الأكباد الغليظة الذين يرتكبون مثل هذه الجريمة البشعة.. ولا غفر لهم ربهم فى الدنيا ولا فى الآخرة، وشكرا لك .

* * *

القطة المدلّلة

أنا سيدة في أوائل الخمسينيات من عمري، تزوجت منذ ٣٢ عاما ولى عدد من الأبناء، كنت في شبابي اية في الجمال يتعجب لها الآخرون، حتى كانوا إذا أرادوا أن يصفوا فتاة بالجمال قالوا عنها إنها جميلة مثل فلانة، وبسبب جمالي هذا دلّني الجميع وبدأ الخطاب يتهافتون علىّ منذ صباي، وتمت خطبتي وأنا في بداية مرحلة الأنوثة إلى ابن خالتي، لكن أمي سامحها الله وقفت في طريق سعادتي معه لأنها كانت لا تحب أمه، وانتهى الأمر بفسخ الخطبة ورحل ابن خالتي عن البلاد. أما أنا فلقد تقدم لي زوجي الحالى ولم أشعر نحوه بأية عاطفة، ومع ذلك فقد مضيت في مشروع الارتباط وأنا أمنيّ نفسي بأن أحبه بعد الزواج حين تصبح لنا حياة مستقلة .

وتزوجنا فلم تتغير مشاعري نحوه بعد الزواج واستمرت مشاعري حيادية تجاهه لا تنبض بالحب، ولا تحمل له الكراهية، وانشغلت بعد ذلك بالإنجاب وتربية الأبناء ومشاكلهم وأمراضهم ومدارسهم

فنسيت نفسى .. ومضت السنوات عاما بعد عام، وكبر الأبناء واحدا بعد الآخر فوجدت نفسى بعد الرحلة الطويلة أتوقف لأراجع حياتى، وأنظر إلى هذا الجبل الصامت الجالس إلى جوارى وهو زوجى وأتساءل من هو.. ومن أنا، وماذا جنيت من رحلة حياتى هذه معه ؟، فلقد دفنت شبابى وأيامى كلها مع الزوج الذى لم يشعرنى مرة واحدة بلمسة رقيقة، أو يسمعنى كلمة حب واحدة. وتذكرت ابن خالتى الذى كان يتمنى لى الرضا لكى أَرْضى، وندمت أشد الندم على أننى لم أدافع عن حُبى دفاعا مستميتا وقتها، مع أننى فى النهاية لم أكن أستطيع أن أفعل الكثير بهذا الشأن، ونظرت إلى أولادى فوجدتنى أقسمهم إلى فريقين.. فريق مثلى يحبنى وأحبه، وفريق مثل زوجى يدافع عنه ويحبه !

وكنت قد فقدت منذ سنوات احترامى لزوجى ولم أجد مانعا من ألا أحترمه أيضا أمام أولاده، وأن أشعرهم دائما بأننى غير سعيدة مع أبيهم، فكان أفراد الفريق الأول الذى أحبه يسمعوننى ويشاركوننى مشاعرى ويصبرونى على ما أنا فيه. أما أفراد الفريق الثانى الذى لا أحبه فكانوا يقولون لى دائما : حرام عليك، ولماذا تزوجتبه إذن من البداية ولم يغصبك أحد عليه ؟... إلخ .

ولا تتعجب يا سيدى حين أقول لك إننى لا أحب بعض أولادى فهذا هو الحال فعلا.. وأنا فعلا لا أحبهم ولا يهمنى قريبهم أو بعدهم عنى ، وأشعر أنهم يبادلوننى نفس الشعور وأكثر !

وأعترف لك أنني بتأثير حبي لبعض أبنائي دون البعض الآخر ،
فإنني أفضل بعضهم على بعض فعلا بطريقة ملحوظة، وهؤلاء أولادى
الذين أحبهم ويدللوننى ويمدحوننى دائما. ومع أنى أشعر فى أحيان
كثيرة أنهم منافقون، إلا أن هذا لا يغير من حبى وتفضيلى لهم شيئا، لأن
هذا النفاق نفسه يسعدنى وأنا بحاجة إليه، فى حين أشعر تجاه الفريق
الذى لا أحبه بالجفاء والبعد وبأنهم لا يغفرون لى ما أفعله بأبيهم .

أما زوجى فهو يشغل منصبا محترما ولا يهمله سوى أن يعمل حتى
وهو فى أسوأ حالاته الصحية، كأنها لا يطيق الجلوس فى البيت معى ،
وهو بصفة عامة يأكل وينام فقط وأشعر أنه بلا مشاعر ولا أحاسيس،
والجميع يقولون عنه إنه طيب القلب وحنون، لكنه ليس الزوج الذى
كنت أتمناه ولا أحب الجلوس معه طويلا . كما أنه عديم الشخصية معى
وأنا الذى أسيّره كيفما أشاء ولا ينفذ إلا أوامرى، ومع ذلك فإننى لا
أحبه وهو لا يعجبنى أبدا ولا أرغب فى المعيشة معه.. ولا أتمنى فى نفس
الوقت أن يطلقنى إذ أين أذهب .. ومن يتحملنى بعد هذه السنوات
الطويلة ؟!

وبسبب هذه الظروف المتداخلة كلها أشعر بعدم حبه بل وبكره
شديد لبعض أولادى ، وأشعر من ناحيتهم بنفس هذا الإحساس
تجاهى، كما أشعر أن زوجى غير سعيد معى ، لكنه أفضل حالا منى

لأنه راض بما قسمه الله له وأنا لست راضية ولا سعيدة ، وحياتي كثيرة .. ودائما مبتلاة بمصائب عديدة، مع أنني أصوم وأصلي ولا أخون زوجي وأحافظ على ماله .

لقد سمعت أحد أبنائي من «الفريق الآخر» يقول لشقيقه عنى إننى مريضة نفسيا بمرض عدم الرضا ، وأن الله لن يغفر لى أبدا ما أفعله مع أبيهما وسوف يعاقبنى فى السماء بسبب تفرقتى فى المعاملة بين أولادى .

فهل هذا صحيح يا سيدى .. وهل أنا حقا مريضة نفسيا وفى حاجة لعلاج لدى الطبيب النفسى .. وهل سيعاقبنى الله حقا على حبى بعض أولادى أكثر من البعض الآخر ، وكراھيتى أو عدم حبى لبعضهم ؟ مع العلم بأن سيدنا يعقوب كان يفرق فى المعاملة بين أبنائه ؟!

إننى أعيش فى جو عائلى كئيب ملئ بالمشاكل ، وكل ما أريده هو أن يلهمنى الله الصبر على ما أصابنى ويعوضنى عنه خيرا، وأن أجد حلا أحب معه أو به كل أولادى بنفس الدرجة، وأتقبل مجرد تقبل زوجى بعد كل هذه السنوات الطويلة معه وأشعر بأبنى المرأة وهو الرجل . ألا من سبيل إلى ذلك ، وهل سيعاقب الله أولادى من الفريق الذى لا أحبه عقاب عقوق الوالدين بسبب مشاعرهم نحوى لأننى لم أفعل بهم ما يوصلهم إلى درجة «الكفر» وعقوق الأم ؟...ولكن هذه هى مشاعرى ولا حيلة لى فيها !

ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

هناك قلة من النساء يراودهن دائما إحساس عجيب بأنهن «ثروة نفيسة من الجمال» لم يكن ليستحقها أزواجهن.. ولم يكن لها أن توضع بين أيديهم. فيدفعهن هذا الإحساس غير السوى إلى عدم الاقتناع بأزواجهن مهما قدموا لهن من عطاء، ومهما حاول هؤلاء الأزواج استمالتهن ونيل رضاهن خلال رحلة العمر معهم .

والواضح يا سيدتى أن إحساسك القديم بأنك «آية في الجمال» قد رافقك معظم سنوات الرحلة مع زوجك، ووقف حائلا بينك وبينه وساهم في ذلك أنك قد تزوجتيه عن غير حب، وعاشتية ٣٢ عاما وأنجبت منه عددا من الأبناء، وأنت لا تنطوين له إلا على المشاعر الحيادية التى لا تنبض بالحب ولا تحمل الكراهية .

ومع تسليمى بأن المشاعر لا تصدر بشأنها قرارات إرادية ، إلا أن النفس الراضية تستطيع دائما إن لم تنبعث فى أعماقها شرارة الحب لمن تشاركه رحلة الحياة، أن تحسن عشرته.. وتقدر له عطاءه ومزاياه، ذلك أن المرأة كالرجل فى هذا المبدأ الأخلاقى العادل الذى نبهنا إليه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، حين أوصى بقبول من نرضى دينه وخلقه لأنه « إذا أحب زوجته أكرمها وإذا كرهها لم يظلمها». لكنك لم تتعاملى مع زوجك على ضوء هذا المبدأ العادل ، ليس لأنك لم تحملى له

مشاعر الحب طوال ٣٢ عاما ، مع أن الوحوش نفسها إذا تجاوزت ثلاثين عاما لابد أن تتبادل بالضرورة نوعا من العطف والألفة بحكم الجيرة في المكان على الأقل ، ولكن لأنك تظلمينه بإساءة عشرته وعدم احترامك له ، وعدم التحفظ في إشعار أبنائك منه بذلك ، وبعدم رضاك عنه أو اقتناعك به ، وبإنكارك عليه كل مزية يراها فيه الآخرون وتعمى عنها بصيرتك مع أنه بإجماعهم طيب القلب وحنون ، ومع أنه باعترافك أيضا لا يعصى لك أمرا ، وتسيرينه أنت كيفما تشاءين .

فأى ظلم أبشع من هذا الظلم ؟! بل وأى بطر أوضح من هذا البطر ، خاصة أنك لا تحبينه ولا تحسنين عشرته .. ولا ترغبين في نفس الوقت في الانفصال عنه ؟!

إن ما تنكرينه عليه هو أنه يحب عمله ويعمل دائما حتى ولو كان في أسوأ حالاته الصحية ، كأنها لا يطيق البقاء معك في البيت ، وأنه كما تقولين بلا مشاعر ولا أحاسيس ولم يقل لك كلمة حب واحدة ولم يشعرك بلمسة رقيقة !

ولهذا ، فهو ليس الزوج الذي كنت تتمنينه ولا الزوج الذي تحبين الجلوس معه طويلا !

ولست أنكر أهمية المشاعر والأحاسيس الإنسانية واللفتات العاطفية في العلاقة الزوجية مهما طال بها الزمن .. لكن كل ما تنكرينه

عليه لا يبرر لك أبدا ألا تحترميهِ أمام أبنائه، أو أن تنغصى عليه حياته، حتى ليقسم لك أبنائك من الفريق المكروه بأن الله لن يغفر لك ما تفعلينه بأبيهم، كما لا يبرر لك أن تجعلى منه موضوعا أساسيا للشكوى إلى الأبناء من أبيهم .. بما يشرخهم نفسيا ويقسمهم إلى فريقين أحدهما يتعاطف معك والآخر ينكر عليك ما تفعلين .. فالرجل فى النهاية لا يسىء عشرتك أو معاملتك، ولا يقصر فى أداء واجباته الزوجية والتزاماته العائلية تجاهك وتجاه أبنائك، ولا يطعنك فى كرامتك بخيانتة لك مع امرأة أخرى ، ولا يصب عليك جام غضبه كل يوم، أو ينهال عليك ضربا وركلا لإساءتك عشرته وتعريضك به لدى أبنائك على هذا النحو المزرى ، وأغلب الظن أنه قد انبهر فى بداية الزواج انبهارا شديدا «بآية الجمال» التى أهدتها له المقادير وغمرها بحبه ومشاعره وكل أنواع اللفتات العاطفية والرومانسية فلم يجد منها فى المقابل سوى السخط .. والنفور .. والجفاء .. وعدم الاقتناع به، بل .. واستخسار النفس فيه أيضا ، فكف عن التعبير عن مشاعره التى لا يجد لها أى صدى لدى شريكة حياته، ورضى من الحياة بأقداره وتفاذى المشاكل معك بالاستجابة لكل رغباتك وتنفيذ كل «أوامرك» بغير تذمر ، فماذا تريد من أكثر من ذلك يا سيدتى ؟ وهل كنت تتوقعين منه ومع ما تبدينه تجاهه من جفاء ونفور واستخسار لجمالك فيه ، أن يفعل معك ما

كان يفعلُه المحب في إسبانيا القديمة حين كان يستأجر فريقا موسيقيا صغيرا ليغنى تحت شباك حبيبته «سيرنادا» الحب والهيام كل مساء ؟!

إن الرجل لا تغيب عنه في أحيان كثيرة مشاعر زوجته الحقيقية تجاهه، مهما كان نوع العلاقة بينهما. والمؤكد أن زوجك قد أدرك منذ فترة طويلة أنك لا تحبينه ولا تنطوين له إلا على المشاعر السلبية، فكف أو يئس من استجداء مشاعرك بعد طول العناء وعوض ما يشعر به من تعاسة وحرمان عاطفي في الانهماك في العمل، وأداء واجباته الأسرية والعائلية، ولم يرفع رغم ذلك راية العصيان في وجهك، ولم يتوقف عن تنفيذ أوامرك والاستجابة لرغباتك.. فماذا كان يستطيع أن يفعل سوى ذلك وقد أنجب حفنة من الأبناء.. واستشعر مسئوليته الإنسانية تجاههم ؟!

أم تراك تعتقدين أنه كان من واجبه دائما تجاه «الآية» التي سمح له الزمان بها ألا يكف أبدا عن إنشاد أناشيد الحب والهيام.. بغض النظر عن تجاوبها معه في المشاعر أو رفضها له.. لأن هذا هو واجب العبيد تجاه أربابهم ؟!

ثم ماذا تعنين بتساؤلك عما جنيت من حياتك معه بعد ٣٢ عاما من الزواج وإنجاب حفنة من الأبناء تكرهين بعضهم وتحبين بعضهم الآخر ؟!

لقد تزوجت زوجك بإرادتك الحرة وليس رغما عنك، فإذا كانت مشاعرك قبل الزواج قد اتجهت لابن خالتك الذى حالت بينك وبينه الأقدار، فلقد كان واجب الأمانة يفرض عليك ألا ترتبطى بمن تتحولين معه بمشاعرك إلى غيره، وإذا ارتبطت به أن ترضى بحياتك معه، ولا تقصرى فى إسعاده حتى ولو لم ينبض قلبك بالحب له.. وكان يكفيك فى هذا الشأن أن تحسنى عشرته وترعى أبناءه وتظلى أسرته بجو من الوئام والسلام، يعوّض زوجك ما لا تمنحينه من مشاعر حقيقية .

فإذا عجزت عن ذلك.. فلقد كان هذا الواجب نفسه يفرض عليك الانفصال عنه وتحمل تبعات ذلك على حياتك وحياة أبنائك، أما ألا تفعل هذا ولا ذاك ثم تتسألين بعد ٣٢ عاما من الزواج وحفنة من الأبناء الكبار .. من هذا الرجل وأين أنا .. وماذا جنيت من حياتى معه!.. فهذا هو الظلم بعينه لكل من تتحملين المسئولية الأخلاقية والإنسانية أمامهم وهم زوجك وأبنائك .

إنك تعترفين بجرأة عجيبة بأنك لا تحبين بعض أبنائك لأنهم مثل أبيهم ويدافعون عنه ، وبأنك تميزين بعض أبنائك على البعض الآخر لأنهم يسمعون لك ما تقولين ضد أبيهم ويمدحونك دائما ويدللونك رغم إدراكك بأنهم منافقون فى كثير من الأحيان.. وتتجاوزين عن هذا

النفاق لأنه يسعدك ! ومن عجب أنك تحاولين تبرير ذلك بأن سيدنا «يوسف» كما تقولين كان يفضل بعض أبنائه على البعض الآخر ! والواضح أنك تقصدين بذلك عطف يعقوب عليه السلام على ابنه يوسف وهو طفل صغير ، مما أثار حفيظة إخوته الكبار عليه .

وردى على هذا التبرير العجيب أن عطف يعقوب عليه السلام على يوسف لم يكن تفضيلاً له على إخوته أو تفريقاً في المعاملة بينه وبينهم وحاشا لنبي من أنبياء الله أن يرتكب هذا الإثم، وإنما كان عطفاً إنسانياً طبيعياً من أب على أصغر أبنائه حتى يشتد عوده، تحقيقاً للمبدأ التربوي الحكيم الذي يقول إن أحب أبناء الأب إليه هو الصغير حتى يكبر والمريض حتى يشفى والغائب حتى يعود ، وهذا تفاضل مؤقت بالزيادة في درجة الحب والعطف اللذين ينبض بهما قلب الأب والأم لبعض الأبناء مراعاة لظروفهم، وليس غمراً لأحد الأبناء بالحب دون إخوته أو بعضهم دون البعض الآخر .. أو تمييزهم في المعاملة والحقوق عن الآخرين، كما تفعلين أنت الآن باعترافك مع بعض أبنائك. فإذا كنت تسأليننى هل يعاقبك الله حقاً على ذلك ؟ فجوابى نعم . لأن الله قد أمرنا بأن نسوى بين أبنائنا ولو في القُبل ، فإذا حملت نفس أحدنا لأحد الأبناء حباً أكبر من حبه لباقي إخوته، فإن الرحمة بكل الأبناء

تفرض عليه ألا يظهر أثر هذا الحب الزائد له في تفضيله لهذا الابن على إخوته في شيء ولو كان تافها كقبلة العطف على جبينه !

أما عن سؤالك الغريب الآخر عن حساب الله لأبنائك من الفريق المنبوذ على عقوقهم لأُمهم، فجوابي عليه أن إثم العقوق سوف يقع في البداية عليك لأنك لم تعينهم على البرِّيك، بالمساواة بينهم وبين إخوتهم ولأنك قد دعوتهم إلى مجافاتك كما تجافينهم، وكرهك كما تكرهينهم.. لكن هذا لا ينفي من ناحية أخرى أن من واجبه تجاه ربهم وليس تجاهك أن يتفادوا عقابه، بالإحسان إليك مهما لاقوا منك، ومفهوم الإحسان هنا لا يعنى الحب بالمعنى الشائع لأن النفس لا تستطيع مهما جاهدتها المرء أن تحب من يكرهها، ويعلن له عن كراهيته بوضوح، وإنما يعنى فقط ألا يبادل الابن أو أمه كرها بكره ولا جفاء بجفاء وألا يقصر في حقوق كل منهما عليه، وأن يحسن معاملتهما مهما لقي منهما محتسبا صبره عليهما عند ربه .

وختاما، فإننى أقول لك يا سيدتى إن من يطلب حب الآخرين عليه أن يبدأ هو بحبهم، ويمهد أرضه لغرس بذور الحب بينه وبينهم، فتطرح ثمارها بعد حين ويتعاون الجميع على رعايتها. أما أن يجاهر بكرهية البعض ثم يتعجب بعد ذلك من بعدهم عنه أو جفائهم له ، فهذا هو الغرور الذى يصور للمرء أحيانا أن من واجب الجميع أن

يرتّلوا تراثيل الحب والهيام تحت أقدامه دائما ، وليس من واجبه هو أن يبادلهم بعض هذا الحب، وظنّى أنك قد عاملت زوجك بهذا المنطق الفاسد معظم سنوات حياتك معه ، وأنك تعاملين به الآن أيضا أبناءك المنبوذين ، وتتعجبين بعد ذلك من جمود مشاعر الزوج ، وسلبية أحاسيس هؤلاء الأبناء تجاهك ..

فإذا أردت أن تخرجى من هذه الدائرة المغلقة، فابدئى بالرضا عن حياتك وزوجك وكل أبنائك، واعترفى لنفسك بأنك إنسانة عادية ولست آية من الآيات النادرة التى لا يوجد بمثلها الزمان على أحد ، وقدمى العطف والحب لمن تعيشين بينهم تصفوك قلوبهم ومشاعرهم، وتستريحين من كل هذا العناء .

وأحسب فى النهاية أن زيارة الطبيب النفسى قد تفيدك حقا فى تصحيح بعض مفاهيمك الخاطئة عن الحياة والنفس البشرية واستجابتها الغريزية لحب الآخرين أو كراهيتهم .. فضلا عما ستفيدك به من مواجهة هذه المرحلة المضطربة من حياتك، والتى أحسب أنها ترتبط الآن بشكل أو بآخر بما تشعرين به من فزع وخوف لبعض التغيرات البيولوجية التى طرأت عليك مؤخرا.. ونبهتك إلى أنك تدخلين مرحلة جديدة من حياتك «فتوقفت تراجعين» و «تساءلين»

و«تذكرين» و «تندمين» على شىء فاتك التمسك به قبل أكثر من ٣٢ سنة ! وكل ذلك من أعراض هذه الأزمة المعروفة، فى هذه المرحلة من العمر، ومن المفيد بالفعل أن تستعينى عليها ببعض المطمئئات النفسية .. والمهدئات .. وتعديل الأفكار الخاطئة .. وشكرا .

* * *



الجملة الناقصة

أبدأ رسالتي إليك بأن أشكرك على تعاونك مع الكثيرين في حل مشاكلهم، وأرجو أن تكون عوناً لي على حل مشكلتي بإذن الله. فأنا رجل في السابعة والثلاثين من عمري . منذ ١٣ عاماً كنت في بداية حياتي وأردت الزواج فرشحت زميلة لي في العمل إحدى قريبات زوجها، وتقدمت لها فقبلتني رغم اعتراض شقيقها الأكبر علىّ لضعف إمكانياتي المادية وقتها، لكن الفتاة تمسكت بي وقبلت بظروفي رغم أنني لم ألتق بها إلا حين تقدمت لها، وكانت خريجة كلية عملية وجميلة ومن عائلة طيبة، فأكبرت فيها قبولها لي رغم قلة إمكانياتي وازددت احتراماً لها ، وتزوجنا في شقة صغيرة من حجرة واحدة وصالة في قرية بعيدة عن عملي وعملها .

وسعدنا بحياتنا معا .. وكانت فألاً طيباً بالنسبة لي فعلاً فتحسنت أحوالي المالية بالتدريج، وبعد قليل شاركت في ملكية مزرعة صغيرة

للدواجن فى المنطقة التى أقمنا بها.. وبعد فترة أخرى انسحب شريكى منها فأصبحت ملكا خالصا لى .. وتحسنت أحوالى أكثر فاشتريت قطعة أرض زراعية فى منطقة جيدة وزرعتها بالفواكه، وأقمت بيتا بسيطا مريحا فيها وانتقلنا إليه، وكانت زوجتى قد أنجبت لى خلال هذه المرحلة ولدين جميلين.. ثم ذات يوم شعرت زوجتى فجأة بألم فى معدتها تكرر كثيرا وزادت حدته فعرضتها على الأطباء، فإذا بهم يصدموننى بأن المرض اللعين قد تسلل إلى أحشائها واستفحل وأن الأمل فى نجاتها منه بالجراحة لا يزيد على ١٪ !

وانهرت حين عرفت ذلك.. ورغم ضالة الأمل فقد تمسكت به، ووافقت على إجراء جراحة لاستئصال المنطقة المصابة بالمرض، ولم تنجح الجراحة للأسف ولفظت زوجتى رحمها الله أنفاسها الأخيرة قبل أن تنتهى .

ووجدت نفسى أرمل شابا وأبا لطفلين صغيرين حائرين، فواجهت أقدارى بصبر وعانيت الوحدة والألم والفراغ العاطفى والنفسى، وكابدت رعاية الطفلين اليتيمين وحدى وساءت أحوالى وأحوالهما، فاستجبت لنصيحة الأصدقاء بالزواج مرة أخرى بعد ثمانية شهور من وفاة زوجتى، ورشحت لى أسرتى فتاة من الأقارب تزوجتها أملا فى أن أجد فيها زوجة تعوضنى عن زوجتى الراحلة وأما بديلة للطفلين

المحرومين، فكشفت لى التجربة عن خيبة أمل كبيرة فيها ، وعانيت من عصبيتها وثورتها على أطفالى واهتمامها الزائد بنفسها وإهمالها وسوء تدبيرها ، فلم أطق استمرار الحياة معها وانتهت التجربة بالانفصال دون إنجاب، وعدت لحياة الوحدة من جديد .

وعشت عاما آخر وحيدا عانيت خلاله الكثير ، وحدثتنى شقيقتى عن فتاة جميلة ورقيقة عمرها ٢٢ عاما من أسرة طيبة تعرفت عليها منذ فترة وعرضت على أن أتقدم إليها، فتشككت فى أن تقبلنى مثل هذه الفتاة الصغيرة ومثيلا لها يحلمن عادة بشاب لم يسبق له الزواج وخال من الأعباء العائلية ، لكن شقيقتى ألحت علىّ فى أن أزور معها أسرة هذه الفتاة زيارة تعارف عادية.. وزرتها فعلا ورأيت الفتاة فزادنى جمالها شكّا فى قبولها لى ، ومع ذلك فقد تقدمت إليها بتشجيع من شقيقتى، وجاء الرد بالموافقة بشرط أن ترى الطفلين أولا قبل أن تبدى رأيها النهائى.. واصطحبت طفلىّ إلى زيارة هذه الأسرة وأنا أتهيب لحظة اللقاء التى قد تنتهى بالرفض، لكن الله قد شاء لى عكس ما توقعت وتعاطفت الفتاة مع الطفلين الصغيرين اليتيمين وأثارا عطفها .. كما استراح إليها الطفلان من الوهلة الأولى .. فتمت الخطبة على الفور .

ولم تطل فترة الخطبة على ٣٢ يوما فقط وتم الزواج . وكنت أتصور

أن فتاتى ستطلب كما هو متوقع أن أبعد طفليّ عن البيت خلال الأيام الأولى من الزواج لتستمتع بفترة شهر العسل كأى عروس بلا أعباء عائلية، ففاجأتني برغبتها في أن يبقى الطفلان في البيت وأن تستمر حياتهما عادية لكيلا يشعرأ بأى تغيير في ظروفهما، وتم الزفاف وطفلاي معى في نفس البيت .. ومضت حياتنا سعيدة .. ولاحظت بامتنان شديد حنوها على الطفلين واهتمامها بهما اهتماما يفوق في كثير من الأحيان اهتمامها بى .

ولفتُ نظرها إلى ذلك فأجابتنى بأن الطفلين يحتاجان إلى عناية مضاعفة حتى لا يشعرأ بغياب أمهما الحقيقية، وازداد احترامى وامتنانى لها. ولكننى مع مرور الأيام بدأت - واعترف لك بذلك - ألاحظ على نفسى أشياء غريبة .

فلقد بدأت أحس فجأة بحنين عجيب إلى زوجتى الأولى وأتذكر أيامى الجميلة معها قبل مرضها رحمها الله .. وأبحث عن صورها وأطيل النظر إليها.. ووجدتنى في بعض الأحيان لا أطيق وجود زوجتى الحالية في البيت .. وفي أحيان أخرى أتعامل معها بمتهى الرقة واللفظ .

ومع تقلباتى هذه بدأت أثور عليها لأتفه الأسباب، ولاحظت أنها

تفاجأ بهاجي فتقف أمامي صامته ولا ترد على ثورتى إلا بالدموع . ثم أهدأ وأعود لطبيعتى معها بعد قليل فلا تعاتبني ولا تلومنى على انفعالى السابق عليها وتمضى حياتنا معا كما كانت من قبل .

ثم تطور التغير الذى طرأ على تجاهها تطورا أشد . فبدأت أتصيد لها الأخطاء لأحاسبها عليها .. بل وأكاد أنصب لها شبك الخطأ لتقع فيها وأحاسبها عليه .. ولا تتعجب من صراحتى هذه، فأنا فى حاجة لمواجهة نفسى بهذه الحقائق قبل أن أواجهك بها فقد كان من نتائج ذلك أن تطورت الأمور بيننا تطورا خطيرا خلال فترة قصيرة، فمددت يدي عليها بالضرب حين سألتنى ذات يوم عن سبب تأخرى فى الخارج .. وتكررت واقعة الضرب بعد ذلك مرارا وفى كل مرة يكون رد فعلها هو البكاء الصامت والاعتزال لفترة قصيرة، ثم تعود الحياة بيننا إلى طبيعتها . إلى أن حدث ذات يوم أن زارتنا شقيقة زوجتى الراحلة مع زوجها لتطمئن على الطفلين، فرحبت بها زوجتى بحرارة وسألتهما كثيرا عن شقيقتها الراحلة .. لكى تعرف عنها كما قالت معلومات ضرورية تحكيها للطفلين عنها حين يسألانها، ثم طلبت منها بعض صور زوجتى الراحلة، وفسرت ذلك بأن الطفلين لابد أن يعرفا جيدا أمهما الراحلة، وأن يحتفظا بصور أمهما حتى لا ينسيانها على مر الأيام، وناقشتها فى هذا الأمر بعد انتهاء الزيارة ولم أقنع بمبرراتها ..

بل ووجدت في طلبها هذا برودا في المشاعر تجاهي، لأن البديهي هو أن تغار الزوجة الجديدة من ذكرى الزوجة الراحلة.. ومعنى طلبها لهذه الصور والمعلومات لكي تقصها على أولادى أنها لا تغار على كزوج ولا تشعرنى بغيرتها على، وثرث عليها وثارث هى أيضا، وكانت أول مرة تنفجر فيها معى على هذا النحو وتطور النقاش بيننا تطورا مؤسفا، فممدت يدى عليها بالضرب مرة أخرى وضربت بها بشدة.

وأعترف لك بأننى لم أكن فى وعيى حين فعلت ذلك، لكن هذا ما حدث على أية حال، وبعده طلبت زوجتى مغادرة البيت والعودة إلى بيت أبيها، ووافقت على ذلك. وبعد مغادرتها لنا شعرت بالندم لمضايقتى لها، وذهبت إليها فى بيت أبيها بعد أسبوع لكي أعيدها نادما إلى بيت الزوجية، فرفضت حتى مقابلتى ورجعت من عندها أجرة أذيال الخيبة.

وتدخل الأهل والأقارب بيننا وذهب إليها أكثر من رسول للتوسط وإعادة المياه إلى مجاريها بيننا فرفضت الصلح والعودة، ومازالت تقيم فى بيت أبيها منذ شهرين كاملين وترفض حتى أن تقابلنى أو تلتقى بى وجها لوجه.

وقد تسألنى فى النهاية.. وماذا أريد منك؟! فأجيبك بأنها تقرأ لك بانتظام وتعجب بأرائك وأريدك أن تكون وسيط خير بيننا، فأنا فى

حاجة إليها ولم أشعر بأنى أحبها كل هذا الحب إلا بعد غيابها عن البيت، فأرجوك أن تكتب لها وتبلغها ندمى على كل ما فعلت معها، كما أرجوك ألا تلومنى، فقد عذبت نفسى بما فيه الكفاية على ما فعلته بهذا الملاك الذى أهدانى الله إياه وأهداه لطفلى، وأشكرك على سعة صدرك، والسلام.

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

الجملة المبتورة التى اختتمت بها رسالتك لها بقية ناقصة لا يستقيم المعنى بدونها .. ولن تكون صادقا مع نفسك ما لم تستدركها وتكمل نقصها ، فتقول فى ختام الرسالة «وأرجو ألا تلومنى، فقد عذبت نفسى بما فيه الكفاية على ما فعلته بهذا الملاك الذى أهدانى الله إياه وأهداه لطفلى.. فجحدت هديته وأسأت إليها وتنكرت لها وأهنتها وضربتها، ولم أعرف لها قدرها وفضلها على طفلى وأثرها فى حياتها وحياتى إلا بعد أن نفذ صبرها ويئست من أن أعاملها معاملة عادلة وكريمة، فهجرتنى ورفضت العودة إلى سابق عطائها السخى لى وطفلى وإلى سابق تسامحها الطويل معى» !

هذه هى بقية الجملة المبتورة.. إذ أردت حقا وصادقا أن تواجه نفسك بالحقيقة المجردة بلا مداراة وبلا خداع للنفس أو تهرب من الواقع .

فمواجهة النفس بالحقيقة هى الخطوة الأولى دائما لـ أى إصلاح يرتجى منها. أما تجاهل الحقائق أو الدوران حولها فلا يثمر سوى خداع النفس والآخرين، واستمرار الأخطاء بلا نهاية أو بلا أمل فى الإصلاح أو الاستفادة من دروسها .

ويخيل إلىّ يا سيدى أن سر ما لاحظته على نفسك من تغير وتقلب فى المشاعر تجاه زوجتك، إنما يرجع غالبا إلى أن كلا منكما قد بدأ مشروع زواجه بالآخر بدوافع مشروعة لكنها متباينة بعض الشيء ، ولا لوم على أحد إلا على المبالغة فيها فقط .

فأما أنت، فلقد بدأت وأنت تريد من زوجتك الشابة الجميلة الصغيرة التى كانت تستطيع كما تقول : أن تحلم بشاب خال من الأعباء العائلية، أن تكون نهرا متعدد الروافد تصب كل روافده فى بحيرتك، فتكون مع طفليك ملاكا ذا أجنحة يرفرف فوقهما ويعوضهما عن فقدهما لأمهما، وتكون على الناحية الأخرى ربة أسرة مثالية.. وشريكة حياة طيبة.. وزوجة عاشقة تتدلّه فى حبك وتغار عليك من «نسمة الجنوب» كما يقول الشاعر .

وحين كشفت لك تجربة الزواج والحياة معها أنها أم عطوف لطفليك المحرومين أكثر منها زوجة عاشقة مدلهة بحبك.. تشكيت من اهتمامها الزائد بطفليك بدلا من أن تحمده لها.. وبدأت تشعر بالحنين

لزوجتك الراحلة.. وتضاربت مشاعرك تجاهها.. فساعة تراها أمّا
رءوما لطفليك وقد حلت لك مشكلة حياتك الأساسية معها، فضلا
عن أنها زوجة طيبة وجميلة ومقبولة في ظروف مثل هذا الزواج
التقليدي وفي ظروفك فترضى عنها وتشكر ربك عليها، وساعة أخرى
تلمس اختلاف عطائها العاطفي لك عن عطاء زوجتك الراحلة نسبيا
فتنسى لها كل فضائلها ودورها في حياة طفليك ولا تتذكر إلا نفسك
وذاتيتك فتضيق بها .

وما بين الرضا عن دورها النبيل في حياة طفليك وما بين السخط
على تحفظ عطائها العاطفي لك ، اضطربت مشاعرك تجاهها وكثرت
ثوراتك الانفعالية عليها وتطورت الأمور بك إلى الأسوأ، فتكرر
اعتداؤك بالضرب عليها .

ومشكلتك هي أنك تريد منها كل شيء وفي نفس اللحظة .. وبالحمد
الأقصى من الأشياء ولا تتوقف لكى تسأل نفسك لحظة : وما هو
«المقابل العظيم» الذى أقدمه لها، والذى يبرر لى طلب كل ذلك وتوقعه
منها على النحو الأمثل ؟

أو متى اكتملت لأحد كل أسباب الرضاء الكامل عن كل شيء في
حياته وبالحمد الأقصى من الأشياء ؟

لقد كان يكفيك جدا أن ترضى منها بدورها كأم حنون في حياة طفليك.. وبدورها كزوجة طبيعية ومتسامة معك إلى أقصى حد حتى ولو كانت فاترة المشاعر تجاهك بعض الشيء إلى أن تجدل الأيام خيوط الحب بينكما على مر الزمن .. أو تتآلف أنت مع حقيقة أخرى لا مفر منها وهي أنها ليست زوجتك الراحلة ولا يمكن أن تكون نسخة مماثلة لها في كل شيء، لكنك لم تكثف بذلك وهو كثير .. وطلبت الأكثر ففقدت الجميع !

لقد تحدثت عن دوافعك للارتباط بها .. ولم أتحدث بعد عن دوافعها للارتباط بك، والتي أدى بعض التباين بينها إلى هذه الأزمة بينكما .

لقد فهمت من رسالتك أنها لم تنجب منك بالرغم من أنها في سن الإنجاب. وإذا صح تقديرى، فإننى أتصور أنها من ذلك النوع من النساء الذى يمكن أن تطلق عليهن عبارة «أمهات لم يلدن أبدا».. والفتيات والسيدات من هذا النوع يحملن فى أعماقهن إحساسا طاغيا بالأمومة الدافقة سواء أنجبن أو لم ينجبن، ولهذا فهن يفضن عطفًا ورحمة على الأطفال الصغار ويتلهفن على ممارسة أمومتهم الحبيسة داخلهن بكل الوسائل المتاحة .

وأكاد أتصور أن زوجتك قد رحبت بك من البداية أملا في إشباع

أمومتها الفياضة، ولهذا فقد اشترطت لقبولك أن ترى طفليك أولاً.. وكانت نتيجة الرؤية إيجابية فتآلفت الأرواح من اللحظات الأولى وقبلت الطفلين وتزوجتك وطلبت منك ما لا تطلبه عادة عروس شابة من زوجها في ليلة زفافهما.. وهو أن يكون طفلاه في الجوار وتحت نفس السقف لكي تبدأ في ممارسة أمومتها معهما من اليوم الأول للزواج !

فلماذا لم تتفهم كل ذلك من البداية وتسعد به وترضى عن هذه الهبة الإلهية النادرة لأطفالك وتتغاضى بعد ذلك عن أى نقص آخر فى حياتك.. وتتواءم معه إدراكاً لأن الحياة لا تعطى أحداً أبداً الحد الأقصى من الأشياء !

لقد تعجبت لخلافك الأخير معها الذى أدّى لهجرها لك ، فأصدق تعبير يمكن أن يوصف به هو أنه أسوأ جزاء لخير عطاء . فلقد تعاملت زوجتك مع مسئوليتها عن طفليك بأمانة ورقى فى التفكير والفهم يستحقان الإشادة والتقدير لا الخلاف والاعتداء . لقد رأت من واجبها الإنسانى تجاههما ألا يخلطاً فى مخيلتهما بينها وبين أمهما الحقيقية، وأن من حقهما أن يعرفا كل شىء عنها حتى لا ينسيهاها .

وهذا أسلوب فى التربية شائع فى الغرب، ويقضى بمواجهة الصغار بحقائق الحياة مهما كانت مؤلمة بدلاً من تجميلها أو تخفيفها أو إخفائها عنهم، لكي يعتادوا على الحياة « بها » منذ الصغر كما يألف الإنسان عاهته

ويتعايش معها لأنه لا بديل أمامه سوى ذلك، وهو أسلوب يرى في هذه المواجهة عوناً للصغار على أن ينشأوا أكثر صلابة وقوة نفسية على تحمل أعاصير الحياة. والحق أنى أعجب كيف اهتدت زوجتك التى لم تحدثنى عن نوع دراستها إلى تفضيل هذا الأسلوب الواقعى فى التربية! وهو مخالف للأسلوب العاطفى الشائع لدينا فى هذا الشأن مع أضراره التربوية النفسية، لكنه على أية حال وسواء كانت قد فعلت ذلك عن وعى واختيار أو عن إحساس فطرى بأنه الأصوب، فلقد اختارت الأمثل والأفضل والأكثر تحقيقاً لمصلحة طفليك على المدى البعيد نفسياً وتربوياً، فضلاً عن أنه أيضاً الاختيار غير «الأنانى» من جانبها. ذلك أن من تقدم عطاءها لطفليك قد تفضل فى كثير من الأحيان أن تحو من ذاكرة الصغار كل أثر لأى أم أخرى سواها. فماذا كان رد فعلك لكل ذلك.. وكيف تعاملت مع هذا الاختيار الإنسانى النبيل؟

لقد ناقشته معها من ناحية واحدة فقط هى الناحية «الذاتية» الشخصية التى تخصك أنت وتخص علاقتك بها بغض النظر عن مصلحة طفليك، فاعتبرت تصرفها بروداً فى العاطفة تجاهك وجحوداً فى المشاعر يعكس عدم غيبتها عليك من ذكرى زوجتك الراحلة! وانفعلت عليها فانفجرت فيك لأول مرة واعتديت عليها بالضرب بشدة فهجرتك ورفضت العودة إليك .

فماذا تريدنى أن أقول لها بعد كل ذلك يا صديقى ؟! إننى أريد أن أقول لك أنت الكثير والكثير.. وأن أذكرك بأنه رحم الله امرءا عرف قدر نفسه .. وأدرك حقيقة ظروفه وأوضاعه فلم يحمل الآخرين رهقا ولم يطالبهم بالكثير. فإذا كنت قد استوعبت دروس تجربتك وأخطائك حقا فلسوف ينعكس ذلك عليك فى ندم حقيقى صادق على ما بدر منك فى حق زوجتك .

وإذا جاز لى أن أخاطب زوجتك فى شىء، فإنما أفعل ذلك فقط من أجل هذين الطفلين البريئين اللذين حرمتهاما الأقدار من أمهما.. وحرمتها أبوهما بسوء أفعاله من رحمة السماء بهما، ولن أطالبها سوى بشىء واحد هو أن تعطيك الفرصة العادلة لمقابلتها وإبداء أسفك واعتذارك لها ولكى تلمس هى بحسها مدى صدقك فى ندمك.. وتقرر حياتها معك ما تراه على ضوء اقتناعها بصدق هذا الندم، وبصدق رغبتك فى أن تبدأ معها صفحة جديدة خالية من كل أخطاء الماضى ومثالبه..

وأرجو أن تستجيب لرجائى لها بمقابلتك إكراما لهذين الطفلين، وشكرا لها إن فعلت . .





بصمات الشقاء

أنا شاب في الثلاثينيات من عمري ، فقدت حنان الأم وأنا في بداية حياتي، وعشت مع أسرتي البسيطة حياة كلها حرمان وقسوة، حتى إنني وأنا في المرحلة الثانوية لم ألتحق بالمدرسة النهارية، والتحقت بمدرسة مسائية لكي أعمل في الصباح وأوفر لنفسي وأسرتي بعض الزاد الذي يخفف من جفاف حياتنا. ورغم ذلك فقد حصلت على الثانوية العامة بمجموع كبير والتحقت بالكلية النظرية التي تمنيت الالتحاق بها .

وكعهدى مع الشقاء المبكر فقد أدت فترة تجنيدى خلال دراستى بناء على طلبى حتى أنهىها أثناء الدراسة وأعمل عقب التخرج على الفور ، بدلا من أن أضيّع عاما وبعض العام بعد التخرج، ولأن البسطاء لا يستطيعون الانتظار يا سيدى . وقد نجحت خلال فترة تجنيدى فى العام الجامعى الأول بتقدير طيب وكذلك فى العام الثانى .

وكان أخى الأكبر وقتها قد سافر للعمل فى الخارج ليسهم مع أبى فى إعالة إخوته.. فتكفل بنفقات دراستى الجامعية، وساعدنى على أعبائها، وحملت له هذا الصنيع فى قلبى وضميرى حتى اليوم .

وفى عامى الجامعى الأخير تعرفت على زميلة جديدة من طالبات السنة الأولى، كانت تضع أقدامها على أعتاب الجامعة، وأنا أستعد لمغادرتها، فلفت نظرها تفوقى واجتهادى وحب الجميع لى، وأنى لست شابا لاهيا ولا عابثا، كما أن مظهرى وملامح وجهى يحملان بصمات الشقاء. فتقاربنا سريعا وعاهدتها على أن أرتبط بها عقب تخرجى بالرباط المقدس رغم اعتراض زملائى من طلبة الليسانس على ذلك .

لكن رصيد الحرمان والشقاء والبؤس من ورائى دفعنى إلى ألا أزيد من عناء حياتى بحرمان قلبى من حقه فى أن يخفق لأول إنسانة أحبها وأتمناها، وأذكر أننى تناقشت وقتها مع أقرب الأصدقاء لى فى معارضته لفكرة الارتباط ، وكانت مبرراته لى هى أن حب الجامعة قد لا يدوم غالبا إلى نهاية العمر .. وإننى بعد أن أخرج وأعمل سوف يتسع أمامى ميدان الحياة، فأرى غيرها وربما أنجذب إلى من هى أفضل منها، فقطعت عليه المناقشة بقولى له إن من عانى ما عانيته يتمسك دائما بأول نسمة راحة فى حياته ولا يفرط فيها بسهولة. وهكذا أخلصت الحب

لزميلتى وأقمت على عهدى معها وتخرجت فى كليتى متفوقا كعادتى، فتوج الله رحلة كفاحى بتعيينى معيدا بالجامعة وحصلت على دبلوم الدراسات العليا، وأسرعت بالتقدم إلى خطبة زميلتى ووافق أهلها على الفور .

وتحملت وحدى كل نفقات الزواج، وتزوجنا وبدأنا حياتنا الزوجية طائرين صغيرين سعيدين أحدهما وهو أنا يتشوق بحرقه وإصرار إلى الراحة والسعادة والأمان وأنجبنا طفلا جميلا كان هدية السماء لنا .. أما جائزته فكانت حصولى على الماجستير ثم الدكتوراه.. وخلال سنوات الزواج الأولى تخرجت زوجتى فى كليتها وعملت مدرسة بمدرسة حكومية، وأنجبنا مولودنا الثانى.. وكان أخى الأكبر الذى ساعدنى خلال تعليمى الجامعى قد تزوج هو الآخر وأنجب واستقرت حياتنا وسعدنا بها ورضينا .

وتحسنت ظروفى المادية تدريجيا أكثر فأكثر، فانتقلت بأسرتى الحبيبة من شقتنا القديمة الضيقة إلى شقة جديدة جميلة أعدت تأثيثها بأثاث جديد واشترينا سيارة، واشتركنا فى أحسن الأندية.. وقدمت الذهب لزوجتى فى كل مناسبة.. لكن أين فتاة القلب الجميلة التى عشت معها عامين فى بداية زواجنا ليسا من حساب السنين ؟!

لقد تغيرت زوجتى كثيرا بعد عملها بقليل .. وعاشت لنفسها فقط

متناسية زوجها الذى أحبها وهى طالبة صغيرة خائفة على أبواب الجامعة، ونسيت أبناءها وازداد ارتباطها بعملها على حساب راحتى وراحة أبنائى، وأصبح كل ما يهمها هو مظهرها وحياتها فقط . وفوجئت بها تفتعل معى المشاكل كل حين، ثم تهجر البيت عائدة إلى بيت أهلها الذى تشعر بالراحة فيه أكثر من بيتها كما علمت. فأسعى إليها كل مرة فى بيت أهلها، وأقدم لها هدية الصلح رغم أننى لم أخطئ فى حقها فى شئء وأرجع بها إكراما لأبنائى الذين ازداد ارتباطى بهم كثيرا، وأصبحت لا أستطيع التخلّى عنهم .

وعرفت هى هذا الضعف فى فضغطت على هذا الوتر مرارا، وابتعدت عن أبنائها كثيرا فى ظاهرة لم أرها ولم آلفها من قبل .. وصبرت أنا على كل شئء إكراما لأبنائى وحرصا على زوجتى التى أحببتها وأملا فى تحسن الأحوال، وهدأت من روعى بأنه قد سبق لى أن تحملت من قسوة الحياة ما هو أشد هولا .. فعسى الله أن يعوضنى وأولادى عن صبرى خيرا.

وبالفعل فقد جاءت جوائز السماء التى تبشر بها الصابرين دائما يا سيدى فى كتاباتك ورشحت للإعارة إلى دولة عربية بمرتب كبير وتسهيلات مغرية ومسكن لائق .. وأملت أن يجتمع شملنا هناك .. فتبدد الغربة سحابات الخلاف المفتعل وتقرب بيننا من جديد ، وزففت

الخبر إلى زوجتي مبتهجا، فإذا بها تصدمني باعتذارها عن عدم مصاحبتى إلى غربتى، وبمطالبتى بالسفر إلى عملى الجديد وحدى بدونها وبدون أبنائى !

ومهما وصفت لك ما أحسست به فى هذه اللحظة من إحساس مرير بالهوان والخذلان فلن أستطيع أن أصور لك مشاعرى وقتها، ومع ذلك فقد تحملت على نفسى ورجوتها أن تعيد النظر فى هذا القرار الصعب، لأنى فى حاجة إليها وإلى أولادى فى غربتى، ولأنه لا معنى لأن أعيش وحيدا ولى أسرة يمكن أن يجتمع شملها معى، فرفضت بإصرار .. وأتبع رفضها بمغادرة البيت إلى بيت أهلها لكى تضعنى أمام الأمر الواقع ، فتجمعت هموم الدنيا فى داخلى، وتساءلت أين السعادة التى تعد بها الحياة من طالت رحلتهم فى بحر الشقاء؟ وكدت أن أعتذر متنازلا عن فوائدها المادية لى ولأبنائى وأسرتى وسعيت إلى زوجتى فى بيت أهلها من جديد لإعادتها للبيت ، اشترطت على ألا ترجع إليه إلا بعد تنفيذ شروطها وهى أن أسافر وحدى إلى الإعارة أولا، وبعد أن أرجع فى أول إجازة صيف منها يذهب كل منا فى طريق مختلف !

وتحملت الإهانة وجرح المشاعر مرة أخرى .. وسافرت وحدى إلى عملى الجديد وأثت لها ولأبنائى فى الغربية شقة فاخرة على أمل أن تقتنع

وتحضر إلى بعد حين، وعلمت أن أبنائي يفتقدوننى ويبيكون ليل نهار من أجل رؤيتى والسفر للإقامة معى، لكنها لا ترقى لهم ولا تلين ولا تتنازل عن رفضها للسفر حتى بعد أن وفّرت لها عملا معى فى الغربية .

. ورجعت فى أول إجازة فوجدتها مشغولة بجمع المال من عملها وأحضرت لها كل غال وثمان من الغربية، فلم يشفع لى ذلك عندها وتدخل الأهل والأصدقاء لديها بلا جدوى، وافتعلت المشاكل مع أهلى وخاصة أبى المسن وإخوتى رغم أنى لم أقصر فى حقها، لكنها للأسف قد فقدت الإحساس بالزوج والأبناء .

وتكرر نفس الحال حين رجعت فى الإجازة الثانية بعد عام طويل، وها أنا أعيش عامى الثالث من الإعارة .. ولم يتحسن الحال، ولم تلح فى الأفق أية بادرة أمل !

لقد دارت الحياة دورتها يا سيدى وتوفى إلى رحمة الله أخى الكبير الذى ساعدنى فى تعليمى الجامعى وأسرنى بفضله، فنهضت بلا تردد لتحمل مسئوليتى عن أبنائه اليتامى ولأرد لهم جميل أبيهم رحمه الله، وأصبحت بذلك أعول أسرتين من فضل الله ورزقه لى . وقد علمت مؤخرا أن زوجتى وبعد ١٣ عاما من زواجنا تريد أن تؤمن مستقبلها ماديا مع أنى لم أقصر معها ولا مع أهلها فى شىء ومع أن حاضرى ومستقبلى ملك لها ولأبنائى، كما أنها تطالب الآن بالانفصال

وبتعويضها ماديا لا أدري عن أى شىء على وجه التحديد وقد تكفلت وحدى بنفقات الزواج، لم تساهم هى معى فى شىء من تكاليف الحياة، حتى ونحن فى بداية حياتنا حين كانت مواردى محدودة، لكنه حب التملك الذى اكتشفته أيضا فى شخصيتها .

إننى أحب أسرتى وأبنائى وحبى لزوجتى قائم على حبى لأبنائى، وسيظل هذا الحب يسيطر علىّ إلى النهاية. وقد تجاوز أبنائى سن الحضانة، لكنى لا أريد لهم أن يتمزقوا بين أبوين منفصلين، كما تمزقت أنا فى الحياة باليتم المبكر وقلة الموارد .. وأنا أعلم أن زوجتى للأسف تكرهنى، ومع ذلك فلست قادرا على اتخاذ القرار بالاستجابة لشروطها فى الانفصال وتعويضها ماديا .

إننى أرجوك ألا تتهمنى بالضعف معها، فلست فى الحقيقة ضعيفا، لكن قدرتى على التحمل تفوق الوصف ، وقد تحملت الحرمان من كل شىء فى الحياة فى طفولتى وصباى .. فهل أعجز عن مزيد من التحمل من أجل أبنائى ؟!

إن المقربين منى يتمنون لى الانفصال عنها .. فهل أفعل ذلك يا سيدى ..؟ وهل أرتبط بعدها بأخرى ؟ ومن يدرينى أن من سوف أرتبط بها يكون لها وجهان .. وجه واعد بالسعادة قبل الزواج ووجه منذر بالشقاء والتعاسة بعد الزواج، كما حدث لى مع زوجتى، أم هل

أحافظ على الوضع القائم أملا في تحسن الأحوال، رغم أنه لا يلبي احتياجاتي النفسية والعاطفية والاجتماعية ؟

إن مأساة زوجتي في تقديرى هى فى بعدها عن أداء فرائض الله إلا فى أوقات الشدة، وأنا رجل مصل وأدبت فريضة الحج وأرعى الله فى عملى وحياتى وتعاملى معها.. فبماذا تنصحنى أن أفعل ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

مأساة زوجتك أيضا يا سيدى إلى جانب البعد عن فرائض الله وأوامره ونواهيه، تتمثل كذلك فى كوارث تقلب المشاعر واختلاف المزاج النفسى وزوايا الرؤية للحياة والأشخاص، بين مرحلة الرومانسية وبراءة الأحاسيس فى بواكير الشباب، وبينها فى مرحلة نضج الشخصية واكتمال ملامحها واختلاف رؤيتها للأشياء والأهداف مع الاقتراب من سن الثلاثين وما بعدها .

وأنت كما فهمت من رسالتك قد ارتبطت بزوجتك وهى تضع أقدامها على أعتاب الجامعة أى فى سن الثامنة عشرة غالبا أو بعدها بقليل، وهى مرحلة من العمر تغلب على الإنسان فيها النظرة الرومانسية للحياة ولا تسمح له أبدا بالتأكد من ثبات المشاعر واستهداء العقل فى تحديد الاختيارات المصيرية فى الحياة بما يضمن لنا استقرارها وثباتها إلى نهاية الرحلة. ومع أن بعض الزيجات السعيدة

الناجحة قد تبدأ بالفعل بالاستجابة لنداء القلب لأول طارق له في هذه المرحلة من العمر ، إلا أن زيجات أخرى كثيرة أيضا على الناحية الأخرى قد بدأت بالارتباط العاطفي في هذه السن المبكرة، وبشرت بالسعادة والأمان في قادم الأيام، ثم جفت ينابيع الحب فيها بعد سنوات وتحطمت سريعا على صخور الحياة واختلاف المزاج النفسى بعد اكتمال ملامح الشخصية واتساع دائرة الرؤية لما كانت العين لا تراه من قبل إلا من ثقب إبرة القلب والمشاعر وحدها !

ولا لوم على أحد في اختلاف تكوينه النفسى بعد تخطيه مرحلة المراهقة وتقدمه إلى سن النضج، لكن اللوم كل اللوم على من يرضون لأعزائهم من الأبناء بأن يدفعوا ثمن هذا التطور الطبيعى في شخصياتهم، وعلى من لا يروضون أنفسهم على التواءم مع حياتهم ومحاولة إعادة اكتشاف شخصيات شركاء حياتهم، والتماس ملامح الحب القديم في العلاقة معهم لإحيائه وتطويره أو الاكتفاء منه على الأقل بالعشرة الطيبة وعلاقات المودة والرحمة مع من سبحنا ضد التيار لكى يجتمع شملنا بهم، وما لا يُدرك كله لا يترك كله، لكن آفة البعض منا أنهم كما يقول لنا المفكر الفرنسى مونتيسكيو يريدون أن يكونوا كالآلهة تقول للشئ كن فيكون، ويطلبون دائما من الحياة ما لا تسمح به كله لأحد مهما كان شأنه . وقد لاحظت خلال زيارتى الأخيرة

للولايات المتحدة الأمريكية أن في حياة معظم الرجال والنساء الأمريكيين زيجتين على الأقل، الأولى تمت في سن أواخر المراهقة وبواكير الشباب وتزوج فيها الشاب أول فتاة أحبها، فلم يدم ذلك الزواج بسبب اختلاف الشخصية بعد النضج أكثر من ثلاثة أعوام أو أربعة.. ثم زيجة أخرى في سن الثلاثين أو ما بعدها كان اختيار القلب لها ناضجا ومتوافقا مع أحكام العقل، فدامت واستمرت حتى نهاية الرحلة .

وقد يفسر لك ذلك ما تسميه أنت بوجه زوجتك قبل الزواج «ووجهها» بعده. وما حدث لزوجتك من تغير في الطباع والشخصية في تقديرى هو أن الفتاة الصغيرة الخائفة التى وجدت لديك الأمان والعاطفة وهى تضع أقدامها على أعتاب الجامعة، قد تحولت عنك مشاعرها بعد المعاشرة والإنجاب واكتساب خبرة التعامل مع الحياة واتساع زوايا الرؤية لديها .

وبغض النظر عن أسباب هذا الانقلاب في شخصيتها أو مدى مساهمتك في إحداثه بوعى أو بغير وعى منك، فإن زوجتك المشغولة الآن بجمع المال وتأمين مستقبلها والتى لا يرق قلبها لدموع أبنائها الذين يكون طلبا للسفر والإقامة مع أبيهم وتقوى على مفارقتهم عند كل بادرة خلاف، لم تعد هى هذه الفتاة الصغيرة التى أحبتك وهى فى

الثامنة عشرة من عمرها. وإنما أصبحت الآن شخصية مغيرة تماما لها لا
ترغب في مواصلة الرحلة إلى نهايتها معك، وحددت اختياراتها في الحياة
فرسمت لسعادتها طريقا لا مكان لك فيه للأسف ولا طائل من
محاولات إرجاعها عنه أو استجداء مشاعرها القديمة التي نضبت
وجفت يناييعها منذ زمن . بل ولا جدوى لأية محاولة جديدة معها
لنفس الغرض إلا إطالة الوضع الراهن بينك وبينها.. وهو وضع لا
يشبع احتياجاتك النفسية والاجتماعية.. وقد يعرض كرامتك أيضا
كرجل إلى مالا ترضاه لنفسك .

لقد انتهى كل شيء للأسف ولم يبق إلا إسدال الستار. وإذا كنا قد
سلمنا في أعماقنا بالنهاية.. فإن لحظة إنزال العلم تستحق منا أيضا أن
نذرف الدمع تأثرا بؤاد الأحلام وانهمزام الحب وانتهاء الأمان في حياتنا.
ولا لوم عليك في ذلك إذا فعلت.. لكن لا تمتهن نفسك يا صديقي أكثر
من ذلك في التمسك بمن ترفضك وترى سعادتها في البعد عنك، فلقد
أديت واجبك كاملا تجاه أبنائك بمحاولاتك المستميتة لأن تحفظ عليهم
حياتهم الأسرية وتحملت في سبيل ذلك من مرارة الخذلان واستجداء
المشاعر مالا يصح أن يطالبك أحد بالمزيد منه، فلا تضيف إلى بصمات
الشقاء على روحك وشخصيتك بصمات مرارة الإحساس بالرفض ممن
تقرب إليه القرابين، فلا يزيده ذلك إلا نأيا عنك وتجبرا

عليك، فنحن في النهاية لا نستطيع أن نرغم أحدا على أن يحبنا ويبادلنا مشاعرنا الصادقة تجاهه.. وإنما نستطيع فقط أن نحترم أنفسنا ونكف عن استجداء من لا يحمل لنا بعض ما نحمله له نحن من حب ومشاعر.

وتقدير أسوأ الاحتمالات والقبول بها يعيننا كثيرا على التخلص من خوفنا الغريزي من مواجهة ما نخشى وقوعه.. إذ ما هي أسوأ الاحتمالات المتوقعة إذا أصرت زوجتك على مطلبها في الانفصال رغم كل ما بذلت من محاولات للإصلاح؟ الطلاق وعودتك من غربتك لتقيم مع أبنائك في مسكنك؟ ماذا سيجري في الكون إذا حدث ذلك؟!

إن لك من الإخوة والأهل من سوف يعينونك على رعاية أبنائك.. ولن تطول وحدتك كثيرا بعد انفصالك عن زوجتك إذ ما أكثر من يرحب بك وبأبنائك كزوج وعشير طيب يتلهف للسعادة والأمان بعد رحلة العناء. أما زوجتك فقد ترتبط بغيرك بعد الانفصال وانقضاء العدة على الفور.. وقد لا ترتبط وسواء فعلت هذا أو ذاك فلسوف تعرف ما لا نعرفه أبدا إلا بعد فوات الأوان، وهو أنه لا قيمة لنا في الحقيقة إلا لدى من يحبوننا ويتمسكون بنا، وأنا مهما تمادينا في الكبر عليهم والغرور معهم فلسوف تجيء لحظة فاصلة تنتصر فيها الكرامة

على الحب والضعف البشرى ويهجرنا من نتصور أنهم لا حياة لهم إلا بنا.. وكثيرا ما تجبرنا عليهم من قبل، فإذا بنا نكتشف بعد فوات الأوان أننا لا نساوى شروى نقير عند غيرهم.. وأننا لسنا فى الحقيقة سوى أشخاص عاديين .. من «تراب الإنسانية» - على حد تعبير الفيلسوف نيتشه - لا يلتفت إلينا .. ولا يخطب ودنا ولا يتذلل لنا أحد، لكنه «الغرور» نعمة الله لأصحاب النفوس الضعيفة .. كما يقول لنا شكسبير العظيم، لأنه يعوضهم عن نقصهم وتفاهتهم ويصور لهم أن الشمس لا تشرق فى الصباح إلا لكى تلقى ضياءها على وجوههم !

فلا تُعن يا صديقى أهل الغرور على مزيد منه وواجه أقدارك بشجاعة كما ينبغى لكل رجل شريف أن يفعل، وفاوض زوجتك فى الانفصال بلا منازعات قضائية ولا مشاكل. أما عن تعويضها ماديا فلست أعرف مبرراتها لطلبه إلا إذا كانت قد ساهمت معك بهاها فى شراء الشقة والسيارة.. أما إذا لم تكن قد فعلت فليس لها من حقوق مادية عليك سوى مؤخر صداقها فيما أعلم إلا إذا رغبت أنت كرما منك وحرصا على العلاقات الإنسانية مع أم أبنائك أن تؤدى إليها نفقتها ونفقة المتعة بنفس راضية مادامت زوجتك هى التى تطلب الطلاق منك دون إيذاء لها من جانبك أو ضرر. وقد شرع الله لمن أرادت الطلاق من زوجها بغضاله ودون إيذاء منه أو ضرر وبغير أن

يدفعها إلى ذلك بظلمه لها وإضرارها بها.. شرع لها أن تفتدى نفسها منه
بمال تؤديه إليه، وهذا هو الخلع المشروع. أما غير المشروع منه فهو أن
يضيّق الزوج عليها ويظلمها فيدفعها إلى طلب الطلاق منه تخلصاً من
عشرته . فإذا أخذ بعد ذلك المال منها وطلقها، فالرأى عند الأمام
الأكبر فضيلة الشيخ محمود شلتوت (رحمه الله) عليه أن ينفذ طلاقها
تخلصاً من الضرر، وأن يتوجب على الرجل بعد ذلك رد المال الذى
أكرهها على دفعه .

وأنت كما تروى رسالتك.. لم تضيّق عليها ولم تدفعها بالإيذاء
والضرر إلى طلب الطلاق منك، فأى وجه للتعويض المادى الذى
تطالب به إذن؟!

* * *

العقل الجميل

أكتب إليك حاجتي الملحة في أن أتحدث إلى أحد وأنفس معه عما في صدري ، فقد قرأت لك أن الكتابة إلى شخص ما إنما تعكس رغبة الإنسان الغريزية في الإفضاء بما ينطوي عليه صدره لمن يشاركه الاهتمام به . وهذا ما أريد أن أحققه بالكتابة لك . فأنا شاب في الحادية والثلاثين من عمري ، نشأت في أسرة ريفية مكونة من أب موظف وأم لا تعمل وأخ وثلاثة بنات ، وقد كافح أبي وأمي معنا كفاحا مجيدا حتى تعلمنا وتزوجت أختان من أخواتي . أما أنا فقد تخرجت في كلية التجارة وأديت فترة التجنيد ، وبعدها سافرت إلى دولة عربية ولم تطل غيبتى بها عن سنة

ونصف السنة ، عدت بعدها على إثر حرب الخليج ومعى مبلغ لا يزيد على ألف دولار لا غير . وبدأت أبحث عن عمل بمؤهلى فلم أجده واضطرت للعمل لفترة بائعا بالثانوية العامة في أكشاك الخبز إلى أن حصلت والحمد لله على عمل بمؤهلى الدراسى كمحاسب بإحدى

الهيئات العامة في محافظة ساحلية نائية .. وبعد استقرارى في هذا العمل بدأت أبحث عن شريكة الحياة التى تؤنس وحدتى في هذه المحافظة البعيدة عن بلدتى الأصلية. وتمنيت كما يفعل كل الشباب أن أتزوج إنسانة جامعية مثلى وجميلة الشكل. وتقدمت إلى أكثر من فتاة من أهل بلدتى، فكنت أقبل فى البداية لأنى من أسرة متدينة وإنسان ملتزم، ثم أصطدم بصخرة المطالب المادية التى لا أقدر عليها فيفشل المشروع، فلقد كان المطلوب دائما هو شبكة قيمة وشقتان واحدة فى محافظتى الساحلية.. والأخرى فى بلدتى الأصلية، وكل ذلك بخلاف الجهاز. فكيف أقدر على ذلك ولم يكن قد تبقى معى سوى ألف جنيه ؟!

وهكذا قوبلت بالرفض من أكثر من أسرة بسبب إمكانياتى المادية، إلى أن رشحت لى طبيبة صديقة لأسرتى ابنة شقيقها التى تبلغ من العمر ٣٣ عاما وتعمل بالدبلوم التجارى وتقيم فى محافظة بعيدة بالجنوب، وطلبت رؤية العروس وقابلتها فى منزل عمتها الطبيبة ووجدتها ليست جميلة، ومع ذلك فلقد أعجبنى منها روحها وصراحتها وطبيعتها الظاهرة فضلا عن أصلها الطيب.. فلقد وجدت بها بعد قليل تفصح لى عن سننها الحقيقية بدون خجل وترحب على الفور بالانتقال معى إلى محافظتى التى أعمل بها رغم بعد المسافة وبلا تمنع ولا تخوف من البعد أو الغربة.. ولم تطلب شيئا وتمت الخطبة بنصف المبلغ الذى

أمتلكه، وتم عقد القران وقمت بتصنيع غرفة نوم بألفى جنيه وتحملت أسرة الفتاة باقى الجهاز بعد أن عرفت إمكانياتى. وبعد ثلاثة شهور تزوجنا، وتم انتداب زوجتى إلى محافظتى الساحلية وسافرت معى إلى شقتى هناك .

ومع أنى ككل شاب كنت أتمنى أن أتزوج من فتاة جميلة وصغيرة فى السن.. إلا أن زوجتى هذه قد أثبتت لى بالدليل العملى أن الجمال ليس شيئاً مهماً فى الزواج، فلقد وجدتها ورغم أنها تكبرنى فى السن بسنتين مطيعة ومريجة وحسنة العشرة وترضى بالقليل وتقدر ظروفى، وتحرص على مشاعرى فتقبض مرتبها أول كل شهر ثم تتركه لى على «الكمودينو» بجوارى لكى تعفينى من حرج أخذ مرتبها من يدها.. وذلك لكى أدفع إيجار الشقة وقيمة أقساط الأثاث. ولقد كنت والله أذوب خجلاً من نفسى وأنا آخذ مرتبها وأحلم باليوم الذى ينتهى فيه سداد الأقساط لأعفيها من ذلك، لأنى أعرف أن الزوج مسئول وملزم بالنفقة على زوجته.

ومع ذلك فلم تشعرنى زوجتى بأى حرج ولا من فأحسننت عشرتها وأحسننت عشرتى. وبعد شهرين من زواجنا تحركت ثمرة الزواج فى أحشائها.. ومضت شهور الحمل عادية وبلا متاعب صحية تذكر إلى أن اقتربت ولادة زوجتى فطلبت منها قبل الموعد بعشرين يوماً أن

تسافر إلى أسرتها لتضع مولودها هناك فودعتني وودعت الجيران..
وأوصتني بالاهتمام بنفسى وسافرت مصحوبة بالسلامة إلى بيت
أسرتها وحانت لحظة الولادة فوضعت طفلا جميلا أسمته هى أحمد.. ثم
.. أسلمت روحها لباريها بعد ميلاده وتسميتها له بست ساعات فقط !

فهل تصدق هذا ؟ لقد نزل الخبر على كالصاعقة وأنا فى محافظتى
البعيدة أنتظر عودتها ومعها طفلى لكى نكوّن أسرتنا الصغيرة، فإذا بكل
شئ يتبدد فجأة وفى لحظة خاطفة ! وهرولت إلى بلدة أسرتها وأنا
مذهول وحزين وتلقيت العزاء فيها.. وأمضيت بضعة أيام، ثم رجعت
إلى عملى تاركا طفلى الرضيع فى بيت خاله لترعاه خالته الصغرى
وزوجة خاله التى ترضع طفلا لها ووجدت نفسى يا سيدى أرمل فى
الثلاثين من العمر .. وقد فقدت الزوجة الصالحة الطيبة المطيعة بعد
زواج لم يطل أكثر من أحد عشر شهرا .

وعانيت الوحدة شهورا فإذا بى أجد نفسى لا أطيقها على عكس
حالى قبل الزواج، فالعزوبة قبل الزواج يمكن أن يحتملها الإنسان.. أما
عده فلا يستطيع احتمالها بنفس السهولة. وهكذا وجدت نفسى رغم
أنى لم أنس زوجتى الراحلة ولن أنساها أحتاج إلى رفيقة حياة جديدة
وأسعى إلى الزواج .

وتقدمت لأكثر من ثيب وبكر فكانت شروطهن غير محتملة بالنسبة

لى وأهمها ترك طفلى كما هو فى بيت أسرة أمه مع تغيير الجهاز بالكامل .. إلخ. ورفضت أكثر من واحدة لهذا السبب وترحمت على زوجتى الطيبة الراحلة إلى أن فوجئت ببعض الأقارب يرشحون لى أخت المرحومة زوجتى، وهى آنسة فى سن السابعة والعشرين ولها نفس صفات وطباع زوجتى الراحلة ومتدينة ومطبعة وتحب ابنى ومرتبطة به لكنها أقل جمالا من زوجتى الراحلة، كما أنها لا تعمل وإن كانت تحمل دبلوم التجارة دفعة ١٩٨٥ وأنا مازلت حديث العمل وأخشى ألا يفى مرتبى وحده بتكاليف الحياة الزوجية بعد سداد أقساط زواجى الأول وإيجار الشقة.. نعم إنها قد ترضى بظروفى وتربى ابنى ولا تشترط على تقديم شبكة أو تغيير الجهاز كما تفعل الأخريات، لأن أسرتها صعيدية ولا تهمها هذه الأمور المادية، وأنا أكرّ لها كل احترام وأقدر مزايها، لكنى أقف مترددا أمام مشكلة عدم عملها، وأمام مشكلة «قلة الجمال» لديها. فبماذا تنصحنى ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

ظروفك الإنسانية يا صديقى لا تسمح لك بترف التردد طويلا أمام هذا الاختيار. فهو الاختيار المثالى لك بل لعله أيضا الحل الإلهى العادل لمشكلتك ولمشكلة طفلك الرضيع اليتيم.. فأنت سوف تضطر عاجلا أو آجلا إلى ضمه إليك وسوف يحتاج إلى أم بديلة ترعاه وتعوضه عن

أمه الراحلة.. وكل من تحدثت معها بشأن الزواج لم تقبل برعايته أو ضمه إليها بعد الزواج، ناهيك عن الشروط المادية التي لا قبل لك بها .
وفي وسط هذه الظروف غير المواتية تلوح لك فرصة نادرة للاقتراح بشقيقة زوجتك الراحلة وهي آنسة في السابعة والعشرين من عمرها وترعى طفلك الآن بالفعل وتعتبر نفسها مسئولة عنه .. ولن تكون رعايتها له بعد الزواج سوى استمرار لمسئوليتها الإنسانية والعائلية عنه كما أنها لن تطالبك إذا تزوجتك بتجديد الأثاث ولن تكلفك من أمرك رهقا، فما وجه التردد إذن أمامها ؟!

إنها لا تعمل !.. ولا مرتب لها !.. ومرتبك وحده قد لا يكفي لأعباء الحياة بعد الزواج ؟ إن الواضح أنها كشقيقتها الطيبة الراحلة تقنع بالقليل وستقدر ظروفك ولن تزيد من تكاليف حياتك في هذه المحافظة النائية، بل لعلها ستقلل منها بحسن تدبيرها لحياتك. وفترة سداد الأقساط مهما طالّت فلن تطول عن عام آخر على الأكثر أو عامين. ولا شك أنك تستطيع أن تتحمل جفاف الحياة خلاهما إلى أن ينقضيا.. ولعل «زوجتك» تكون قد وجدت خلاهما عملا في محافظتك النائية.. أو لعل الله يجعل لك من أمرك يسرا بطريقة أخرى .

وأنت تقول لى فى رسالتك إنك كنت «تذوب خجلا» وأنت تأخذ من زوجتك الراحلة مرتبها كل شهر.. لأنك تعرف أن الرجل ملزم

شرعا بالإنفاق على زوجته ومسئول عن ذلك مسئولية كاملة.. فلماذا تتردد إذن أمام هذه الفتاة لمجرد أنها لا تعمل ولا مرتب لها؟ إننى أعرف أن ظروف الحياة قاسية.. وأن تعاون الزوجين مطلوب ومندوب لتيسير ظروف الحياة، ومع ذلك فإننى قد أسترجع أحيانا كلما «تشدد» أحد فى مسألة الزوجة أو مرتبها أو مالها كشرط هام لديه قبل الزواج، أقول إننى أسترجع قول أمير المحدثين سفيان الثورى :

«إذا تزوج الرجل المرأة وقال : أى شىء لها؟ فاعلموا أنه لص» !
يقصد بذلك لأنه لا يطلب الزواج فى حد ذاته، لكنه يطلب المغانم.

ولست أتصورك كذلك أبدا وأنت أب مكافح وأمين وسيء الحظ، فقد أردت لنفسك السعادة فى أضيق الظروف، فإذا بك تحرم من أسبابها بعد أقل من عام من زواجك. إذن ماذا يبقى من أسباب ترددك أمامها؟ «قلة الجمال لديها»؟ والحق أننى لا أرى مبررا لترددك أمام هذا السبب وقد خبرت أنت نفسك بالتجربة العملية أن الجمال ليس عاملا أساسيا ولا هاما فى تحقيق السعادة الزوجية، وأن ما يحققها حقا ويحفظها هو جمال الروح والطبع والخلق والدين وليس جمال الشكل ..

إن «جمال الشكل» هو آخر وأتفه أسباب السعادة الزوجية، ولعله فى كثير من الأحيان يكون من أسباب عدم استقرار الزواج وليس من أسباب نجاحه ودوامه ..

ولعل هذا هو السر في ذلك التعبير الفرنسي الطريف الذى يصفون به المرأة.. فيقولون عنها « إنها عقل جميل »! وليست جسدا جميلا.. ولا وجهها جميلا.. لأن العقل الجميل وحده هو الذى يسعد به الزوج ويجعل حياته مع زوجته رحلة آمنة ميسورة إلى أن تبلغ شاطئها .

أما «الوجه الجميل» بلا عقل جميل ولا طباع جميلة فهو أسرع الطرق إلى الشقاء والتعاسة، فإذا كان الأمر كذلك.. فلماذا تتردد أمام هذه الفتاة الطيبة التى أرادت السماء أن تعوضك بها عن مأساة زواجك القصير ووليدك الذى حرم من أمه بعد لحظات من ولادته ؟!

* * *

الشيء الفظيع

أنا وزوجتي قاربنا سن المعاش وننتمى للأسرة المتوسطة التي تحرص على القيم والتقاليد والفضائل الحميدة وتعرف ربها حق معرفته.. ولقد أنعم الله على بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، فعشنا حياتنا الزوجية في توفيق وسعادة وأنجبنا ثلاثة أبناء بنتين وولداً وحيداً، وشغلنا أعلى المناصب المحترمة في المجتمع، ورعينا أبناءنا حتى تخرج الابن الأكبر وهاجر لاستكمال الدراسات العليا والعمل في إحدى الدول منذ ثلاث سنوات، وتخرجت الابنة المتوسطة وعملت بوظيفة محترمة.. وواصلت الصغرى دراستها الجامعية بنجاح.

وقد تقدم لابنتي الوسطى شاب حديث التخرج من أسرة طيبة ومتكافئة معنا في الوضع الاجتماعي. لكن إمكانياته المادية ضعيفة ولم تستطع أسرته مساعدته مادياً في الزواج لظروف اضطرارية، ولأنني أؤمن بأن السعادة الزوجية لا تصنعها الإمكانيات المادية بقدر ما

يصنعها الحب والتفاهم والتكافؤ بين الطرفين، فقد رحبت بهذا الشاب وسعدت به خاصة بعد أن لمست رغبة ابنتى فيه ، فساعدته ماديا على إتمام الزواج وقدمت له كل التسهيلات الممكنة. وتم الزواج بعد قصة حب نمت وتعمقت تحت أعين الأسرتين، وفى إطار العفاف والتقاليد المرعية، وسعدنا جميعا بهذا الزواج الذى جمع بين شابين يتبادلان الود والتفاهم والاحترام، واعتبرنا هذا الشاب بمثابة أهله ولم يخل فى التعبير عن افتخاره بنا وبزوجته الجميلة المثقفة .

واستمرت مساعدتى لابنتى بعد زواجها بالرغم من دخلها المعقول، فقد أحببت زوجها واعتبرته ابنا لى كما أنى أقدر وأفهم ظروف الحياة الصعبة بالنسبة لشابين فى مستقبل حياتهما، ومضى عام على زواج ابنتى فى سلام وسعادة.. ثم بدأت فجأة ألاحظ ذبولها وحزنها، وألاحظ أيضا أن زوجها الذى كان يتعامل معها برقة واحترام قد بدأ يسئ معاملتها أمام الجميع بلا سبب واضح، وهى تتحمل ذلك وتخفى عنا مشاكلها وترفض طلب مساعدتنا لها فى حلها بحجة أنها قادرة على ذلك وحدها وتفهم شخصيته أكثر من أى إنسان آخر، ولم أشأ التدخل بين ابنتى وزوجها على غير رغبتها وفضلت هى أن تلجأ إلى والدى زوجها وهما شخصان فاضلان ومحبانها كثيرا، فحاولا التدخل بينها وبين ابنهما لكنهما لم يتوصلا إلى نتيجة مرضية معه .

ثم غضب معين قدرتها على التحمل ذات يوم فرجعت إلى بيتي
حاملة طفلها الوليد وهاجرة بيت الزوجية ومصرة على طلب الطلاق..
وبدأت تحكى لنا لأول مرة عما تحملته من تغيره المفاجيء بعد عام من
الزواج، ومن إهماله لها ولطفلها ومحاولاته المستمرة لاستفزازها كأنها
يرغب في تنفيرها منه وإجبارها على هجر عش الزوجية.. وكيف
حاولت الإصلاح وصبرت على سوء معاملته لها، وكيف ذكرته بالحب
القديم ولم يجد ذلك فتيلًا في تحسين معاملته لها .

وتعاطفت أنا وزوجتي معها ولم نحاول لومها على طلب الطلاق
تاركين للأيام أن تهدىء نفسها بعد حين، وبقيت ابنتى فى بيتى ثلاثة
أسابيع بغير أن يحاول زوجها الاتصال بى ليسأل عنها أو عن طفله.. أو
حتى ليشكوها لى وأنا من كان يعتبره من قبل بمثابة والده.. وتعجبت
لذلك وتصورت أنه فى خجل شديد من نفسه ويتحرج من أن يواجهنى
بما فعل مع ابنتى بلا سبب واضح .

وظل الموقف مجمدا على هذا النحو إلى أن بلغه عن طريق أهله أن
ابنتى تصر على طلب الطلاق منه، وأنا لا نعارضها فيه بعد أن أعيتها
الحيل فى فهم أسباب تغيره وإصلاحه. فاتصل بى أحد أقاربه وأبدى لى
رغبته فى إنهاء الخلاف بين ابنتى وزوجها مشرطا فى ذلك أن يقتصر

الحساب والعتاب والمناقشة على الزوجين وحدهما .. وألا نشارك نحن في جلسة الصلح، وأن ندعها لنفسيهما ليصلحا ما بينهما بغير تدخل من جانبنا .

ورغم استنكارى للطلب إلا أنني أردت ألا أقف في طريق الصلح بين ابنتي وزوجها، وفسرت ذلك بحرج هذا الشاب من مواجهتي ووافقت على أن يأتى إلى البيت مع قريبه هذا وأن يجلسا فى الصالون مع ابنتى بعض الوقت، ثم يرجعا إلى بيتها دون حساب ولا مراجعة من جانبنا له فى شىء . وجاء بالفعل واصطحب زوجته إلى بيته، ولم يتجاوز الحديث بيننا خلال هذه الزيارة عبارات التحية والمجاملة المعتادة .

وتنفست وزوجتى الصعداء بعودة المياه إلى مجاريها بين ابنتى وزوجها، لكن فى نفس الليلة فوجئت زوجتى بابنتى الصغرى تنفجر فى البكاء وتبكى بكاء مريرا.. وقبل أن أستكمل لك ما حدث منها أقول لك إن ابنتى هذه تختلف عن شقيقاتها فى أنها ومنذ طفولتها متمردة وترفض النصح والإرشاد وتتجاوز أحيانا الحدود فى ردودها على وعلى أمها. وقد كنا نرجع ذلك أحيانا إلى صغر سنها أو إلى أنها مدللة بعض الشئ لأنها الابنة الصغرى ونخفف من وقع هذا التمرد بالقول بأنها على شاكلة جيلها المتمرد، ونطمئن أنفسنا رغما عن ذلك بأنها فى النهاية أفضل من غيرها لأنها موفقة فى دراستها وتؤدى فروض

الصلاة والصيام، ونأمل في أن تجد خبرة السنين والأيام من تمردها وجوحها .

ثم أرجع إلى القصة الأصلية فأقول لك إن ابنتي هذه بكت الليلة بكاء مريرا ففسرنا بكاءها بحزنها على حال أختها والطريقة التي رجعت بها إلى بيتها، وقد كنا نحن أيضا في غاية الأسى لذلك، لكن بكاءها طال وتواصل بطريقة غير طبيعية.. ثم ارتمت فجأة على صدر أمها وطلبت منها أن تعفو عنها وتغفر لها ذلك الشيء الفظيع الذي ارتكبته وندمت عليه الآن أشد الندم.. وانخلع قلب أمها حين سمعت منها ذلك واستفسرتها عن هذا الشيء الفظيع.. فإذا بها تعترف لها بأنها على علاقة حب مع زوج أختها هذا منذ عشرة شهور، وأنها كانا متفقين على الزواج بعد طلاقه لأختها، وأنه قد وعدا بأنه سوف يجد لها بعد تخرجها عملا في مدينة أخرى وينتقل معها إليها ويتزوجها هناك بعيدا عنا بمجرد أن تبلغ سن الرشد !

وتوالت اعترافاتها لأمها كأنها لم تعد تحتمل أن تجلسها في صدرها أكثر من ذلك، اعترفت لأمها أنها كانت تشجعه على الانفصال عن أختها وتطمئنه إلى أنها ستكون أما حنونا لطفلها منه، وأنها كانت تلتقي به في الأماكن العامة في نفس الوقت الذي كانت زوجته تشتكى فيه من انصرافه عنها وإهماله وسوء معاملته لها !

واستمعت زوجته إلى اعترافاتها ذاهلة وباكية وعاجزة عن الكلام والنطق ، ثم سألتها حين وجدت صوتها عما دعاها للاعتراف بكل ذلك «الآن» وليس من قبل ، فأجبتها بأن ضميرها قد استيقظ وشعرت بفظاعة الجرم الذي ارتكبته في حق أختها ونفسها وأبويها وأسررتها ، خاصة وقد تأكدت من أنه لن يستطيع الاستغناء عن زوجته وطفله بدليل سعيه للصلح وإرجاع زوجته عن طريق هذا القريب .

واعترفت ابنتي الصغرى لأُمها أيضا بأنها ضعيفة أمامه ، لكنها أرادت أن تقطع على نفسها خط الرجعة معه بهذا الاعتراف ، لكي تشرك أمها معها في مقاومتها لهذا الضعف ، ولكي تكون رقية عليها وتردها عن ضعفها إذا ضعفت أمام محاولاته مرة ثانية ، وأنها تحتمى الآن بهذا الاعتراف بأسرتها ضد محاولاته الآثمة لاستئصالها من جديد ، وسيكون هذا هو آخر عهدا بالتصرفات الشائنة إلى نهاية العمر .

ولك أن تتصور يا سيدى صدمتى فى ابنتى التى لم أقصر فى تربيتها وتنشئتها وتهذيبها حين أبلغتنى أمها بما عرفتة منها فى تلك الليلة المشؤمة .. لقد كدت أجن وأفقد صوابى .. وأرتكب جريمة أندم عليها فيما بعد ، لكنى تماسكت حتى لا أزيد الطين بلة .. وكتمت غيظى وقهرى وألمى ورضيت بيلائى واختبار السماء لصبرى وإيمانى ،

واستعنت بالصبر والصلاة وقراءة القرآن طوال الليل على إعادة الهدوء
لنفسى حتى أتجنب الفضيحة الشائنة لأسرتى وأتجنب خراب بيت
ابنتى المتزوجة .

ثم اتفقت مع ابنتى الحقيرة المخدوعة هذه عن طريق أمها على أن
تكتُم هذه الكارثة عن كل البشر وأولهم أختها المتزوجة من هذا
الوغد.. وأن تكتُم عنه اعترافها لنا بهذا الأمر، وأن تهدده بإبلاغنا به إذا
حاول الاتصال بها مرة أخرى واستمالتها إليه .

وقد حدث ذلك بعد أيام بالفعل واتصل بها محاولاً شرح موقفه
وأسباب إعادته لزوجته، فصدته وأكدت له أنها قد أفادت من غيبوبتها
السابقة وطلبت منه عدم الاتصال بها مرة ثانية، وإلا أبلغت أبويها
وأختها بذلك. فانكتم اللئيم ولم يجد ما يرد به على تهديدها وتوقف عن
الاتصال بها بعد ذلك، وأصبحت ابنتى الصغرى تعيش الآن تحت
رقابة متصلة من جانبنا لعدم ثقتنا فيها، ولخوفنا الشديد من عودتها إلى
ماكانت عليه، وقد منعناها بالطبع من زيارة بيت أختها، كما أوعزت
لزوجتى أن تطلب من ابنتنا المتزوجة ألا تصطحب زوجها معها عند
زيارتها لنا، وبررت لها هذا الطلب بأنها وأباها مازالا متأثرين بالطريقة
التي اتبعها زوجها فى الصلح وإصراره على تجاهلنا .

وبالرغم من أن ابنتى الكبرى قد تقبلت هذه الرغبة من جانبنا بلا اعتراض تقديرا منها لمشاعرنا.. إلا أنني بدأت أرى فى عينيها بعد مضى أسابيع على هذا الحال تساؤلات تبحث عن إجابة أخرى مقنعة لنفورنا الشديد من زوجها، خاصة وقد أبلغتنا أنه قد رجع إلى سابق عهده معها ورجع للاهتمام بها وبطفلها وإلى حسن معاملته لها، وبالتالي فقد رجعت إليها سعادتها ولم يعد ينقصها إلا افتقادها للعلاقة الأسرية الحميمة التى كانت تجمع بيننا وبين زوجها قبل هذه الأزمة وافتقارها للزيارات العائلية الطويلة التى كانت تقضيها لدينا مع زوجها وطفلها.

وقد لاحظت عليها بعد فترة أنها قد بدأت تباعد بين زياراتها المنفردة لنا، ولا أعرف هل حدث هذا بإيعاز من زوجها، أم أنها تفعل ذلك من تلقاء نفسها مجاملة له حتى لا يتضايق من كثرة زياراتنا لنا وحدها.. إنه يعلم بالتأكيد أننا لا نرغب فى زيارته لنا «الآن» على الأقل، لكنه لا يعلم السبب الحقيقى لمقاطعتنا له ويتصور أنه من آثار الخلاف السابق بينه وبين زوجته .

وابنتى الكبرى ألح فى عينيها ونظراتها المتوسلة رغبتها فى أن تعيد المياه إلى مجاريها بيننا وبينه لتصفو حياتها من منغصات المقاطعة، وما قد تجره عليها من جدل مع زوجها بعد حين .

لكن كيف أعيد علاقتى بهذا الخائن لكل العهود والمواثيق والذي استغل صلته بنا وقام بإغواء ابنتى الصغرى وهى بمثابة شقيقته دون أن يفكر فى الفضيحة التى كان يمكن أن يتسبب فيها لأسرتنا وأسرتة على السواء؟!.. وكيف يؤتمن مثل هذا الخائن على دخول بيتى مرة أخرى قبل أن تتزوج ابنتى الصغرى على الأقل؟.. وكيف أضمن ألا يعاود محاولة إغوائها من جديد؟.. صحيح أنها قد اقتنعت كما تقول وكما يبدو لنا بفظاعة الجرم الذى ارتكبته وأدركت عمق الكارثة التى كانت ستلحقها بأعزائها وبحياتهم .. لكن من يضمن لى عدم تكرار ذلك وعدم معاودته إغوائها وعدم استجابتها له مرة أخرى.. والشيطان كما يقولون شاطر؟!!

لقد تحدثت مع ابنتى بعد هذه الكارثة عن الحرام والحلال فذهلت حين اكتشفت ضحالة معلوماتها الدينية رغم أدائها للفرائض ، وندمت أشد الندم على أننا اعتمدنا فى تربيتها الدينية على ما تلقنه المدارس لأبنائنا من معارف دينية وحدها، فإذا بحديثى معها يكشف عن جهل فاضح بالحرام والحلال وما يباح وما لا يباح. وقد تحدثت إليها كثيراً فى ذلك وأرشدتها إلى ما يجب أن تقرأه وبدأت تقرأ فى الدين واعترفت بعد أن خطت فى قراءاتها بضع خطوات أنها كانت تعيش فى «جاهلية» شديدة .

وحيرتى الكبرى الآن يا سيدى هى مع ابنتى المتزوجة التى بدأت
تتأثر بموقفنا المتشدد من زوجها.. وأريدك أن تشاركنى التفكير فى
إجابة مقنعة لهذه التساؤلات :

هل أصارح زوج ابنتى بما علمت من أمره وأواجهه بأخطائه حتى
يعلم السبب الحقيقى لمقاطعته ويتوقف عن الضغط على زوجته لإعادة
العلاقة بيننا إلى سابق عهدها.. أو ليتوقف عن تكديرها بسبب موقفنا
منه ؟

أم هل أصارح ابنتى الكبرى بالكارثة رغم علمى بالنتائج المؤكدة
لذلك وهى انفصالها عنه ، وهذا ما لا أريده ولا أرضاه لها، خاصة بعد
تحسن علاقته بها ؟

أم هل أستمر فى مقاطعتى له دون إبداء الأسباب الحقيقية لذلك، مما
يظهرنى بمظهر المتشدد معه بلا سبب معقول، وقد يؤدى إلى غضب
ابنتى الكبرى ويوغر صدرها ضدى وضد أمها لأنها لا ترى سببا مقنعا
لاستمرار مقاطعتنا لزوجها ؟ .

أم هل أتحامل على نفسى وأعيد علاقتى به إلى سابق عهدها، وكيف
سيكون شكل هذه العلاقة إذا رجعت وأنا أنطوى له فى أعماقى على
احتقار شديد ؟!

إننى فى حيرة من أمرى وأعلم تماما أن الوضع الحالى لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية.. فأرجو أن ترشدنى للطريق الأمثل للتصرف مع هذا الشاب الذى لم يرع حرماتنا ولم يقدر مسئوليته، وأن تدلنى إلى كيفية التعامل معه بما لا يهدم بيت ابنتى ولا يوغر صدرها فى نفس الوقت ضدّى.. ولا يجبرنى أيضا كإنسان وكأب مجروح على ما لا أطيق أو أحتمل !!

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

تذكرت وأنا أقرأ رسالتك الشائكة هذه عبارة غريبة للشاعر الفرنسى الرجيم شارل بودلير يقول فيها: «إن أعظم إنجازات الشيطان هو أنه أقنع البشر بأنه ليس موجودا فى الكون».. مع أنه أقرب إليه من حبل الوريد، ومع أن الإنسان مطالب بأن يجاهده طوال الوقت حتى لا يأسره ويضمه إلى رعايا مملكته اللعينة .

والواضح من رسالتك يا سيدى أن الشيطان قد حقق «إنجازا» آخر لا يقل «عظمة» عن إقناع البشر بعدم وجوده، حين قارب بين ابنتك الصغرى المتمردة منذ طفولتها، وزوج شقيقتها الكبرى التى كادت أسرتها تتهدم وطفلها يتشرد ، لأن اثنين من «الرعايا» قد نسيا فى غفلة من الضمير والواجب الإنسانى والعائلى كل الاعتبارات الجديرة

بالمراعاة والاحترام، ولم يريا سوى أنانيتهما وجوحهما ورغباتهما الشائنة
متسرلة بدعاوى الحب والهيام والالتقاء بالنصف الصحيح الذى أخطأ
الطريق إليه منذ البداية !

أليس هذا ما يبرر به الإنسان دائما خروجه على كل الأعراف
والتقاليد والاعتبارات الإنسانية والعائلية حين «يفلسف» لنفسه
اعتدائه على الحرمات التى لا يجوز له الاقتراب منها مهما كانت
الظروف، ومهما كانت مكابדתه للمشاعر الجامحة التى لا تعرف الحدود
فى بعض الأحيان؟.. إن المشاعر لا سلطان لأحد عليها.. وقد تنحرف
بالفعل أحيانا إلى من لا ينبغى لها أن تتوجه إليهم.. لكن أين سلطان
الضمير الأخلاقى على سلوك الإنسان؟!.. وأين الوازع الدينى الذى
يكبح جماح المشاعر ويحبسها فى مكان الصدور.. ويحصرها إلى أن
تذبل وتخمد وتلفظ أنفاسها بعد حين من مجاهدة النفس الأمارّة
بالسوء؟!.. إن هذا ما يسميه الشاعر الإنجليزى وليم بليك «بقتل
الرغبة فى المهد» بدلا من معاناتها حين تتضخم وتتوحش وينفلت
عيارها بالتسيب الأخلاقى والتبرير الزائف للأخطاء .

وهذا أيضا ما تحذرنا منه القيم الدينية ، حين تطالبنا بعدم تعدى
الحدود المشروعة للعلاقة المتحفظة بين رجل وفتاة لا تربطهما صلة
الرحم .

وقد غاب كل ذلك فيما يبدو عن ابنتك الصغرى يا سيدى، فأدى إلى هذه المحنة التى تكابدها أنت وزوجتك الآن والتى تهدد بترك ظلالها على علاقتك الأبوية بابنتك الكبرى، كما غاب أيضا عن ذلك الوغد الآخر الذى لم يتورع عن إغوائها أو عن الاستجابة لندائها.. وأيا كان البادىء منها، فمستوليتهما عن الخطأ واحدة، وكلاهما شريك فيه وينبغى أن يتحمل تبعاته كاملة .

فإذا كانت ابنتك الصغرى قد أفاقت من غيوبتها فى الوقت المناسب، فهى للأسف لم تفق منها على صحوة ضمير كما قالت فى البداية، بل على انكشاف خداع ذلك الشاب لها ونقضه «لعهده» معها فى أن يمضى بالقصة إلى نهايتها المتفق عليها بالطلاق بينه وبين زوجته تمهيدا للارتباط بشقيقتها الصغرى.. لقد «خذلها» شريكها فى القصة المقززة ولم يصمد للنهاية ولم يقو على هدم أسرته وتمزيق طفله بينه وبين زوجته، فزالت غشاوة الوهم عن عينيها وتبدت لها الحقيقة سافرة .

إننى لا أشك فى صدق ندمها الآن على ما فعلت فلعلها قد ندمت بالفعل بعد أن تكشفت لها بشاعة ما كانت على وشك ارتكابه فى حق شقيقتها وطفلها وأبيها وأمها وكل أفراد أسرتها، لكنها لم تعترف فى البداية بدافع من هذا الندم وإنما بدافع القهر ومرارة «خذلان» شريكها لها، فأرادت أن تقطع ما بينها وبين هذا «الغادر» فضاعفت من خطئها

به بدلا من أن تصححه.. وفجرت لكم هذه المحنة النفسية المؤلمة التي تعانونها الآن في علاقتكم بها وبابنتكم الكبرى وبزوجها. ولقد كانت تستطيع أن تقطع ما بينها وبين هذا الوغد في صمت وأن تردعه بمجرد تهديده بإبلاغ زوجته وأبويها بمحاولاته لتجديد علاقته بها، كما كانت تستطيع أن تصمد أمامه للأبد وتلتزم أخلاقيا معه فتعفيكم من مواجهة هذه المحنة.. لكنها لم تستطع أن تكبح جماح قهرها «بخذلانه» لها فكشفت كل شيء وزادت من تعقيد هذه القصة المزعجة، ولم تأنف حتى الاعتراف لأمها بأنها كانت تحرّض زوج شقيقتها عليها وتشجعه على الانفصال عنها و «تطمئنه» إلى أنها سترعى طفلها من بعدها.. فأى حضيض يمكن أن تندهور إليه النفس البشرية أبشع من هذا الحضيض في بعض الأحيان؟!!

إن المؤكد أن هذه الابنة الصغرى كانت تنطوى لشقيقتها الكبرى على بعض مشاعر الغيرة والتنافس التي قد ترجع جذورها إلى مرحلة الطفولة.. لكن من أين اكتسبت هذه القدرة التدميرية البشعة لعلاقات الرحم والعلاقات الإنسانية بمثل هذه الخفة والرعونة؟!!

كيف كانت تتصور أن تحيا حياتها إذا تزوجت زوج شقيقتها وأقامت سعادتها الموهومة على أنقاض تعاسة أختها وشقاء أبويها

وانزعاج أفراد أسرتها وأسرة زوجها بما حدث؟! .. هل كانت ستتحيا حياتها في جزيرة مهجورة في قلب المحيط لا تحتاج فيها إلى أهل ولا بشر ولا احترام أحد؟!!

يا سيدى إننى أشفق عليك مما كابدته وتكابده الآن بسبب هذه المحنة المؤلمة، وأرى لك أن تستمر في مقاطعتك لهذا الرجل الذى لم يرع حرمتك وكاد يوردك ويورد ابنتك وأسرتك كلها موارد التعاسة والشقاء ليس فقط عقابا له على جرمه.. ولا حتى ازدراء له ولما فعل، وإنما أيضا حماية لابنتك الصغرى التى لا تضمن إذا ما رجعت المياه إلى مجاريها بينكم، ألا يحقق شيطان بودلير «إنجازا» آخر على حساب ضعفها ووهن التزامها الدينى ..

ومن مواقف الحياة ما لا ينبغى أن نتحسب فيه أمام اعتبارات الشكل الاجتماعى أو العائلى أو حتى لوم بعض الأبناء، إذ لا خيار لنا فيه سوى اتخاذ المواقف الصريحة ضد المخطئين.. غضبوا لذلك أو لم يغضبوا.. وفهم أعزائنا أسبابنا لذلك وقدروها أو لم يفهموها ولم يقدروها.. وفى ظروفك على وجه الخصوص فلأن تتحمل لوم ابنتك الكبرى وعتابها الصامت لك، خير لها ولك من أن تعرف هى السبب الحقيقى لمقاطعتك لزوجها، ليس فقط لأن النتيجة الحتمية لذلك هى الطلاق وتشريد الطفل الوليد، وهو ما لا تريده لها، وإنما أيضا لأنه

سيكون من مضاعفات هذه النتيجة أن تفجع ابتك الكبرى في شقيقتها الوحيدة وزوجها وفي كل القيم والمبادئ الأخلاقية والعائلية والإنسانية، وأن يهتز أمامها كل شيء بقسوة وعنف وتفقد ثقتها في الخير والبشر والعلاقات الإنسانية .

إن المنطق المادى المجرد يرفض إخفاء مثل هذه الكارثة عن ضحيتها، ومبرره في ذلك أن من حقها وهي محور القصة أن تعلم بما يدور حولها، وأن الحقيقة مهما كانت مؤلمة خير من أى زيف لكى يكون لها بعد أن تعرفها حق الاختيار واتخاذ قرارها على مسئوليتها وبناء على المعلومات الصحيحة .

لكن هل نقدر نحن حقا على تحمل تبعات مثل هذا المنطق العملى المجرد، فنقطع بذلك ما بين شقيقتين إلى الأبد.. ونحرم طفلا وليدا بذنب أبيه المعجب بنفسه وخيلائه، وذنب فتاة متمردة لم تقدر العواقب، ولعلها كانت نزوة عابرة في حياة كل منهما وأفاق منها راغما أو راغبا؟!

إننى أرى لك يا سيدى ألا تزلزل حياة ابتك الكبرى وقيمها ومثالياتها بهذه الصدمة القاسية في شقيقتها وفي زوجها، وأرى ألا تحفل بلومها الصامت لك مقدرا أنها سوف تدرك ذات يوم بحاستها

السادسة أن الأمر أعمق من أن يكون مجرد غضب عابر لتجاهلك في إجراءات الصلح، ولا شيء يضطرك لاستقبال هذا الرجل في بيتك ومعاملته معاملة الابن مرة أخرى بعد أسابيع قليلة من جريمته التي لا تغسلها مياه البحر، فالأمر يتطلب زمنا ووقتا كافيين لنسيان الإساءات الجسيمة، وللاستعداد النفسى للتجاوز أو الصفح عنها، ولو اضطرتك الظروف ذات يوم لحضور مناسبة عائلية يتواجد فيها فقد تصافحه تجنباً للفت الأنظار، لكن لا يستطيع أحد أن يرغمك على أن تحبه أو تحتفى به أو تهلل لرؤيته وقد فعل ما فعل، إلا بعد أن يكفر عنه تكفيرا كافيا وطويلا، وإلا بعد أن تذيب الأيام مراراته في النفوس ..

فالله سبحانه وتعالى كما يقول الأديب العظيم مصطفى صادق الرافعى .. لم يخلق أحد مكروها، وإنما نبغض الناس من الصور التي يحدونها ..

و «الصورة» التي أحدثها زوج ابنتك كفيلة بأن تفقده احترامك له وترحيبك به لفترة طويلة قبل أن تكون على استعداد للتعامل معه مرة أخرى .. فلا تواجهه بشيء إشفاقا على نفسك أنت من مثل هذا الحديث الجارح، وتأكد أنه قد فهم أو سيفهم بمرور الأيام السبب الحقيقى لموقفك منه، فإذا أراد أن يكفر عنه فليخلص لزوجته ويحسن معاملتها ويصبر عليك وعلى زوجتك إلى أن تصبحا على استعداد للتجاوز عن خطيئته .

ولن تهدأ مخاوفك من ناحية ابتك الصغرى فى النهاية إلا حين
تتزوج وتدخل فى عصمة رجل آخر يصبح مسئولا عن حمايتها .. لهذا
فلا مجال للحديث الآن عن إعادة المياه إلى مجاريها بينكم وبين هذا
الشاب .. ولا مفر من تحمل العتاب الصامت من ابتكم الكبرى
والصبر عليه وعلى تباعد زياراتها إلى أن تتغير الأحوال .. والله الأمر من
قبل ومن بعد !

* * *

الحجر الثقيل

لا أعرف لماذا أكتب إليك رسالتى هذه ولا ماذا أريد منها؟!.. فلست أريد من ورائها شيئا سوى أن «أبوح» لك بما لا أستطيع أن أتحدث به إلى أقرب الناس إلى.. وأن أزيح عن صدرى وضميرى ثقله وعناءه، فأنا سيّدة شابة فى العشرينيات من العمر، ومن محافظة هادئة، وقد تزوجت منذ فترة من شاب وسيم متدين وعلى خلق ومن أسرة كريمة معروفة فى بلدتنا، وكان أهم ما جذبنى إلى هذا الشاب هو طيبة قلبه وابتسامته الدائمة، إذ كان يوم زواجى منه هو أسعد أيام حياتى.. وعشت معه حياة جميلة لم يكن ينفصها سوى شيء واحد هو الفارق الاجتماعى الكبير بين أسرته

وأسرتى. إذ بالرغم من أنه لم يشعرنى لحظة بهذا الفارق ولا فعل ذلك أحد من أسرته الذين عاملونى جميعا بحب واحترام، فإننى كنت أشعر به فى أعماقى يا سيدى وطوال الوقت بلا مبرر واضح، وأقارن دائما بين

أسرته الكبيرة المعروفة في بلدتنا والمحبوبة والثرية ليس فقط بهالها بل أيضا بشخصياتها من التجار الكبار ذوى الشهادات والوظائف الكبيرة، وبين أسرته العادية البسيطة الخالية من مثل هذه النجوم اللامعة.. ومثل هذه المكانة الاجتماعية المحترمة .

ومع ذلك فقد مضت حياتنا هادئة في مجموعها ورزقنا بأول مولود لنا بعد عام من زواجنا وسعدنا به كثيرا لكن الإحساس الملح بتميز أسرة زوجي راح يعاودنى من حين إلى آخر ، فأكتئب وأتعرض لأزمات نفسية عابرة كان زوجي يقف معى فيها بصبر ويتكتمها عن أهله . ومع ذلك فكلما نشب بيننا خلاف عادى مما ينشب بين زوجين، كنت أطلبه بالطلاق وأتمسك به فیرفض متعجبا من الطلب، لأن بيننا طفلا، ولأن سبب الخلاف لا يستدعى هدم أسرتنا .

وكانت شخصية زوجي تتسم ببعض العصبية الزائدة التى سرعان ما تزول ويعود إليه هدوؤه وطيبة قلبه، فوجدت نفسى أبالغ فى الشكوى من هذه العصبية وفى تصويرها فى أبشع صورة، ثم تكررت الخلافات الصغيرة والصدام العابر وبدلا من احتوائها أو الصبر عليها بدأت أفكر فى أنه لا حل لحياتى معه إلا الطلاق، واختمرت الفكرة داخلى واستقرت وبدأت أمهد لها لدى أهلى بالشكوى المستمرة من زوجي ومن عصبيته.. فقبولت شكواى منه باستنكار شديد ومقاومة

من جانب أهلى الذين كانوا يحبونه ويحترمونه لمواقفه النبيلة معهم .

وخاب مسعاى معهم واستشعرت أنهم لا يحتفلون بشكواى ولا يهتمون بها فبدأت ألمح لهم بأنه إنسان غير سوى ويفعل أشياء مقززة... إلخ، فإذا بى أجد آذانا صاغية لديهم لأول مرة وأجد اهتماما بما أقول .. وأراحنى ذلك فواصلت عملية إقناعهم والتأثير على فكرتهم السابقة عن زوجى، واستمررت فى ذلك وزوجى لا يعلم عما أفعل شيئا إلى أن وقع خلاف عابر جديد بيننا، فأحسست بأنها فرصتى لتنفيذ ما أريد وهجرت بيت الزوجية وعدت إلى بيت أسرتى . ومن هناك بدأت أشن حربا شعواء على زوجى وأسرته مع كل من أعرفه أو ألتقى به، حتى بلغ بى الحال - وأعترف لك بذلك - أننى زرت أسرا لم أكن أزورها من قبل ولا تربطنى بها صلات وثيقة تبرر هذه الزيارات لا لشيء إلا لأن هذه الأسر مرتبطة بشكل أو بآخر بزوجى وأسرته ويحسنون الظن بهم.. فأنتهز الفرصة بعد قليل وأحول مجرى الحديث بعد دقائق إلى الشكوى من زوجى وأسرته وكيف أنهم فى حقيقتهم ليسوا كما يظهرون أمام الناس طيبين وعلى خلق وفى حالهم ومحبين للخير... إلخ، وأروى عنه وعنهم قصصا منفرة.. وأكررهما فى كل زيارة حتى بدأت أصدقها أنا نفسى من كثرة ما رددتها .

وزوجى لا يقابل كل ذلك بالإساءة إلى ولا برواية قصص مشابهة

حتى وجدت نفسي في حاجة لأن أبرز هجومي المستمر عليه وعلى أسرته فاضطرت لأن أتهمه لدى أهلي زورا بأنه يروى عني قصصا تسيء إلى كرامتي، وتمسك بي زوجي رغم كل ذلك حرصا على الطفل، إلى أن أتيت بأفعال لا يصح معها إلا الطلاق وعرضت نفسي لمواقف مخجلة للغاية فلم يملك إلا أن يطلقني، وشعرت حين فعل ذلك بارتياح عجيب وكأن حجرا كان يحثم على صدري ثم أزيح عنه بعد كفاح رهيب .

ومضت الشهور يا سيدي وأنا راضية عما فعلت لكنه لم تمض سوى فترة صغيرة، فإذا بإحساسي بالانتصار والزهو الذي تملكني بعد الطلاق يتراجع شيئا فشيئا حتى تبخر تماما قبل أن يكتمل عام واحد على طلاقي، وإذا بي أحس بإحساس غريب بالحزن الشديد على ما فعلت بزوجي وحياتي وطفلي، وإذا بي أشعر بتأنيب ضمير فظيع تجاه هذا الإنسان الذي سعيت بكل الطرق لتشويه صورته في نظر الجميع وتحطيم مستقبله، وبتأنيب ضمير أشد مرارة تجاه طفلي الذي حرمته من حياة هائلة وأب حنون.. ولست أكتب لك رسالتي هذه لأبحث عن حل لمشكلتي فأنا أعرف جيدا أنني قد دفعتها بيدي إلى الطريق المسدود، ولكنني أكتبها إليك لأزيح عن عقلي وقلبي وضميري حجرا ثقيلا وهما يكاد يقتلني ولا أستطيع البوح به لأحد حتى أقرب الناس

لى، إذ ماذا سيقولون عنى لو صارحتهم بما أشعر الآن بعد كل ما فعلت وما حكيت؟! وأريد أن أسألك فى النهاية يا سيدى.. ماذا أفعل لكى أريح ضميرى تجاه هذه الإنسان لكى أنعم براحة البال بعد كل ما حدث وما فعلت؟

ولكاتبه هذه الرسالة أقول:

سيظل هذا الحجر الثقيل معلقا برقبتك يجذبك معه بعنف إلى الهاوية السحيقة ويحرمك من راحة البال والضمير.. وقد يسلمك فى النهاية بعد مرارة الإحساس بالذنب إلى شبح الاكتئاب النفسى المرير.. إلى أن تفكى أسرك منه وتنزعى قيده عن رقبتك، ولن يتحقق لك ذلك إلا برفع هذا الظلم الذى حاق بزواجك ونال من كرامته وسمعته واعتباره لدى الآخرين عن طريق الاعتراف للجميع بزيف افتراءاتك عليه وبرائة ساحته من كل ما نسجت عنه من قصص مزرية بشخصه وكرامته!

هذا هو الطريق ولا طريق سواه يا سيدتى للتطهر من جرائمنا فى حق الآخرين والتكفير عنها، فالتطهر من أخطائنا فى مَنْ أخطأنا فى حقهم لا يتحقق لنا بمجرد الإقرار بها وبيننا وبين أنفسنا، وإنما نكفر عنها حين نرفع عنهم ما حاق بهم من ظلم بسبب افتراءاتنا عليهم، وحين نمتلك الشجاعة النفسية والأدبية التى تتيح لنا ألا نكتم شهادة الحق فى

شأنهم.. وألا نتقاعس عن نفى كل ما ادعيناه عليهم وأمام من أجهدنا أنفسنا من قبل لتشويه صورتهم لديهم، وحين نتقبل راضين تحمل تبعات العدول عن موقفنا الظالم لهم مهما تعرضنا بسبب ذلك للوم الآخرين أو حسابهم، فلكل خطأ ثمن لا بد أن نقبل بدفعه صاغرين إذا كنا نرغب حقا في إبراء ذمتنا من إثم الإساءة للآخرين وظلمهم، بل إن الأمانة تطالبنا بألا نتوانى أيضا عن الاعتراف بالخطأ لمن أخطأنا نحن في حقه وعن طلب صفحه وعفوه عنا، فإذا سخا علينا به أملنا بعد ذلك في عفو السماء عما فعلنا، وإذا حجب صفحه عنا أملنا في أن ننال بصدق الندم وكثرة الاستغفار عفو من تغلب رحمته غضبه سبحانه، فراحة الضمير والسلام النفسى جائزة كبرى لا ننالها بمجرد الأمنيات العاجزة أو الاعترافات السرية.. وهى جائزة تستحق ما نبذله في سبيلها من جهد وما نتحمله من أجلها من عناء .

ولست أدري أى روح شريرة تسلطت عليك ودفعتك إلى تدمير أسرتك وحرمان طفلك من أبيه ومن الحياة العائلية المستقرة على هذا النحو العجيب؟!.. كما أنى لا أصدق فى الحقيقة أن إحساسك بالفارق الاجتماعى بين أسرتك وأسرة زوجك يمكن أن يكون سببا مقبولا لسعيك بعد فترة قصيرة من الزواج لهدمه سريعا هكذا. فالفارق الاجتماعى بين الطرفين - وإن كان أحد العوامل المؤثرة بالفعل فى

نجاح الزواج - إلا أنه لا يحقق هذه النتيجة المزعجة على هذا النحو العاجل وبغير أسباب جادة تأتي غالباً من جانب الطرف الأرقى اجتماعياً، وليس من جانب الطرف الآخر، وأنت تقولين لنا إن زوجك لم يشعر بهذا الفارق لحظة منذ زواجهما ولا أسرته فعلت ذلك أيضاً، فكيف يكون إحساسك بهذا الفارق كافياً لدفعك لهدم هذا الزواج ؟

إن الفارق الاجتماعي قد لا يكون له تأثير خطير على الزواج إذا لم يشعر به طرفا العلاقة شعوراً مرضياً مغالياً فيه وينعكس على تصرفات أحدهما تجاه الآخر.. وهكذا فإنني أكاد أتصور أنك لم تقعى في «غرام» زوجك الشاب الوسيم لحظة واحدة منذ البداية، ولم يكن اختيارك له قائماً على أساس من الحب والعاطفة، وإنما على أساس اعتبارات أخرى.. وحين بدأت حياتك الزوجية معه انطويت تجاهه وتجاه أسرته على إحساس مرضى بالنقص والدونية وهو إحساس غير سوى لا يسمح للإنسان بأن يتعامل مع شريك حياته بطريقة طبيعية، وقد يدفعه أحيانا إلى أن يتسم سلوكه معه بالتحدي والعدوانية لتعويض النقص وإثبات الجدارة والكفاءة.

وقد يتسم هذا السلوك بالمغالاة في استشعار الإهانة أو الإساءة في أى تصرف عابر فيتصرف مع شريك حياته بحساسية زائدة.. ويتأهب نفسياً دائماً لدفع ما يتصوره انتقاصاً لقدره أو شأنه، فتتسم الآبار التي

يشرب منها الزوجان ويكثر سوء الفهم والتشاحن بينهما، فإذا أضفنا إلى ذلك عصبية زوجك الشاب وصغر سن كل منكما فهما لماذا تحطمت صخرة الزواج سريعا على هذا النحو، وربما فهما أيضا لماذا تفننت في محاولة هدم صورة زوجك الطيب وصورة أسرته في أعين الآخرين، كأنما كنت ترغبين بذلك في أن تقولى لنفسك وللآخرين أن المكانة الاجتماعية ليست دائما دليلا على رفعة الشأن ولا كرم الأخلاق فتشعرين بذلك ببعض الرضا لأن الهوة بينكما ليست كبيرة كما تتصورين، والحق أنها لم تكن كبيرة إلى هذا الحد، ولا كان هذا الفارق الاجتماعي مبررا كافيا لهدم أسرة صغيرة اختار طرفاها كل منهما الآخر بإرادته وأنجبا طفلا صغيرا ينبغى توفير الرعاية والأمان له.

لكنها صغائر النفوس ومغالاتها في الإحساس بالفوارق التى قد لا ترى أحيانا بالعين المجردة، وهى أيضا صراع الإرادات فى بداية الحياة الزوجية الذى لم يصادف عقلا راجحا لديك ولا صبرا كافيا لدى زوجك .. فكانت هذه النهاية المؤسفة. وفى ظنى أنك حتى وأنت تتمسكين بالطلاق وتطوفين بالأسر الصديقة لكى تشوهى صورة زوجك وأسرته، إنما كنت - رغم ما يتضمنه هذا السلوك من تعويض نفسى خفى لإحساسك بالنقص تجاه زوجك - غير راغبة فى قطع كل الخيوط نهائيا بينك وبين زوجك حتى ولو انتهى الأمر بطلاق مؤقت بينكما ، وأنت كنت ترغبين كما يفعل البعض أحيانا للأسف فى دفع

الأمور إلى حافة الهاوية، لكى يمكن إعادة «صياغة» الحياة الزوجية بعد فترة من الانفصال على أسس جديدة ترينها أكثر عدلا وأكثر تحقيقا لما يرضيك من زوجك . لكن لأن من يدفع صخرة بكل قوته في اتجاه المنحدر كثيرا ما يعجز في اللحظة الأخيرة عن إيقافها قبل أن تهوى إلى الهاوية السحيقة، فقد عجزت أنت أيضا عن إيقافها في الوقت المناسب فهوت من حالى وأصبح الأمل في إعادتها إلى القمة من جديد غاية في الصعوبة، ووجدنا الفرصة لكى نتأمل تصرفاتنا الماضية ونكتشف أخطاءنا ونقر بها.. إذن فلنأمل الآن فى شجاعتك الأدبية فى الاعتراف بالخطأ ورفع الظلم عن والد طفلك، ولنأمل فيما بعد فى تأثير الزمن.. وفى قدرته الساحرة على شفاء النفوس ونسيان الآلام والتقريب بين المتباعدين !





الاتفاق الصامت

فكرت منذ فترة طويلة في الكتابة إليك، إلى أن وقعت في
يدي بالمصادفة رسالة قديمة نشرت في هذا الباب بعنوان:
«الفراش الخالي»، فتأثرت بقراءتها كثيرا وبكيت بكاء حارا
وتعجبت من أن تكرر الحياة قصتي مرة أخرى مع غيري
من البشر . فأنا أيضا يا سيدي الفتاة التي تحملت وزر أبيها
في نظر أمها ودفعت من أجل ذلك ثمنا باهظا من سعادتها.
فقد نشأت في بيت آيل للسقوط ليس من الناحية المعمارية،
وإنما من الناحية الأسرية والإنسانية.. ووجدت نفسي أحيا
بين أبوين متعلمين ويشغلان وظائف مرموقة، ويتبادلان
البغض والكراهية بدلا من المودة والرحمة، وكانت أُمِّي

تعطف على شقيقى الأكبر وتخصه بحبها وتدليلها، وكان أبى يعطف
على ويدللنى ولا يرفض لى طلبا، فما إن يخرج من البيت حتى تنفجر
أُمِّي وتنفس فيّ أنا كل مشاعرها العدائية تجاه أبى وتسبنى وتنعتنى
بالكذب والتمثيل مثل عمتى ! وتهددنى بالويل والثبور إذا شكوت

لأبى أو أبلغته بشيء مما تقوله لى، وحين بلغت السادسة من عمرى كنا قد أصبحنا أربعة أبناء، وانضمت إلى قائمة السعداء المفضلين عند أمى أخت تصغرنى وأخ آخر أصغر، بالإضافة إلى الأخ الأكبر المميز منذ البداية. أما أنا فبقيت المنبوذة والمكروهة من أمى بلا سبب واضح فى ذهنى كطفلة، سوى أن أبى يحبنى ويعطف علىّ ويدللنى وكأنه كان يستشعر نفور أمى منى ويحاول أن يعوضنى بحبه عنه .

ولم يمض وقت قليل حتى انهار البيت الآيل للسقوط منذ البداية، ووقع الطلاق ورحل أبى عن مسكننا وعن مدينتنا أيضا إلى مكان آخر غير معلوم بالنسبة لى، وبرحيله أدركت فيما بعد أنه قد رحلت معه آخر حقوقى كابنة لم تبلغ العاشرة بعد من عمرها، فلقد راحت أمى تخصنى وحدى دون كل إخوتى بالشاق والمضنى من أعمال البيت، وأصبح من حق أخى الأكبر أن يجعلنى فى خدمته فى أى وقت من الليل أو النهار وسواء أكنت نائمة أم مستيقظة، وإذا اعترضت على ذلك أو تشكيت انهال علىّ ضربا وركلا وسبا وأمى تنظر إلينا فى هدوء دون أن تردعه أو تحمىنى منه . وإذا مرضت فلا عطف ولا حنان من جانب أمى وشقيقى.. بل ولا بأس أيضا بالتهكم علىّ واتهامى بادعاء المرض لأننى قد ورثت الكذب والتمثيل من عمتى. أما بين صديقاتى فلا تنادىنى أمامهن إلا بيا بنت «...».

وأذكر أنني قد مرضت ذات يوم بالتهاب شديد في اللوزتين وارتفعت حرارتي وتورم جانب من وجهي، ومع ذلك فقد طلب مني شقيقي أن أغسل له حذاءه الرياضي فرفضت وقلت إنني مريضة، فانهال عليّ ضرباً بالخرطوم وأنا أبكي وأتوجع وأستعطفه بلا فائدة حتى تحاملت على نفسي وغسلت حذاءه الرياضي، وأمي جالسة تتفرج ولا تتدخل ولا تتكلم .

وجاءت إحدى الجارات لزيارتنا وأنا مازلت أبكي فسألت أمي عما يبكي، فأجابتها ساخرة كالعادة : لا شيء سوى أنها مدمنة كذب وتمثيل كعمتها ! فلم أتمالك نفسي ووجدتني أنفجر في أمي بعد طول صبر وأمسك بكفها وأضعها على وجهي لتجس حرارتي وأقول لها : نعم أنا كاذبة وممثلة كعمتي . لكن كيف يرفع التمثيل حرارتي ويورم وجهي هكذا ! ثم غبت عن الوعي، لا أدري هل من شدة الانفعال .. أم من شدة الحمى والضعف ؟ وكان آخر ما سمعت قبل أن أفقد الوعي هو صوت جارتنا وهي تقول لأمي بصوت باك : حرام عليك إنها ابنتك .. ما ذنبها؟! إلخ .

ولم تجد أمي مفراً من اصطحابي إلى مستشفى عام لعلاجي، وليس إلى طبيب خاص في عيادة كما تفعل مع إخوتي، ومع ذلك فلم يحدث مرة أن أعطني الدواء الذي وصفه لي طبيب المستشفى، وإنما كنت أنا

ابنة العاشرة من عمرى التى أتناولها فى مواعيده بانتظام لأنى إن لم أفعل فلن يهتم بأمرى أحد، ومع استمرارى فى نفس الوقت فى أعمال السخرة المنزلية لأن أختى الصغرى رفضت أن تقوم بنصيبى فى أعمال البيت خلال فترة مرضى .

ومضت بنا الأيام واستقر وضعى على هذا النحو فنشأ أختى وأخى الصغيران على معاملتى أيضا كخادمة للأسرة، ولا غرابة فى ذلك فأنا الوحيدة من بينهم التى تقوم بمعظم الأعمال المنزلية ولا يحق لها شراء أية ملابس جديدة، وإنما ترتدى ملابس أمها المستهلكة أو ملابس ابنة خالتها القديمة حتى أصبح مظهرى كمظهر شغالة صغيرة بين ثلاثة أبناء أصحاء مدللين ويرتدون الحديد والغالى من الثياب !

أما أبى فلم يظهر فى حياتنا مرة أخرى إلا بعد سنوات وحين بلغت الرابعة عشرة من عمرى، وقد تألم كثيرا لمظهرى وحالتى الصحية وسألنى : لماذا لا تهتمين بنفسك كما تفعل الفتيات فى مثل سنك ؟ واحتضننى بحنان فشعرت بإنسانيتى وبكى حتى ارتويت، وحدثنى برفق عن التغيرات الفسيولوجية التى تحدث للفتاة فى مثل عمرى، والتى لم تحدثنى عنها أمى، ولا اهتمت بذلك فتركتنى فريسة للخوف والقلق بسببها.. وحدثنى عن ضرورة اهتمام الفتاة فى مثل عمرى بمظهرها وبما يتلاءم مع سنها.. ونفذت نصائح أبى الغالية فى سرية وفى

حدود المتاح لى حتى لا أتعرض لسخرية أمى التى لا تنفك أن تقول لى أمام الجميع إن الله قد حرمنى من كل الصفات الجميلة فى الشكل والجوهر ووهبها لأختى الصغرى . ومع أن كل زميلاتى كن يشهدن لى بأنى أجمل منها، ولم يظهر أبى بعد ذلك فى حياتنا سوى ٤ أو ٥ مرات، كنت أتعرض بعد كل مرة منها لسخط أشد وسوء معاملة أفضع من أمى بلا سبب واضح، وقد استقر بينى وبينها اتفاق صامت غير مكتوب هو أننى وحدى من بين إخوتى ليس من حقى أن أطلب لنفسى شيئا، وإذا مرضت فلا ينبغى أن أزعج أحدا بمرضى وتأوهاتى، وإذا نوديت لأداء أى عمل لأحد من إخوتى فعلى أن أترك ما بيدى من دراسة أو مذاكرة وأهب لتلبية النداء مهما كان نوعه بما فيه مسح حذاء أخى الأكبر ووضعه تحت قدميه .

وقد علمتنى الحياة يا سيدى أن أتعامل مع واقعى بصبر وكتمان للمشاعر، بل وادعاء عكسها أيضا عند الضرورة حتى أتجنب المزيد من المتاعب، فلا أفصح عن مشاعرى الحقيقية إلا حين يرجع أبى من سفره لزيارتنا لأيام قليلة وقد حصلت على الثانوية العامة بمجموع كبير رغم كل شىء... وكالعادة اختارت لى أمى بالاشتراك مع شقيقى الأكبر الكلية التى ألتحق بها دون أى تشاور معى ولا عجب فى ذلك لأنه ليس لى الحق فى إبداء رأى فى أى شىء، وكانت إحدى الكليات القليلة المتاحة فى مدينتنا توفيراً للنفقات .

أما أختي الصغرى فقد حصلت على الثانوية العامة بعدى بعام واختارت بنفسها دراستها الجامعية، فكان التحاقها بالجامعة رحمة من السماء لى، لأنه قد أتاح لى أن أرتدى من ورائها بعض الملابس اللائقة، وظل أملى يتركز فى أن أخرج فى كليتى وأن أذهب لأبى لأرتقى فى أحضانه وأقبل يديه وأبلغه بنجاحى وأطلب منه ضمى إليه، ليس لأنه أب عظيم وإنما لأنه أبى ويحبنى.. ويشعرنى وهو الأهم بحبه لى، لكن القدر لم يحقق لى هذه الأمنية الغالية للأسف، وتوفى أبى - رحمه الله - وأنا مازلت طالبة بالجامعة ودون أن أخبره بالسبب الحقيقى لامتناعى عن مراسلته فى البلد الذى كان يعيش فيه، وهو أننى خشيت أن أطلب عنوانه من أمى فأجدد لديها ذكرى «جريمتى» عندها، وهو أنه يحبنى فيزداد العقاب ويتضاعف سوء المعاملة.

ولقد عوقبت على أية حال من أمى وأخى الأكبر لأنى بكيت أبى عند وفاته، وفشلت فى إقناعهما بأن الابن لا يحتاج إلى «سبب معين» لكى يحزن على رحيل أبيه عن الحياة إذ يكفى أنه أبوه، ولولا أننى كنت قد تعلمت أن أجم لسانى اتقاء للأذى لذكرت أمى بما فعلت بى طوال السنوات الماضية وسألتها: هل يدعونى ذلك إلى ألا أحزن عليك إذا رحلت عن الحياة بعد عمر طويل؟ لكنى كما قلت لك كنت قد «تدربت» على اتقاء الأذى فلم أصارحها بما فى خاطرى، بل

واضطرت أيضا أن أدعى أمامها أنني ما بكيت على أبى إلا من تأثير المفاجأة !

وتعددت بعد ذلك على ألا أبكيه إلا وحدى، ومع ذلك فلقد فرح أخى الأكبر بميراثه عن أبيه وكذلك فرحت أمى.. وكعادة أخى الأكبر فى الاستهتار، فقد أنفق نصيبه فى لا شىء، وعندما أراد أن يبدأ عملا خاصا به بعد التخرج كان حتما على أن أتنازل له «راضية» عما يخصنى فى الميراث وإلا تنازلت له عنه راغمة ومع مزيد من المشاكل، فآثرت أن أتظاهر بتصدق حكاية القرض الحسن هذه وأنه سوف يرده لى عند زواجى، وفعلت ذلك حتى أستطيع أن أنهى دراستى الجامعية بلا مشاكل وما إن أنهيتها حتى توفيت أمى هى الأخرى، ولن تصدقنى إذا قلت لك إننى قد حزنت عليها أيضا وبنفس القدر الذى تألمت به لما أصابنى منها غفر الله لها .

وبعد وفاتها استسهل شقيقى الحصول على نصيب أختى الصغرى وأخى الأصغر فى ميراثهما مع نفس الوعود التى حصلت عليها أنا من قبل، ثم انصرف عنا كلية لحياته الخاصة وزوجته وتركنا واثنان منا مازالا لم يستكملا تعليمهما الجامعى، وقررت أن أتحمل المسئولية عنهما ربما لأثبت لأمى وإخوتى إننى ما كنت أستحق منهم هذه المعاملة غير العادلة وعملت بالتدريس وتحملت مسئولية أعمال البيت وإدارته،

فكنت أقوم بها في الصباح الباكر وأذهب إلى مدرستي وبعد إنهاء عملي فيها أمارس إعطاء الدروس الخصوصية حتى المساء، وكل قرش أكسبه يدخل آليا في ميزانية البيت إلى جانب معاشنا من أينا وأما .

ومضت أربع سنوات على هذا الحال، إلى أن وقع حادثان صغيران كان لهما أكبر الأثر في نفسي ، الأول هو أن شقيقتي الصغرى قد منعتني من ارتداء حذاء لها بحجة أن ذلك ليس من حقي ! فتنبهت في هذه اللحظة أنني أنفق كل ما أكسبه على الأسرة ولا يبقى لي من دخلي ما يسمح لي بشراء شيء ، والثاني أن أختي هذه قد أمرتني ذات مرة بأن أؤدي شيئا من أعمال المنزل فرفضت بسبب صيغة الأمر التي حدثتني بها أمام أطفال الجيران، فما إن رجع شقيقي الأصغر حتى انحاز لها كالعادة وطلب مني الانصياع لما طلبت، ولما رفضت انهار على بالضرب المبرح حتى تدخل الجيران لإبعاده عني . فتركت هذه المعركة آثارا غائرة في نفسي ، ووجدتني أصرخ فيه : ألا تذكر لي يوما واحدا سهرت فيه بجوارك وأنت تذاكر دروسك أو يوما فرحت فيه بنجاحك؟! .. ألا تذكر لي يوما حرمت نفسي من شيء أريده لأعطيك وأوفر لك احتياجاتك؟!!

وأقسمت لنفسي وللجميع أنه لا بد سوف يجيء يوم أهجر فيه هذا البيت وأستقل بحياتي عنهما وأشعر بإنسانيتي وكياني ولجأت إلى

أقاربى شاكية، وأكدت لهم أن صبرى قد نفذ ولم يعد فى طاقتى مزيد.
وفى هذه الأثناء اختارنى رؤسائى فى العمل لأمثل محافظتى فى دورة
تدريبية بإحدى المحافظات الساحلية تختار لها العناصر المتميزة فى اللغة،
وقبلت هذه الدورة هرباً من بيتى وحالتى النفسية السيئة بعد ضرب
أخى الأصغر لى وأبلغت بها إحدى قريباتى وأكدت لها أننى سأسافر
إليها سواء وافق إخوتى أم اعترضوا.. ووافقوا ربها لإزالة أثر المعركة
الآخيرة عن نفسى .

وسافرت وأنا يساورنى إحساس غريب بأن هذا السفر سيكون
بداية لمرحلة جديدة فى حياتى أشعر فيها بحقوقى كإنسانة ولا يمتهن
فيها أحد كرامتى .. ورافقنى هذا الإحساس الغريب طوال رحلتى إلى
المدينة الساحلية وخرجت من المحطة ووقفت أنتظر سيارة أجرة
لأذهب إلى العنوان الذى سيقم فيه المشاركون بالدورة، وجاءت سيارة
وقبل أن أركبها سبقنى إليها راكب، لكن سائق السيارة لم يتحرك بها
رغم ذلك وإنما سألنى عن وجهتى وطلب منى الركوب معه ليوصلنى
بعد توصيل الراكب الأول، ونزل الراكب فى مقصده، وبدأ سائق
السيارة بحثه عن العنوان الذى أحمله، فطال سيره فى شوارع المدينة دون
أن نصل إلى بغيتنا . وأخيراً قال إنه يشك فى وجود خطأ ما فى العنوان
الذى أحمله وأنه سوف ينزل ليتصل بصديق له ويتحرى منه العنوان

الصحيح، واتصل بالصديق بالفعل ورجع إلى مبتهجها، وتوجه إلى العنوان المطلوب، وساعدنى فى إنزال الحقيبة وفوجئت به يرفض أن يتقاضى منى أى أجر ويطالبنى بأن أعتبره أخا لى فى هذه المدينة يسعده أن يؤدى لى أية خدمة ولم أستطع إلا أن أشكره، بل ووجدت نفسى أيضا لا أعترض حين أبلغنى أنه سيجىء لى فى الصباح ليحملنى بسيارته إلى مقر الدورة لأنى لن أجد طريقى إليه بسهولة .

وفى الصباح جاء.. وبدأت الدورة وخرجت منها عند الظهر فوجدته فى انتظارى، وتكرر ذلك يومين آخرين، وفى اليوم الثالث صارحنى برغبته فى أن يتزوجنى، ووجدتنى أوافق بلا تردد وأنا أشعر أن الله قد أراد لى المجدىء إلى هذه المدينة فى هذا الوقت بالذات لكى أجده وأجد لديه تعويض السماء لى عن كل معاناتى الأسرية السابقة، وكنت خلال ذلك قد عرفت أنه شاب طيب ومهذب ويحمل مؤهلا متوسطا، وقد فضل العمل على سيارة الأجرة لأنه يدر عليه دخلا أفضل من أية وظيفة . وانتهت الدورة وحانت ساعة الرحيل فافترقنا عند المحطة ودموع كل منا تسيل على وجهه، ورجعت إلى مدينتى وأعلنت للجميع أننى أنتظر هذا الشاب الذى سيتقدم لخطبتى وأننى سأتزوج به وافق على ذلك إخوتى أو رفضوا، مع تحملى لمسئوليتى الكاملة عن اختيارى، فاعترض إخوتى على الفور وفرض أخى على

ضروبا مشددة من الرقابة، لكنى صارحت الكل بأنه بعد وفاة أبى وأمى لن يغضب الله على لاختلافي مع إخوتى حول من أتزوجه وأنا فى الثامنة والعشرين من عمري ومسئولة عن نفسى ولجأت إلى أقاربى مرة أخرى وتدخلوا بينى وبينهم، فوافقوا مضطرين مع تحميلى مسئولية هذا الزواج وتخليهم عن مساعدتى فيه .

وكان أخى الأكبر خارج مصر ولم يكن لدى أمل كبير فى مساعدتهم لى فى زواجى من البداية فلم آبه كثيرا بتخليهم عن مساعدتى، ومضيت فى طريقى فتمت الخطبة وعقد القران وتحمل خطيبى كل وسائل التطفيش التى مارسها معه إخوتى بصبر وفهم وتسامح.. حتى إهانة أختى الصغرى لى وله تحملها وتحملتها لثقتى فى صحة اختيارى. وساعدنا والد خطيبى فوفر لنا شقة صغيرة وبدأنا الاستعداد للزواج وأثناها بأثاث بسيط؛ لكنه فى نظرى أفخم من أثاث القصور .

وتزوجنا فى حفل بسيط وفرح من أجلى جيرانى وصديقاتى فرحا شديدا كان يستدر دمعى وأنا أرى فرحتهم الصادقة فى وجوههم من أجلى.. أكرمهم الله جميعا وأسعدهم بحياتهم. وبدأت حياتى الزوجية فعرفت لأول مرة فى حياتى معنى السكن والمودة والرحمة، وعرفت أيضا معنى الأسرة.

وانتقلت خلال عام واحد فقط من الجحيم الذى عشت فيه معظم

حياتى إلى جنة العطف والمودة ووجدت زوجى لا يبخل على ولا على
إخوتى بشىء، ويعاملنى معاملة الأب الحنون لابنته . وتمضى أيامنا فى
هدوء وسعادة ونحسب الأيام الباقية الآن على وصول أول مولود لنا .
ولقد رويت لك قصتى لتقرأها كاتبة رسالة «الفراش الخالى» وتضم
ابنتها إلى صدرها وتشعرها بحبها لها وتنقذ علاقتها بإخوتها قبل أن
تفسد نهائيا فتحميها من معاناة الجحيم الذى عانته بين إخوتى وأمى
غفر الله لها، فلا ذنب للابنة فى حب أبيها وتفضيله لها، ولا ذنب لها فى
عدم وفاقه مع أمها وانفصاله عنها لكى تحملها بالتبعية عبء هذه
المشاعر الكريهة تجاه الأب ممثلا فى ابنته المفضلة لديه . وكتبتها لك أيضا
لكى تكتب لكل أب وكل أم أن يرعوا الله فى أبنائهم وفى حقوقهم
عليهم وألا يحملوهم مسئولية اختيارهم لشركاء حياتهم وتعاستهم
معهم . أسأل الله العلى القدير السعادة والصحة والحياة الهادئة للجميع
وأولهم زوجى الحبيب . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أسوأ ما يفعله بعض الآباء والأمهات بأبنائهم هو أن يحرموهم من
حقهم الإنسانى العادل فى أن تكون لهم طفولة سعيدة !.. فكل الآباء
والأمهات يستطيعون إذا كانوا حقاً من أصحاب الضمائر والقلوب
الحكيمة، أن يهبوا أبنائهم طفولة سعيدة، مهما كانت درجة تعاسة أو

شقاء هؤلاء الآباء والأمهات في حياتهم الزوجية، ومهما كانت إمكانياتهم المادية وظروفهم الاجتماعية، فحتى في أسوأ الظروف يستطيع الآباء والأمهات أن يقدموا لأبنائهم الحب والرعاية والعطف والحماية النفسية، وأن يعينوهم على الاستمتاع بطفولتهم وبراءة مشاعرهم واكتمال نموهم النفسى بغير أن تفسد عليهم طفولتهم مخاوف الهجر أو النبذ أو الإحساس الداخلى بالذنب عن وجودهم بين أبوين غير متوافقين .

بل إنه حتى الآباء والأمهات الذين تضطربهم الظروف القاهرة للفشل كأزواج وزوجات، يستطيعون أن يكونوا آباء وأمهات ناجحين إلى حد كبير لأبنائهم سواء اجتمعوا تحت سقف واحد أو تفرقت بهم السبل، إذا التزموا برعاية أبنائهم وأداء حقوقهم عليه، وجنبوهم مرارة الاختيار العاطفى بينهم وبين شركائهم السابقين، وأعفوهم من إشعارهم بتعاستهم الشخصية، وتعففوا عن استخدام هؤلاء الأطفال كسلاح للانتقام الدنىء من البعض الآخر !

والنبذ العاطفى من جانب أحد الأبوين هو أفظع ما يتعرض له بعض الأبناء إذ يتلقى به وجدان الطفل رسالة مؤلمة ترجمتها على النحو التالى :

- لا تزعجنى بوجودك فى الحياة !

وقد ينقل بعض الآباء والأمهات هذه الرسالة اللاإنسانية لبعض
أبنائهم في بعض الأحيان، إما لأن الأب أو الأم مشغولان بذاتهما عن
كل شيء آخر في الوجود، وإما - كما في قصتك يا سيدتى - لأن الأم
ترى في هذا الطفل المنبوذ الرمز الذى تستطيع أن تفرغ فيه لاشعوريا
كراهيتها المريرة للأب المسئول في نظرها عن تعاستها، ولا يرشح الابن
البريء لأن يكون هذا المتنفس غير المنطقي سوى أن الأب كان يحبه
ويميزه عن غيره من الأبناء !

والنفس البشرية مازالت غابة لم نكتشف من أحراشها ومجاهلها إلا
أقل القليل، ومن هذه الأسرار التى تستعصى على الفهم أن تكره أم أو
أب أحد الأبناء لارتباطه عاطفيا بالطرف الآخر الذى يتحامل عليه
ويكرهه، مع أنه ابن للطرفين معا، ولم ينفرد أحدهما بإنجابه.

ولأننا نرفض دائما الاعتراف بهذه الحقيقة التى تفرز عنا، فإننا نستتر
لاشعوريا على دوافعنا النفسية لنبد هذا الابن أو الابنة بالتماس
الأسباب والمبررات لذلك من سلوكيات الطفل البريء نفسه وليس من
عمى بصيرتنا وقلوبنا وسوء طويتنا وافتقادنا للرحمة والعدل والمنطق في
معاملة أبنائنا، ونستريح نفسيا لتبرير نبذنا العاطفى لأحد هؤلاء الأبناء
واضطهادنا له وتفرقتنا بينه وبين إخوته، باتهامنا له باعتياد الكذب
والادعاء واللؤم وارتكاب التصرفات الشريرة... إلخ، بغير أن

نعى فى نفس الوقت أننا حين ننبذ طفلاً ونميز إخوته عليه إنما نحكم عليه بالاضطراب النفسى والاحتشاد الدائم للدفاع عن نفسه وتبرير أخطائه فيلجأ إلى الحيل الدفاعية النفسية اتقاء لأذى أبيه أو أمه فيكثر من الكذب والإنكار، وادعاء الضعف والمرض لاستجداء العطف والاهتمام .

وقد يصل به الأمر فى بعض الأحيان إلى حد السرقة الصغيرة لجذب الاهتمام إليه وإشعار الأبوين أو أحدهما بوجوده فى الحياة، وبحقه فى العطف والتدليل والرعاية كغيره من الأطفال. وهكذا ندور معه فى حلقة مفرغة صنعناها بأيدينا وشكونا منها، فنعفى أنفسنا من الإحساس بالذنب تجاهه لتمييزنا لإخوته عليه.. لأنه «يستحق» ذلك بالفعل بدليل اختلاف سلوكه عن سلوك باقى إخوته، ويواصل هو ارتكاب الأخطاء دفاعاً عن نفسه أو اتقاء للأذى أو تعبيراً عن رغبته الخفية فى الانتقام.. هكذا بلا نهاية .

أما مسئوليتنا نحن عن دفعه لارتكاب هذه الأخطاء فنحن نتناساها ويزعجنا أن يذكرنا بها أحد.. مع أن الروائى الأمريكى جون شتاينبك يقول لنا: «إن الفرع الأكبر الذى يخيف أى طفل هو أن يشعر بأنه غير محبوب، فإذا أحس بذلك تفجر الغضب المكتوم بداخله، وعبر عنه بارتكاب الأخطاء التى قد تصل أحياناً إلى حد الجريمة الصغيرة كنوع

من الانتقام».. وهو حين يفعل ذلك فإنه يستهدف به الانتقام
اللاشعورى ممن نبذوه وحرموه من حقه الطبيعى فى الحب والرعاية
والمعاملة الإنسانية العادلة، والشعور بعزة الانتماء لأبوين يحبانه ويهتمان
بأمره، وننحى نحن باللائمة عليه، مع أننا نحن الذين قتلنا فيه براءة
المشاعر وحاسبناه على ما اضطررناه إليه ، وكرهنا فيه من كرهناهم من
شركاء الحياة وأهدرنا حقوقه ولم نرع حدود الله فى معاملتنا له والمساواة
بينه وبين إخوته .

لقد كان من أقدارك يا سيدتى أنت هذا الرمز الذى كرهت فيه
والدتك أباك غفر الله لها، وكان الاتفاق الصامت بينك وبينها هو
الترجمة الفعلية لهذا النبذ العاطفى الذى نفست به عن أحقادها على
أيك فيك بلا ذنب لك .

ومع تقديرى لقسوة ظروفك العائلية ووطأة ما تعرضت له من قهر
نفسى وإحساس مرير بالنبذ والدونية وعدم الجدارة بين إخوتك حتى
اعتادوا جميعا معاملتك كتابع وليس كأخت لهم، لها كامل الحقوق
الأخوية عليهم، إلا أنى لم أفهم رغم ذلك كيف استسلمت أنت لهذه
التفرقة العنصرية فى بيتك وأسرتك بلا أدنى مقاومة من جانبك.. ولا
محاولة لانتزاع حقك فى المساواة مع إخوتك فى كل الحقوق والواجبات
دون معارك وصدامات عائلية !؟

نعم.. إننى أسلم بأنك كنت الطائر الضعيف مهيض الجناح
ومقهور الإرادة بين إخوة يستشعرون عزة مساندة أمهم وتفضيلها لهم
عليك، واعتادوا ممارسة إحساس «السيادة» والقيادة عليك بلا مبرر
مفهوم، وبعضهم أصغر منك سناً، نعم.. أسلم بكل ذلك، بل وألتمس
لك بعض العذر فى اضطرارك إلى اتباع أسلوب «التقيّة» وكتمان
مشاعرك الحقيقية والتظاهر بغيرها دفعا للأذى . لكن الإنسان مطالب
أيضاً يا سيدتى بأن يدافع عن حقه العادل فى الحياة، وأن يرفض القهر
بغير أن يعنى ذلك تنكره لأبويه أو إخوته، فإذا حرّمه الآخرون من
حقوقه فمن واجبه الدينى والأخلاقى والإنسانى أن يطالب بأدب بهذه
الحقوق، وأن يتمسك بها ويدافع عنها بغير إساءة .

* * *



مخالب الحداة

أنا سيدة شابة عمرى ٢٩ سنة متزوجة من رجل محترم وطيب القلب، ورسالتى هذه ليست عنى ولكن عن أمى العزيزة التى شهدت حياتها بعض الغرائب التى لم أر لها مثيلا فى حياة أخرى حتى الآن. فلقد تزوجت أمى وهى فتاة صغيرة السن لا يتجاوز عمرها ١٦ عاما وطالبة بالسنة الأولى بإحدى الكليات من أبى وكان رجلا ميسور الحال لكنه أذاقها المر غفر الله له ، وتزوج عليها بعد ٤ سنوات فقط من أخرى وأنجب منها طفلا. وكانت زوجته الأخرى هذه تكره أمى كراهية لا يمكن وصفها ولا أعرف لها تفسيراً مع أنها هى التى اعتدت على أمى وتزوجت زوجها وليس العكس، وبعد عشر سنوات من المعاناة توفى أبى وأمى عمرها ٢٦ عاما وأنا طفلة عمرها ٩ سنوات ، واستولت الزوجة الجديدة على كل مجوهرات أبى وورث ابنها معظم تركته، ومع ذلك فقد أذاقت أمى الأمرين فى مشاكل الميراث وغيرها من المشاكل .

وواصلت حياتى مع أمى فى شقة بالعمارة التى يملكها أبى . وتقدم
لأمى خطاب كثيرون فرفضتهم جميعا، وعشنا معا وحيدتين . ثم عدت
من مدرستى ذات يوم فوجدت أمى مغمى عليها أمام باب شقتنا
وحولها رجال كثيرون يقف وسطهم رجل مهيب الشكل، وتبين أن
مالك العمارة السابق كان قد باع بغير علم أبى ثلاث شقق من العمارة
قبل بيعها له لبعض الأشخاص، وأن الرجل المهيب الواقف بين هؤلاء
الرجال هو مشترى الشقة التى نقيم فيها، وقد أقام دعوى قضائية
لطردها منها ونال حكما قضائيا بذلك وجاء ذلك اليوم للتنفيذ .

واضطررنا لإخلاء الشقة التى نقيم بها والانتقال إلى مسكن آخر ..
ولم يكتف الرجل المهيب بما فعل .. وإنما طارد أمى بعد ذلك أيضا حتى
وقعت فى حبه وقبلت الزواج منه، وتزوجته أمى بالفعل بعد أن وعدها
بتعويضها عما فات من عمرها فى معاناة وآلام، وعشنا معه أنا وأمى فى
بيت واحد وكان لا يقيم معنا سوى ثلاثة أيام فقط كل أسبوع، ويقضى
بقية الأسبوع مع أسرته وإخوته .

وبعد ثلاث سنوات من الزواج الهادئ لاحظت أمى على زوجها
تغيرا مفاجئا فى معاملته لها، وهلعت حين اكتشفت أنه على علاقة مع
سيدة أخرى، فهل تعرف من كانت هذه السيدة ؟

إنها زوجة أبى الأخرى التى خطفته من أمى وتزوجته بعد ٤ سنوات فقط من زواجها منه، ولست أعرف حتى الآن كيف ولا فى أى ظروف تعرف بها زوج أمى وأنشأ معها هذه العلاقة، كأنها تواصل بها انتقامها المرير من أمى بلا سبب مفهوم. وصدمت أمى فى زوجها الثانى صدمة هائلة وتوسلت إليه بكل الوسائل أن يبتعد عن هذه السيدة، فإذا به يرفض بإصرار الابتعاد عنها، ويبرر ذلك بأن أمى لم تغدق عليه من مالها كما كان يتوقع، فى حين أن «الأخرى» تلبى له كل مطالبه وبكرم بالغ !

ولم تفلح محاولات أمى المستميتة مع زوجها لكى يبتعد عنها، وسلمت بالهزيمة مرة أخرى أمام هذه السيدة التى لا أعرف لماذا لا تريد أن تدعنا فى حالنا؟! .. ولا لماذا تصمم دائما على مطاردة أمى ولا يحلو لها إلا «ما فى يدها» فقط . ولم تمض أيام على طلاق أمى حتى تزوج زوجها الثانى من ضرثها الأولى! ومرضت أمى مرضا طويلا وتعقدت من الحياة والرجال والزواج بكل عقد الدنيا أجمع .. وعشنا أنا وأمى وحيدتين وأمى مازالت شابة فى عز شبابها وجمالها، وراحت ترفض كل عروض الزواج وترد الخاطبين عنها حتى أنهيت دراستى الثانوية والتحقّت بكليتى .

وبدأ شبان كثيرون يطلبون يدى فاخترت زوجى وهو رجل صالح

وعادل ومتفوق في مجاله، ورغم المشاكل التي واجهتنا في البداية من جانب أهله فقد استطعنا والحمد لله التغلب عليها ورزقنا بطفلين جميلين يملآن علينا حياتنا اهادئة السعيدة..

لكن المشكلة يا سيدى فى أمى .. فهى تعيش وحيدة تماما فى شقتها الكبيرة وترفض أن تستقل للإقامة معنا رغم إلحاحى أنا وزوجى عليها معذرة عن ذلك بأنها لا تريد أن تكون عبئا علينا.. وأنا أرقبها وهى تعاني من الوحدة.. وأشفق عليها مما عانت فى حياتها.. وفى فجيعتها فى زوجها الأول والثانى وعلى يد نفس السيدة.. وأرثى لحاها ويتمزق قلبى ألما ها.. وهى سيدة جميلة ومتدينة وتعرف ربها ومازال عمرها ٤٧ عاما فقط .

ولقد قرأت فى بريدك الجميل رسالة لفتاة شابة وحيدة أمها مثل كانت تستعد للسفر إلى زوجها وتشفق على أمها من أن تتركها وراءها وحيدة بلا زوج ولا ابنة، وتتمنى عليك مساعدتها فى الارتباط برجل يملأ عليها حياتها.. فهل أستطيع أن أكرر عليك نفس الرجاء بالنسبة لأمى ؟.. إنها جميلة وطيبة وعطوف وفى حاجة إلى رجل يعوضها عما لاقته من ظلم الرجال فى حياتها . «ولا ينظر» إلى ما تملك أو ما سوف يناله منها.. وإنما «ينظر» إليها كإنسانة وحيدة تعذبت كثيرا فى حياتها.

وفي حاجة إلى رجل تستظل بظله ويحميها من وحدتها ويعوضها عما عانته .. فهل يتحقق هذا الأمل على يديك يا سيدي ؟

ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

«يا إلهي» .. كلما ظننت أنني قد عاشرت مع رسائل قراء بريد الجمعة طوال اثني عشر عاما أو تزيد من غرائب الدنيا والنفس البشرية ما لم يعد يتسع لأي جديد يثير دهشتي، أثبتت لي تجربة العمر ورسائل القراء أن باب الغرائب مازال مفتوحا على مصراعيه .. ولم يغلق بعد كباب الاجتهاد !

إنني أرجو معك من كل قلبي أن يتحقق هذا الأمل الذي تنشدينه لأملك إشفاقا عليها من وحدتها وبرابها .. لكن ما موقف «المرأة الأخرى» الآن بعد كل هذه السنين .. هل مازالت على ذمة زوجها الذي اختطفته من أمك، أم تراها قد انفصلت عنه وزهدت في الرجال، فإذا تزوجت أمك للمرة الثالثة تنبهت حواسها فجأة واكتشفت أنه مازالت لديها رغبة فيهم فتنسج خيوطها من جديد حول من سوف يختاره الله لمشاركة أمك بقية الرحلة .. ثم تطير بالفريسة بين مخالبها عائدة إلى وكرها .. كما تفعل الحداة الخطافة بعد كل صيد ثمين ؟!

إن السؤال قد يبدو مزاحا غريبا في هذا المجال، لكنني جاد فيه

للأسف، فبعض النفوس البشرية لا يغيرها الصيد السهل الذى لا تتنافس فيه مع غيرها، وتفضل عليه دائما الصيد الصغير لتستشعر لذة الفوز مضاعفة حين يهزم الطرف الآخر فى الصراع ويتجرّع مرارة الهزيمة !

والمرأة الأخرى فى حياتكم من هذا النوع من البشر فيما يبدو، فهى ترصد أمك على الطريق دائما وتحتزن ضدها أحقادا لو فرقت على عشرة أشخاص لسممت نفوسهم بالحقد والسواد، ولا تفسير لما فعلته مع أمك فى المرة الثانية بالذات سوى ذلك.. إذ هل خلت الدنيا كلها من الرجال فلم يبق منهم سوى زوج أمك الثانى، لكى تقتنصه منها كما سبق أن تزوجت عليها زوجها الأول ؟

إنه انتقام خسيس بكل تأكيد.. وفوز بالتخصص عليها فى معركة الرجال.. وكل رجائى هو أن يكون زواجها الثانى ناجحا ومستمرًا حتى لا تواصل مطاردتها لأمك فى زواجها الثالث إذا أراد لها الله أن تتزوج مرة أخرى.. فهناك حكمة قديمة تقول إن الذهب يختبر بالنار، والمرأة تختبر بالذهب، والرجل يختبر بالمرأة!.. وهى حكمة صحيحة تماما لكنها لا تنطبق على تلك المرأة الأخرى التى لا تختبر بالذهب، وإنما بمن تزوجه أمك أيا كان هذا الزوج !

فإذا تركته لشأنه فلقد نجحت لأول مرة في الاختبار، وإذا نسجت حوله خيوطها.. فلقد أثبتت من جديد أنها كما تقولين «لا يحلو لها شيء في الحياة» إلا إذا اغتصبت من يد أمك، وفي هذه الحالة فإنها لا تكون في حاجة إلى الزواج بقدر ما هي في حاجة إلى طبيب نفسي لعلاج نوازعها الغامضة.. وشفائها من داء الانقضااض على أزواج الأخريات.. وتلقينها مبدأ أساسيا هاما، هو مبدأ احترام «ملكية» الآخرين وعدم العدوان عليها.. وأرجو أن تتصلى بي مساء غد لاستيضاح بعض الأمور منك، وشكرا..

* * *



ابتسامة الخجل

أنا سيدة جامعية نشأت في أسرة بسيطة بين أبوين طيبين، وكنت الابنة الوحيدة لهما إلى جانب شقيقين يصغرانني، كان أبى يعمل عاملاً بسيطاً في مصلحة حكومية ويكافح في الحياة لإعالتنا وإسعادنا بما في يده، وقد حرص على تعليمنا وتشجيعنا على الدراسة والتفوق لكي نحظى بحياة أفضل من حياته، كما كان يقول لنا دائماً، وكان يفيض علينا حباً وحناناً.

أما أمى فكانت ربة منزل طيبة لكنها كانت عصبية بعض الشيء ربما بسبب ضغوط الحياة عليها. وقد وهبنى الله جمالاً منذ طفولتى، كما تفوقت في دراستى منذ الصغر، ونلت احترام زميلاتى لتفوقى وجمالى، وسعين إلى صداقتى، ورغم براءة مشاعر الطفولة فقد أدركت منذ الصغر الفارق الاجتماعى الواضح بينى وبينهن، وحاولت تغطيته بالاهتمام بمظهرى وبالادعاء لصديقاتى أن أبى مدير كبير بالحكومة،

وكانت نيران الغيرة تنهشنى حين أسمع من كل تلميذة من صديقاتى عن أبيها الذى يشغل منصبا مرموقا وبيتها المفروش بالأثاث الفاخر.. والرحلات التى يقومون بها... إلخ، فاستمررت فى الادعاء والأكاذيب عن أبى ووظيفته الخطيرة. وشعرت ببعض التعويض فى تفوقى الدراسى عليهن جميعا. لكن حبال الكذب قصيرة دائما، فلم تلبث صديقاتى حين تقدمنا فى السن والدراسة وانتقلنا إلى المرحلة الإعدادية أن استشعرن كذب ادعائى ورقة حالى من خلال بعض المواقف الصغيرة، كتهربى الدائم من دعوتهن لزيارتى فى المناسبات، ومن عدم وجود تليفون بيتنا يستطعن الاتصال بى من خلاله، وأيضا من تجنبى تلبية دعوتهن للزيارة فى منازلهن، ليس تخرجا منهن، وإنما لأننى كنت كلما زرت إحداهن فى بيتها اشتعلت نار الغيرة والحسرة فى نفسى، فكانت النتيجة أن فترت علاقتى بهن تدريجيا وانقطعت .

وبدلا من أن أقدر لأبى كفاحه فى الحياة وإصراره على تعليمى أنا وأخوى، وجدت نفسى أضيق به وبأسمى تدريجيا، وأحملة فى داخلى المسئولية عن عدم نشأتى فى بيت جميل كبيت زميلاتى، ووجدتنى - وخاصة وأنا فى المرحلة الإعدادية - أرهقه بمطالبى.. ولا أقبل منه عذرا إذا تأخر فى تليتها أو استمهلنى بعض الوقت وأكثر من الشكوى أمامه من بساطة حالنا ومسكننا ومن الأثاث المتواضع وقلة مصروفى

وحرمانى مما تتمتع به زميلاتى من مباحج الحياة، فتشور أمى وتتهمنى بالجحود والنمرودة والغرور وتتوعدنى بأننى لن أعرف طعم الراحة فى حياتى، لأننى لا أعرف الرضا ولا أشكر الله على شىء ولا أقدر لأبى تضحيته بضروراته الشخصية لكى يلبى مطالب أبنائه وأسرته، فهو لا يدخن ولا يسهر ولا يذهب إلى المقهى ولا يشتري لنفسه شيئاً.. وينفق كل ما فى يده علينا، ومع ذلك فلست راضية. أما أبى فكان لا يشاركها ثورتها ويهدئها ويلتمس لى بعض العذر، ويقول لها إن البنات يحتجن إلى ملابس كثيرة ليحافظن على مظهرهن وتتهمه أمى بالضعف معى، وتنصح به بأن يتركنى لنفسى لكى أتعلم الرضا وتقدير الظروف، ولكيلا أنشأ أناية لا أرى إلا نفسى.

ولم يكن أبى يستجيب كثيراً لأمى.. بل كان يقطع من قوته ليشتري لى ما أريد ويعطينى أحياناً فى السر مبلغاً إضافياً لمصروفى ويطلب منى ألا أصارح أمى به.. أما شقيقاى فقد كانا راضيين بحياتهما، ولا يلحان على أبى فى شىء، وقد كافحاً فى التعليم بسبب ضعف قدراتهما الدراسية، حتى استطاع كل منهما أن يحصل على شهادة متوسطة بشق الأنفس، وعمل كل منهما فى أكثر من عمل. فى حين حصلت أنا على الثانوية العامة بمجموع كبير.. وتطلعت لاستكمال دراستى الجامعية،

وسعد أبى بنجاحى سعادة كبرى.. وسألنى عما أنوى أن أفعل بحياتى، وأجبتة بأننى أريد الالتحاق بكلية عملية معينة، وصرخت أمى تسألنى: ومن أين لنا بتكاليف الدراسة وثمان الكتب فيها؟.. ولماذا لا تختارين كلية أخرى؟..

لكنى تمردت كالعادة ورفضت بإصرار وصرخت وولولت وبكيت، ولم يحتمل أبى دموعى فطّيب خاطرى وأقسم لى أنه سيفعل المستحيل ليوفر لى نفقات الدراسة الغالية، وبالفعل عمل ساعيا فى شركة بعد الظهر منذ حصولى على الثانوية العامة وحتى خرج إلى المعاش من وظيفته الحكومية، وكان يخرج من المصلحة فى الظهر فلا يرجع إلى البيت وإنما يتوجه إلى الشركة ليعمل بها من الثالثة بعد الظهر حتى العاشرة مساء، ويرجع إلى البيت مهدودا. وركزت أنا هدفى فى النجاح والتخرج والعمل لأنتقل إلى مستوى آخر من الحياة .

وفى الكلية العملية رجعت للأسف إلى أكاذيبى القديمة فزعمت لزملائى وزميلاتى أن أبى مدير كبير بالشركة التى يعمل بها، وتحملت سنوات الدراسة الخمسة فى صبر وتقشف لأستطيع توفير متطلباتها وتخرجت فى كليتى وأنا فى الرابعة والعشرين من عمرى، وعزفت طوال دراستى عن الاقتراب من الزملاء أو الدخول فى قصص غرامية مع زملاء مكافحين مثلى يحتاجون إلى عشر سنوات بعد التخرج لبناء

حياتهم والزواج.. واتهمنى بعضهم بالغرور والعقد النفسية وبأننى لا أريد إلا زوجا جاهزا فى كل شىء بدون كفاح وبدون مشاعر، ولم يكن ظنهم فى بعيدا عن الحقيقة، فلقد حسمت هذه المسألة خلال دراستى الجامعية «وقررت» أنه «لا فائدة» فى هؤلاء الشباب الصغار الذين يتحدثون عن الحب والارتباط والكفاح معا لبناء عش الزوجية، وأن «الأفضل» لى هو أن أتزوج ممن يستطيع مساعدتى على بناء حياتى وتمويل مشروعى المهنى الذى أمارس تخصصى فيه، وعفوا العدم الإشارة لطبيعته حتى لا يعرفنى من حولى، لكنه مشروع صغير لا يزيد على شقة من غرفتين وبعض الأجهزة المهنية .

وحين ظهرت نتيجة البكالوريوس ورجعت إلى البيت سعيدة، انخرط أبى فى البكاء وهو يقبلنى.. ورفع يديه إلى السماء شاكراربه.. وداعيا بالتوفيق فى حياتى، وزغردت أُمى مبتهجة، ورغم ذلك لمزتنى بقولها لى إنه عسى أن «يتمر» فى معروف أبى معى وأتذكر له فضله على..! وبلا وعى منى وجدتنى أقول لها : وأين هو هذا الفضل وأنا محرومة من كل شىء تتمتع به زميلاتى ؟.. أليس هذا هو واجبه كأب مع ابنته ؟.. ثم لماذا تنجبوننا إذا كنتم غير قادرين على نفقتنا ؟!

وصعقت أُمى لردى وكادت الفرحة تنقلب إلى غم ونكد، وهمت

بأن تنفجر في كعادتها معي، فإذا بأبي يسد فمها براحة يده ويقبل رأسها ويرجوها ألا تفسد علينا هذه الفرحة، وهو يؤكد لها أنني أمزح معها ويسألني : أليس كذلك يا فلانة ؟ فأجبهته بالإيجاب تجنباً للمتاعب ..

وانتهت بذلك صفحة طويلة متقشفة في حياتي، وبدأت أتطلع للغد المشرق، وتعلق أمل في أن تعينني كليتي كمعيدة فيها لتفوقى وتقدم ترتيبي في التخرج، لكن التعيين تعثر.. ووجدت نفسي بلا عمل، ولا قدرة مادية على ممارسة المهنة على الفور. وبعد بضعة شهور وفقت في الحصول على عمل لا بأس به بإحدى الهيئات العامة، وبلغ أبى قمة السعادة. أما أمي فقد واصلت انتقاداتها لي وتعجبها من أمرى لأنني رفضت ثلاثة شبان من الجيران والمعارف تقدموا إليّ واحداً بعد الآخر، فكنت أرفض المبدأ من قبل المناقشة لأنهم شباب مكافحون ولا يملكون شيئاً حتى سألتني أمي مستنكرة : هل تنتظرين وزيرا ؟!.. ولو أجبتها بما كان في ضميري وقتها لقلت لها إنه ولا حتى الوزير الذي تتحدث عنه يرضى طموحي المادى .. ولصارحتها بأننى أريد رجلاً قادراً مادياً بغض النظر عن سنه، لكنى كنت أتفادى المصادمات معها بقدر الإمكان .

وبدأت عملي في الهيئة العامة، وقبل أن أقبض أول مرتب في حياتي

بأيام انتقل أبى فجأة إلى رحمة الله بلا مرض سابق وهو فى الثالثة والستين من العمر.. فلم تسمح لى الظروف حتى أن أسعده بهدية صغيرة من أول مرتب أقبضه. وزلزلتنى صدمة رحيل أبى إلى حد لم أكن أتوقعه أو أتصور عمقه.. فقد وجدت نفسى بعد رحيله وحيدة تماماً رغم وجود أُمى والشقيقين معى .

وافتقدت سندی الأول فى الحياة ونبع الحب الطاهر والحنان الغامر الذى كنت أنهل منه فى كل مراحل حياتى، ولم أدرك للأسف بعمق تأثيره فى حياتى ومدى حاجتى إليه وإلى حضنه الدافئ وابتسامته الطيبة إلا بعد أن فقدته، وشعرت بألم شديد فى صدرى حين تذكرت فى غمرة افتقاده كيف كنت «أنكره» وأنا تلميذة جاهلة ومغرورة بالمرحلة الإعدادية، فأتفادى زيارة زميلاتى لى بالبيت بكل الحيل حتى لا يرين مسكننا البسيط ولا يتعرفن على أبى ويلمسن رقة حاله وتواضع مظهره.. ولو كنت قد عرفت وقتها قيمته الحقيقية فى حياتى لفاخرت به وبطيّبه وحنانه كل زميلاتى بلا استثناء .

ولا أريد أن أطيل فى الحديث عن هذه الفترة الحائرة من حياتى، لكننى أقول لك إنه بوفاة أبى لم يعد هناك فى عالمى الصغير من هو مستعد لتبرير جحودى وغرورى وتمردى والتماس الأعذار لى،

وتحملت مسئوليتي النفسية وحدي وعملت ثلاث سنوات في هذه الهيئة دون أن أتمكن من تحقيق حلمي القديم في المشروع المهني والارتقاء بحياتي، وإن كنت قد حسنت كثيرا من مظهر مسكننا المتواضع وأضفت إليه «صالونا» لائقا و«أنثريه». وخلال هذه السنوات الثلاث رحلت عني أمي أيضا رحمها الله رحمة واسعة.. وشعرت بالوحدة النفسية الحقيقية وأدركت بعد فوات الأوان كم كانت تحبني وتحرص على سعادتي ومصلحتي رغم «نقارها» المستمر معي وانتقادها الدائم لي..

وبعد رحيل أمي بعام التقيت بشريك حياتي، وتزوجت وأنا في الثامنة والعشرين من عمري، رغم أن جمالي كان يرشحني للزواج في سن أصغر.. ولا أريد أن أذكر أية تفاصيل عن شريكي في الحياة حتى لا يتعرف على نفسه من رسالتي، لكنني أقول لك إنه يكبرني «بعض الشيء» ويملك كل ما كنت أطمح فيه من مواصفات شريك الحياة، وإنني كنت واضحة معه من البداية فصارحته بأنني قد رفضت حب الشباب ومسائل العاطفة لأنني أريد رجلا عاقلا أميناً يتحمل مسئوليتي في الحياة ويحقق لي أهدافي.. وتقبل هو الأمر بواقعية، وتجاوب معي في كل شيء.

وخلال فترة الخطبة والقران، كان قد جهز لي مشروع المهني

البسيط وأعد شقته الجميلة للزواج.. وتزوجنا وبدأت عملي المسائي في المشروع بعد شهر العسل، ووجدت في شريك حياتي رجلا طيبا وهادئ الطبع فاسترحت إليه وتفاهمت معه وأنجبت منه طفلة أصبحت الآن في السادسة من عمرها وطفلا أصبح في عامه الثاني.. وقد تفرق شقيقاي في الدنيا الواسعة وسافرا للعمل بالخارج فأصبح زوجي وأطفالي وعملي هم كل حياتي ..

إذن فما هي المشكلة يا سيدي ؟.. المشكلة هو أنني أتذكر الآن كثيرا وجه أبي الطيب المتألم وهو يغطي حسرته بابتسامة الخجل من بنت الثانية عشرة من عمرها.. حين كنت لا أكف عن الشكوى وحين كنت أضغط على جروحه وأشعره بعجزه وفقره وبساطة حياتنا وحرمانى مما تتمتع به البنات الأخريات، لأنه لم يحضر لى طلبا طلبته أو تأخر فى تلبيته.

وأتذكر أيضا وجه أمى رحمها الله المستنكر والمتعجب وهى تتهمنى بالجحود والتمرد والغرور .. أما لماذا أتذكرهما كثيرا الآن وأبكيهما فى مناسبات عديدة؟! فلأننى قد بدأت أرى نفسى وبعض ملامحى القديمة فى ابنتى الصغيرة!.. فبالرغم من أننا نعيش فى مستوى لم أكن وأنا طفلة فى سنها أحلم بواحد فى المائة منه، فإنها هى أيضا ويا للعجب

لا يرضيها شيء .. ولا تشكر على شيء .. ولا تكف عن الشكوى
والمقارنة بينها وبين بعض زميلاتنا الأكثر ثراء في المدرسة الراقية التي
ألحقناها بها !.. كما أنها كثيرة المطالب ولا تحتمل أى رفض لمطالبها وقد
بدأت ألاحظ عليها بعض ملامح تمرد لها وغرورها منذ حوالى عامين،
وفسرته لنفسى بأنه من طبيعة الأطفال الصغار. لكن المسألة استمرت
بعد ذلك وأنذرتنى بالخطر حتى وجدت نفسى أشتبك معها كثيرا
وأضربها أحيانا لتمردها أو لكثرة مطالبها، فيتدخل أبوها بينى وبينها
و«يبرر» لها، كما كان يفعل أبى الراحل معى طيب الله ثراه !..

إن ابنتى مازالت صغيرة.. ومازال تمردها وغرورها فى حدود
الاحتمال والسيطرة ، لكن ما يقلقنى حقا يا سيدى هو المستقبل ..

فهل سيعاقبنى الله بابنتى على ما آلمت به مشاعر أبى رحمه الله، حين
كنت لا أشعره برضاى أبدا عن أى شيء .. وأشعره على الدوام بعجزه
عن توفير الحياة المناسبة لى؟! .. فلم يكن ينهرنى لذلك ولا يضربنى،
وليته كان قد فعل ذلك.. إذن لعرفت قيمته وقتها وعرفت الرضا، لكنه
لم يفعل ذلك.. وإنما كان - وقد أدركت ذلك بعد أن كبرت - يشعر
«بالخجل» منى ويبتسم ابتسامة خجولة تتجمع الدموع فى عينى كلما
تذكرتها الآن، وهو يعدنى بأن يفعل كل ما فى وسعه لإرضائى ! إننى

الآن الذى أشعر بالخجل من نفسى ومما فعلت مع أبى حتى بعد أن
بلغت سن الشباب وحين لم أقبل يده ورأسه وقدمه أيضا يوم تخرجى،
وأقول نه إنه أعظم أب فى الحياة، وإننى بغيره لم أكن لأساوى شيئا،
وحين كنت أخجل من أن أقدمه لزميلاتى وأنفدى ذلك .

إننى أكثر الآن من زيارة قبرى أبى وأمى، وأترحم عليهما كثيرا،
وأدعو الله طويلا أن يغفر لى ما آذيت به مشاعرهما من غرورى
وتمردى.. فهل يستجيب لدعائى حق، أم تراه يند فى عقابه العادل فى
ابنتى وربما ابنى أيضا فيتمردان على ويشعراننى داني بالعجز وعدم
قدرتى على تلبية مطالبهما فى المستقبل؟! فزوجى وإن كان ميسورا فهو
ليس مليونيرا.. وعملى فى مشروعى لم يحقق الكثير حتى الآن.. وابنتى
تحدث عن زميلاتهن اللاتى هن شالينيات فى الغردقة والساحل الشمالى
.. فهل هو حقا عقاب السماء لى؟!..

إن الأب والأم فى حياة أبنائهما هما النجوم التى ترشداهم للطريق ..
ومن أعماق قلبى أقول لكل فتاة : لا تقتلى أباك بالإنكار أو بالخجل من
ظروفه المادية، وافتخرى به أمام الجميع مهما كانت ظروفه المادية،
واستمتعى بحضنه وعطفه وحنانه لأنه لن يعيش لك إلى الأبد،
وكذلك بحضن أمك وقلبها وعقلها الناصح لك ولا تتمردى عليها
حتى لا تندمى بعد فوات الأوان .. والسلام عليكم ورحمة الله ..

الآن الذى أشعر بالخجل من نفسى ومما فعلت مع أبى حتى بعد أن بلغت سن الشباب وحين لم أقبل يده ورأسه وقدمه أيضا يوم تخرجى، وأقول له إنه أعظم أب فى الحياة، وإننى بغيره لم أكن لأساوى شيئا، وحين كنت أخجل من أن أقدمه لزميلاتى وأتفادى ذلك .

إننى أكثر الآن من زيارة قبرى أبى وأمى، وأترحم عليهما كثيرا، وأدعو الله طويلا أن يغفر لى ما آذيت به مشاعرهما من غرورى وتمردى.. فهل يستجيب لدعائى حقا، أم تراه ينفذ فى عقابه العادل فى ابنتى وربما ابنى أيضا فيتمردان على ويشعراننى دائما بالعجز وعدم قدرتى على تلبية مطالبهما فى المستقبل؟! فزوجى وإن كان ميسورا فهو ليس مليونيرا.. وعملى فى مشروعى لم يحقق الكثير حتى الآن.. وابنتى تتحدث عن زميلاتها اللاتى لهن شاليهات فى الغردقة والساحل الشمالى .. فهل هو حقا عقاب السماء لى؟!..

إن الأب والأم فى حياة أبنائهما هما النجوم التى ترشداهم للطريق .. ومن أعماق قلبى أقول لكل فتاة : لا تقتلى أباك بالإنكار أو بالخجل من ظروفه المادية، وافتخرى به أمام الجميع مهما كانت ظروفه المادية، واستمتعى بحضنه وعطفه وحنانه لأنه لن يعيش لك إلى الأبد ، وكذلك بحضن أمك وقلبها وعقلها الناصح لك ولا تتمردى عليها حتى لا تندمى بعد فوات الأوان .. والسلام عليكم ورحمة الله ..

ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

لا يتعلم الإنسان الحكمة إلا بالثمن الغالى، ولا يعرف أقدار من أحبوه وغمروه بعطائهم وحنانهم غالبا إلا بعد أن يفقدهم إلى الأبد للأسف . ونصيب كبير من هواجسك تجاه طفلتك قد لا يرجع إلى سلوكياتها الطفولية أو إلى كثرة مطالبها أو ما تلحظيه عليها من ملامح «الغرور» وعدم اعتياد الشكر، بقدر ما يرجع أساسا إلى شدة إحساسك أنت بالذنب تجاه أبويك، وإدراكك «الآن» فقط وأنت تتعاملين مع طفلتك في بعض المواقف المشابهة لما كان يحدث بينك وبين أبويك، لعمق إحساسهما وقتها بالمرارة والحسرة والقهر والعجز عن إرضائك رغم كفاحهما في الحياة من أجلك.. لهذا فإن نصيبا كبيرا من هذه الهواجس ربما يكون نوعا من حساب النفس أكثر منه مؤشرات حقيقية تنبئ بخطر مؤكد لتمرّد ابنتك عليك في المستقبل، ولا عجب في ذلك ولا غرابة يا سيدتى.. فنحن ندفع دائما ثمن أفعالنا في الحياة بشكل أو بآخر، فإن لم ندفعه في خسائر حقيقية ملموسة.. دفعناه في هواجس ومخاوف ومعاناة للإحساس بالذنب.

ومن المحتمل جدا أن يكون ما تشكين منه من تصرفات ابنتك، مجرد سلوكيات طفولية لم تشكل بعد ملامح مستقرة لشخصيتها التي

مستصاحبها بقية رحلة الحياة، لكنك بإحساسك بالذنب وبإدراكك «المكتسب أخيراً» للألم الذى كان ينطوى عليه أبوك بالذات، تضخمين من هذه النذر الصغيرة وتتخوفين من مؤثراتها.. وأياً كان الأمر فلا مفر من التعامل مع هذه المؤثرات المزعجة بما يناسبها من الوسائل التربوية الصحيحة، ولا بد من من مكافحة بذور التمرد والغرور، والأنانية قبل أن تتأصل فى النفوس وتنبث ثمارها المرة .

وفى كل الأحوال فلا بد من أن نعلم أطفالنا منذ الصغر، أن آباءهم لا يملكون الدنيا وما عليها، وأنهم ليسوا من صانعى المعجزات، ولا من أصحاب الخوارق، وأنه ليس من طبائع الأمور أن ينتظروا أو يتوقعوا تلبية ما يريدون من رغبات أو مطالب، كما لو كانت إرادة سنية واجبة التنفيذ، فهناك دائماً حدود لما يمكن الاستجابة له وما لا يمكن ، كما لا بد أيضاً من أن نغرس فى نفوسهم بذور الرضا بما يتيح لهم الآباء والأمهات من أسباب الحياة، والشكر عليها كذلك لربهم أولاً ولأبويهم من بعده، ولا بد أن يتعلموا ممارسة فضيلة الشكر مع الجميع ويعرفوا من حقائق الحياة ما تسمح لهم أعمارهم الصغيرة بإدراكه، ومنها أن حظوظ البشر تتفاوت دائماً لحكمة إلهية بين الثراء والفقر، والصحة والمرض، والشهرة والخمول ، والأهمية والعادية ... إلخ ،

وأن الأغلبية العظمى من سكان الكون كله هم من «لح الأرض»، أى من البسطاء الذين يكافحون فى الحياة ليكسبوا رزقهم ورزق من يعولونهم.

وأنه من واجبات الإنسان الدينية والأخلاقية أن يسلم بينه وبين نفسه بأن لكل إنسان ظروفه وقدراته وحظوظه التى تختلف عن حظوظ غيره، ولكل إنسان فى النهاية من حظه ما ينبغى أن يرضيه، ومن همه ما لا مفر من أن يشكوه مهما كان نوع هذه الهموم وليس من الضرورى أن تكون مادية.. لهذا فليس من الفهم الصحيح للحياة ولا هو حتى من المفيد للإنسان نفسيا وصحيا وعمليا، أن يتطلع لحظوظ غيره وينشغل بها وبالمقارنة بينها وبين حظه فى الحياة، ليس فقط لأن فى ذلك اجترأ واعتراضا على مشيئة من يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وإنما أيضا لأن ذلك بحساب الربح والخسارة لا عائد له إلا الخسائر المؤكدة فى سباق الحياة، فالحكمة الإنجليزية القديمة تقول : «إن الحصان الذى يتلفت يمينا ويسارا تسبقه الخيول الأخرى فى الفوز بجائزة السباق»!

وكذلك الإنسان أيضا.. فمن واجبه تجاه نفسه أن يسعى للارتقاء

بحياته وتحقيق أهدافه التى يطمح إليها، وليس مما يساعده على بلوغ الهدف أن يهدر بعض طاقته النفسية والصحية فى الانشغال عن أهدافه فى الحياة بالتلفت يمينا ويسارا ومراقبة حظوظ الآخرين والتحسّر فى المقارنة معها.. وبالتالى فى الحقد والكراهية والمشاعر السلبية العدائية التى تعوق تواصله مع الآخرين، وتقلل من طاقته على العمل والإبداع والنجاح، ولا تثمر فى النهاية سوى فساد الأوقات بالمعاناة والغيرة والحسرة كما لا تثمر أيضا سوى الخسائر الصحية المؤكدة بسبب أمراض القلق النفسى والنظرة السوداوية للحياة التى تفقد الإنسان الإحساس بجمال الأشياء وبقيمة ما حققه لنفسه، حين يقارنه بما حقق الآخرون..

لقد كان الفيلسوف أرسطو يقول : «إن أشقى إنسان فى الحياة هو الحقود لسبب بسيط هو أنه قد أضاف إلى همه بنفسه، همومه (بسعادة) الآخرين وما حققوه لأنفسهم من أسباب !

ولاشك أنك يا سيدتى قد حققت لنفسك بعض أهدافك فى الحياة لكنك خسرت فى نفس الوقت وخلال رحلتك إلى هذه الأهداف أشياء جوهرية لا تعوض، هى كل الأوقات الجميلة فى طفولتك وصباك

والتي كان ينبغي لك أن تستمتعي فيها ببراعة المشاعر.. وجمال المرحلة
وصداقة صديقاتك في المدرسة، وحبك للآخرين وحبهم لك، ناهيك
عن حب أبويك وعطائهما الدافق لك.. لقد أهدرت كل هذه الأيام
الجميلة بنيران الغيرة والحسرة والشكوى وإيلام مشاعر أبيك، فكسبت
الكثير بكفاحك الجاد في الحياة، وخسرت أيضا الكثير بهذه المشاعر
السلبية التي رافقتك في صباك وبواكير شبابك .

وليس المهم دائما في هذا الشأن هو الفوارق الطبقية، وإنما المهم هو
درجة الإحساس بهذه الفوارق ونوع هذا الإحساس .. فهذه الفوارق
قائمة في كل مجتمع في دنيا الله الواسعة ، لكنها لا تنعكس بنفس الأثر
على الجميع.. وإلا فلماذا إذن يشقى بها البعض ويتعذبون، وينشغل
عنها البعض الآخر من أصحاب النفوس المطمئنة، فلا يكادون
يشعرون بها، وإن شعروا بها لم ينعكس عليهم إحساسهم بها بالمرارة
ولا بالحق؟! ذلك لأنهم يسلمون من البداية بأن لكل إنسان نصيبه في
الحياة وبأنه ليس من شأن العاقل أن ينشغل بما أصابه الآخرون من
خير، فيستصغر شأن ما أصابه هو ويفقد استمتاعه به ويذهب سلامه
النفسي بددا .

إنه موقف نفسي أخلاقي عادل وحكيم من الحياة فبحر «المقارنة»

بلا شطآن ، ومهما حقق الإنسان من إنجازات في حياته فلسوف يكون هناك دائما من هو أكثر منه مالا وأعز نفرا .. فماذا تفيده إذن «المقارنة» مع هؤلاء سوى أن يفقد الرضا عن نفسه وعما حقق ؟! فيواصل ما أسماه الكاتب المسرحي الأمريكي آرثر ميللر في مسرحيته الشهيرة «التمن» «سباق الفئران المذعورة»، وهو سباق يتعذب فيه من يعلنون القيم المادية وحدها على كل شيء في الحياة برغبة كل منهم في أن يكون «الأفضل» والأحسن والأكثر ثراء وليس بأن يكون «الأسعد» والأكثر توفيقا في حياته الخاصة.. والأكثر رضا عن نفسه وعن دنياه الخاصة وأسرته الصغيرة فينتهى كل شيء في نهاية السباق إلى حقيقة واحدة هي القلق الدائم والتطلع الأبدى لحظوظ الآخرين والمقارنة معها، ويكتشف الإنسان في النهاية وبعد ضياع زهرة العمر ، أنه قد أضاع كل شيء لكي يصل بعد اللهاث الطويل إلى حياة غير حقيقية .. وأهداف خائبة بمقاييس السعادة الحقيقية وصفاء النفس وسلامها .

ولهذا أيضا فما زالت خسائرك مستمرة حتى الآن يا سيدتى ، وإذا كنت لا أسمع لنفسى بأن أختار لأحد حياته، فإنى أقول لك إنك بسبب «سباق الفئران» هذا، قد حددت لنفسك في الحياة أهدافا مادية بحتة ونحيت من أجلها جانبا كل شئون العاطفة، فارتبطت بمن يكبرك في السن «بعض الشيء» مفضلة إياه على الشباب المكافحين

الذين يبنون حياتهم خطوة خطوة، وعبرت بتصرفك هذا عن اتجاه غير محمود لدى بعض الفتيات يعكس للأسف سيادة القيم المادية على كل ما عداها من القيم الأخرى، ومنها قيمة العاطفة والسعادة وقيمة العمل وقيمة الكفاح الشريف في الحياة لتحقيق أهداف الإنسان المشروعة، وتفضيل الوسائل الجانية الأخرى لتحقيقها بلا عمل ولا كفاح، كالارتباط بمن يكبرهن «بعض الشيء» .

وبسبب هذا السباق أيضا كانت شدة إحساسك بالفوارق الطبقية وتحسرك على ما لدى الآخرين وليس لديك، وإرهاقك لأبيك لتعويض بعض ذلك ولو على حسابه وحساب إخوتك، وكان أيضا إحساسك بالذنب الآن وتخوفك من أن تكرر ابتك صورتك السابقة في صباك وشبابك .

وعلى أية حال، فإنني أنصحك بأن تتفاهمي مع زوجك على توحيد الأهداف والقيم التربوية التي تلقنا بها لابتكما وطفلكما، حتى ولو اختلفتما في الوسائل وقد اتفقنا على ما ينبغي أن يتشربه الأطفال منذ الصغر من قيم الرضا والعرفان والشكر والتواضع وعدم التطلع لحظوظ الآخرين وعدم الأنانية .

ولكى تشرب ابتك هذه القيم، فمن الضروري أن يعينك على ذلك زوجك بالكف عن الضعف تجاهها وعن «تبرير» سلوكياتها، ثم

بمشاركتك الحزم معها لكبح جماح تمرد لها وغرورها في المهد... ولا مهر
في هذا الشأن من استخدام الوسائل العقابية الملائمة عند الضرورة من
رفض تلبية بعض ما تطلب بإصرار ، إلى التوبيخ والنهر ، إلى الحرمان
من المصروف .. إلى الخصام المؤقت حتى تقرب بالخطأ وتعتذر .. إلى
النضرب الهين في حالة الإصرار على الخطأ وتكراره .

أما عن ندمك وبكائك على أوبك وتحسرك حين تستعيدين وحيه
أبيك وهو يغالب حرجه وإحساسه بالعجز وافهوان بتلك الابتسامة
الخجولة المؤلمة ، فلا بأس ببعض الدموع التي تطهرنا من آثامنا من حين
إلى آخر ، ولا بأس أيضا بغصة الندم المؤلمة على أخطائنا السابقة ، لكي
يرشحنا ذلك لنيل العفو والمغفرة ممن لا يغفر الذنوب سواه ، وكلما
صح الندم وكثر الاستغفار اقتربنا من عفو من وسعت رحمته كل شيء ،
سبحانه ، ولا شك أن ندمك واستغفارك الآن دليل أكيد على أنك قد
عرفت في النهاية حقائق الحياة الجديرة بالاهتمام .. وخرجت من
«سباق الفئران» التي تلهث داتها وراء أهدافها المادية وحدها وبدأت
مرحلة جديدة من حياتك ستكون أكثر جمالا وإشراقا بإذن الله .

* * *

الأشياء الجميلة

أنا شاب عمرى ثلاثون عاما توفي أبى وأمى منذ خمسة عشر عاما وتركا لى «تركة» ثمينة أحمد الله عليها كثيرا، وهى ٤ شقيقات.

ومع أن إحدى شقيقتى تكبرنى فى السن إلا أننى قد أصبحت رجل الأسرة منذ لحظة وفاة أبى، وواجهت مع شقيقتى ظروف الحياة وتقلبات الأيام، وتحلّى الأقارب عنا، بروح الصبر والأمل فى المستقبل، بعد وفاة أبى بأربعة شهور طلب منّا عمى الذى ربّاه أبى كما ربّى كل إخوته، أن نتقل من بيت الأسرة إلى مسكن شعبى سيوفره لنا، لأن البيت لم يعد يتسع لنا، ورفضت ذلك فى البداية، ثم اضطررت للامثال والخضوع بعد أن هدم دورة مياه البيت .

وانتقلنا بالفعل إلى شقة صغيرة من المساكن الشعبية فى بلدتنا القريبة من القاهرة تم استئجارها من الباطن .. وتنهت محافظة الإقليم بعد

فترة لذلك فأقامت دعوى قضائية ضدنا لإخلاء الشقة بسبب الإيجار من الباطن، وما زالت الدعوى منظورة أمام القضاء حتى الآن، وقد تعرضنا لهذه المشاكل والتقلبات وأنا في الثانوية العامة فأهملت دراستي لألبى احتياجات أسرتي، وبدأت أسافر في الإجازة الصيفية لأعمل في الأردن أو العراق وأعود بعد عام أو شهور .. وعرفت بالتجربة ووسط المعاناة والضنك الشديد أن الحياة ليست كلها ظلاما في ظلام، بل إن فيها أيضا مساحات مضيئة كثيرة.. وبعد خمسة عشر عاما من وفاة أبي .. أجد أننا قد عبرنا مسافات واسعة من بحر الشقاء .

فأختي الكبرى قد تخرجت في كلية التجارة وتزوجت بعد معاناة شديدة في توفير الجهاز اللازم لها، وأختي الثانية تخرجت في أحد المعاهد وهي مخطوبة الآن والحمد لله، والثالثة تخرجت في كلية الطب في العام الماضي ولم تخطب بعد، والرابعة مازالت في المرحلة الثانوية وتتقدم في دراستها بنجاح، وكلهن والحمد لله يرتدين الخمار ويحضرن الدروس الدينية في المسجد، وأنا نفسي قد عدت لدراستي بعد فترة وحصلت على الثانوية العامة وتخرجت في كلية التجارة، صحيح أن معيشتنا مازالت ضنكا شديدا.. وأنا مثقل ببعض الديون لأصدقائي الذين يقدرون ظروفهم ويصبرون عليّ، كما أني لا أعمل حاليا ولا أجد عملا أو وظيفة، إلا أننا قد تقدمنا جميعا دراسيا، وقطعنا شوطا كبيرا

من رحلة العناء.. ولم يبق إلا القليل الذى أرجو الله أن يتم به نعمته علينا، فأجد عملا مناسباً وتخطب أختى الثالثة.. وينصفنا - أو قل يرحمنا بمعنى أصح - القضاء فلا يحكم بطردنا من المسكن الشعبى حتى لا نجد أنفسنا فى الطريق، وليس ذلك على الله بكثير، فالحق أنه يؤلمنى كرجل أن أمد يدي إلى شقيقتى لأخذ منهن نقودا بعد أن كنت أعطيهن، وأدعو الله ألا تطول هذه الغُمة وأن أجد عملا فى أقرب وقت لأواصل مشوارى فى الحياة .

وقد دفعنى للكتابة إليك أننى أواجه موقفا محيرا منذ فترة، فلقد أصيب ابن إحدى جاراتنا منذ فترة بجرح نافذ.. فحملته إلى الطبيب الذى قام بخياطة الجرح، والحمد لله أنه كان معى نقود فى ذلك اليوم فدفعت أتعاب الطبيب وعدت به إلى بيته.. وبعد قليل جاءتنى أخته تشكرنى على ما فعلت مع أخيها، فإذا بى أحس برعشة شديدة فى جسمى كله وأنا أنظر إلى هذه الفتاة الجميلة، واكتشفت فجأة إننى قد انشغلت خلال كفاحى عن الارتباط أو التفكير فى أية فتاة..

وبعد أيام صارحتنى جارة لنا بأن هذه الفتاة الجميلة تحببى وتنتظرنى.. فرفضت تصديق ذلك، لأن ظروفى لا تغرى أية فتاة بالارتباط بى أو انتظارى، ففوجئت بهذه الفتاة نفسها تؤكد لى ما نقلته

عنها جارتنا فصارتها بمشاعري العميقة تجاهها، لكنى أبلغتها في نفس الوقت أنني لن أقابلها مرة أخرى لأنى لا أرضى بذلك لشقيقتى. والآن يتقدم هنا شبان كثيرون ترفضهم لأنها كما تقول للجميع تنتظرني وترى في رجلا يعتمد عليه.. ويكفينى عندها من مؤهلات أننى لم أتحل عن شقيقتائى بعد وفاة أبويننا ولم أبحث عن نفسى.. أو أفضل مصلحتى على مصلحتهن.. والمشكلة الآن يا سيدى ليست فقط في العمل الذى أبحث عنه وانتظره، ولكن أيضا في إحساسى بأن «ربطى» لهذه الفتاة الآن حرام وسوف يحاسبنى عنه الله سبحانه وتعالى لأن مشوارى طويل ولست أرضى خابيا لا أرضاه لأختى من ارتباط طويل بلا أمل ممكن التحقيق، فهل أستمّر في ارتباطى بهذه الفتاة إلى أن يقضى الله في أمرى فأعمل أو أحصل على قرض من أحد البنوك، أم ترى أن من كان في مثل ظروفى ليس من حقه أن يحلم بمثل هذه «الأشياء» الجميلة في الحياة، لأن ظروفنا لا تسمح بها؟! لقد عانيت كثيرا في حياتى.. وجاءت هذه المعاناة الأخيرة لتضاعف منها. فهل ترشدنى إلى الطريق الصحيح؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

«الأشياء الجميلة» في الحياة ليست حكرا على القادرين وحدهم، وإنما هى حق مشروع للجميع ما بقيت لهم قلوب تنبض بأنبل المشاعر.. ونفوس تحلم بحقها العادل في السعادة.

فإذا كان ثمة اختلاف في سبل نيل هذه الأشياء الجميلة.. فهو وعورة الطريق وطول مسافته على المكافحين من أمثالك، ومع ذلك.. فلكل شىء في الحياة أيضا وجهه الآخر.. ذلك أن ما نناله بلا عناء ولا كفاح.. فإننا قد لا نستشعر قيمته غالبا، ولا نحرص عليه، وما نناله بالعناء والصبر هو وحده الذى نستشعر قيمته الكبرى ونحرص عليه ولا نفرط فيه أبدا، كوليد العناء الذى يجىء بعد طول انتظار فتضاعف فرحتنا، واستمتعنا به أكثر من غيره. وفي عالم السباحة الطويلة يقولون إن ريع المسافة الأخير في السباق هو دائما أصعبها على السباح البطل الذى صارع الأمواج طوال المراحل السابقة.. وإنها المسافة التى قد تشهد انهياره واستسلامه للفشل، مضيعا هباء ما بذله من جهد سابق، وقد تشهد أيضا استنفاره لإرادته وكل طاقاته لإكمال السباق بجهد جهيد فيتوّج كفاحه البطولى بما يستحقه من فوز أكيد.

وأنت يا صديقى قد قطعت ثلاثة أرباع الطريق الصعب إلى الأمان والسعادة لك وشقيقاتك.. فاصمد للربع الأخير من سباقك الصعب.. ولا تسلم باليأس من بلوغ الغاية ولا تحرم نفسك من حقها العادل في الحلم بالسعادة.

فلقد خبرت عناء الحياة منذ صباك، وعرفت بالتجربة أن الحياة ليست دائما ظلاما دامسا، وأنها لا تخلو أبدا من الدوائر المضيئة بأنبل

المشاعر والقيم الإنسانية مهما اشتدت المعاناة، وما اختيار فتاتك لك وتفضيلها لك على القادرين على الارتباط بها على الفور، إلا تأكيد جديد هذه القيم النبيلة نفسها، ومروءة عادل لقيامك بواجبك العائلي والإنساني تجاه شقيقاتك على أكمل وجه.. ولا شك أن فتاتك محقة في أن ترى فيك رجلا يعتمد عليه.. ويُشترى بالصبر على ظروفه غير المواتية، إلى أن تتحسن الأحوال ويستطيع الارتباط بها .

ويحق لك أنت أن تقول عنها ما قاله عطيل عن زوجته ديدمونة في مسرحية شكسبير الشهيرة : «أحببتني لما لاقيته من أخطار .. وأحببتها لما لاقيته منها من عطف» .

أما عجز الإمكانات المادية فلن يستمر طويلا.. وكما علمتك الحياة من قبل أنها لا تخلو وسط أحلك الظروف من بصيص للضوء، فلسوف تعلمك أيضا درسا جديدا قيما، هو أنه ليس فقيرا من يجب ويجد من يحبه بإخلاص وتفان بل لعله أغنى الأغنياء وأكثرهم سعادة في الحقيقة، فهناك من يحبه بصدق ويفضله على العالمين ويحفضه على الكفاح وتحدي الصعاب ومواصلة الرحلة حتى شاطئ الأمان .

وفي رواية «امرأة لا أهمية لها» للأديب البريطاني أوسكار وايلد. سألت الأم الفقيرة صديقة ابنها الثرية التي تتمسك به وترغب في

الزواج منه رغم فقره: هل تحبينه ؟ فأجابتها بالإيجاب، فقالت لها متحسرة : ولكننا فقراء ! فأجابتها الفتاة الثرية في تعجب نبيل : كيف يكون الإنسان فقيرا وهناك من يحبه !؟

وهذا صحيح يا صديقي، ولعله درس السنين الذي لا يتعلمه الإنسان إلا بالألم والتجربة.. فالإنسان لا يكون فقيرا أبدا وهناك من يحبه بإخلاص، ويحرص عليه مهما كانت ظروفه المادية.. ولا يكون «ثريا» أبدا وهو محروم ممن يحبه، ويعتز به ويفضله على الآخرين مهما كان رصيده من المال في البنوك.

فاقتنع بذلك ولا تفرط في هبة السماء لك واتصل بي مساء الاثنين القادم أو زرنى في مكتبي بالأهرام، فلعلى أستطيع معاونتك في الحصول على قرض من الصندوق الاجتماعى تبدأ به مشروعا صغيرا إذا توفرت لديك الرغبة والإرادة لممارسة العمل الحر ، أو لعلى أستطيع معاونتك على أمرك بشكل أو بآخر. وشكرا لك .

* * *



صرخات في الليل

أنا شاب في الثانية والعشرين من عمري.. حين أرجع الآن بذاكرتي إلى طفولتي أستعيد صور سعادة طفل صغير يعيش مع أبويه وشقيقه الأصغر.. ويستمتع بحنان الأبوين ويلهو مع شقيقه ويحب الحياة. أما أبى فقد كان موظفا بسيطا بإحدى الهيئات الحكومية يذهب إلى عمله في الصباح بقطار الضواحي ويرجع مع الغروب حاملا كيسا من الفاكهة الرخيصة، فيجد أمى ربة البيت الطيبة في انتظاره ويجدنا نحن الابنين وقد أجهدنا اللعب طوال النهار، وانتزعتنا أمنا من الشارع لغتسل. ونصلى بالأمر رغم صغر

سننا.. ثم نجلس في انتظار أبى لتناول معه طعام العشاء. وبعد العشاء يجلس أبى بيننا يشرب الشاي ويستمتع إلى «شكاوى» أمنا المعتادة منا.. ومن «شقاوتنا» وكيف لوثنا ملابسنا بالتراب والوحل خلال لعب الكرة.. وكيف راوغناها عدة مرات ورفضنا الاستجابة لندائها حين نادتنا من النافذة لنتراجع للبيت... إلخ، وأبى مبتسم وراض وسعيد

ولا يزيد عن أن يقول لنا من حين لآخر : أهكذا تفعلان في غيابي
أو أهكذا تتعبان أمكما التي تشقى من أجلكما ؟ وكانت أُمى تضيق
أحيانا بما تسميه تدليله لنا وتعاتبه في ذلك متظاهرة بالعبوس فيضحك
مبتهجا.. ويسترضيها حتى ترضى. ومن تكرار هذا الموقف في طفولتي
التقطت أذننى عبارة غامضة كان أبى يقولها لأُمى أحيانا إذا اشتدت
عليه فى العتاب لتسامحه معنا، وكانت حين تسمعها تمصمص شفيتها
صامتة.. وفى بعض المرات كانت عيناها تدمع. أما العبارة فهي:
أتشكين من « النعمة » يا فلانة! هل .. نسيت ؟ فإذا سألت أُمى عما
يقصده أبى بهذا الكلام خلال غيابه، تشاغلتنى عنى وغيّرت مجرى
الحديث .

وفى إحدى المرات سألتها نفس السؤال، فسالت دموعها بغزارة
وفزعتنى فزعا شديدا ورحت أقبل رأسها وأعتذرت لها وشعرت بالندم،
فكففت عن توجيه هذا السؤال لها بعد ذلك.. ومضت سنوات قبل أن
أعرف إجابته، وقبل أن أدرك إننى لم أكن أول أبناء أبى وأُمى كما
أتصور، وإنما سبقتنى إلى الحياة أخت ولدت جميلة، ثم مرضت فى
عامها الثانى مرضا شديدا وتوفاها الله، ثم أخ لم يطل عمره هو الآخر
عن بضعة شهور، ثم اختاره الله إلى جواره، فخيم الحزن على حياة أبى
وأُمى بعد ذلك ثلاث سنوات كاملة، وتخيلنا أن الله سبحانه وتعالى لن
يكتب الحياة لذريتهما .

وازداد تدين أبى فراح يكثّر من الصلاة والصوم وقراءة القرآن ،
حتى روى لى حين كبرت أنه قد صام هو وأمى فى العام التالى لوفاة
الابن الثانى ٣٠٠ يوم كاملة، ثم أنزل الله عليها سكينة بعد ذلك
وأنجبانى، وأنجبا أخى الأصغر بعدى بعام وبضعة شهور. ومضت
فترة طفولتنا مسالمة ونشأنا صحيحين.. نلعب ونجرب ونلهو، فسعد بنا
أبى سعادة لا توصف وحننا علينا حنوا شديدا، حتى إنى لا أذكر له أنه
قد مد يده ذات يوم علىّ أو على أخى بالضرب .

ومضت حياتنا هادئة وادعة.. ولم يجرمنا أبى من شىء فى حدود
إمكانياته واشترى لنا دائما الملابس الجديدة والأحذية.. حارما نفسه هو
من شراء أى شىء جديد له حتى ترغمه أمى على ذلك.. وتقدمت أنا
وأخى فى دراستنا فانتقلنا من المدرسة الابتدائية إلى المرحلة الإعدادية ثم
الثانوية، وبدأت مطالبنا ونفقات حياتنا تتزايد .

وكنت قد أدركت منذ صباى واقع أبى، وهو أنه موظف بسيط
وليس إلهام قادرا على كل شىء كما يتصور كل طفل فى أبيه، فلم أعد
أرهقه بمطالبى على عكس شقيقى الأصغر الذى ظل يتعامل مع أبى
على أنه قادر على كل شىء.. وأذكر أنه طالب أبى ذات مرة بحذاء
رياضى كزملائه فى المدرسة وسأله أبى عن ثمنه وكان مبلغا كبيرا..

فسمعت أبى يتأوه له، ومع ذلك فقد وعده بأن يحضره له خلال أيام..
وسألنى إن كنت فى حاجة لحذاء مثله فنفت ذلك إشفاقا عليه، ونظر
إلى مبتسما وفاهما، ثم لم تمض أيام حتى رجع إلى البيت فى المساء ومعه
حذاءان رياضيان لى ولأخى، وعلمت من أمى أنه قد اشتراها
بالتقسيط من زميل له بالمصلحة يستعين على حياته بالمتاجرة فى بعض
الأشياء وبيعها لزملائه مقابل قسط رحيم يحصل عليه أول الشهر.
وازددت حبا وإكبارا لأبى الذى يكافح فى الحياة بشرف لإسعاد ابنه
وأسرته، واعتمدت فى دراستى على مجهودى وحدى فلم أكلف أبى
نفقات إضافية للدروس الخصوصية، وعملت فى الإجازة الصيفية فى
محل للفيديو قريب من بيتنا أحمل الأفلام إلى المتعاملين معه لقاء جنيه
واحد فى اليوم وبعض البقشيش من الزبائن. وادخرت للثانوية العامة
معظم أجرى من عملى خلال الصيف لدفع رسوم مجموعات التقوية،
ونجحت بمجموع صغير رغم كل ما بذلت من جهد... وحزنت لذلك
لكن أبى ابتهج بنجاحى كثيرا ولامنى لحزنى، وقال لى إن لكل إنسان
نصيبه فى الحياة، والتحقت بمعهد لمدة عامين بعد الثانوية وراح أبى
يحلم بيوم تخرجى الذى يأمل بعده أن يتشفع لدى رؤسائه بمدة خدمته
الطويلة فى تعيينى بإحدى وظائف الهيئة التى يعمل بها، خاصة أنه كان
قد تخطى الخامسة والخمسين ..

ومضت الأيام في طريقها المرسوم، فإذا بزلزال شديد يزلزل حياتنا البسيطة ويهزها من أركانها، فلقد مرض أخى الأصغر مرضاً شديداً وهو على أعتاب امتحان الثانوية العامة، وأصيب أبى وأمى بالهلع ونقلاه إلى المستشفى فأجريت له جراحة عاجلة لكن حالته تدهورت أكثر وأكثر وحلّ القضاء المحتوم به وأنا ذاهل لا أصدق ما يجرى أمامى ولا أستوعبه، وخلت الدنيا من شقيقى وصديقى الوحيد الذى لم أعرف لى صديقاً سواه والذى شاركته سنوات العمر والطفولة، وكنا ننام معاً فى فراش واحد. أما أبى وأمى فلا أستطيع أن أصف لك ما حل بهما من قهر وضعف وحزن ومرض، وبدأت أرى أبى فى البيت بالأسابيع لا يغادره إلا بصعوبة شديدة، ولا يذهب إلى عمله إلا ليجدد الإجازة المرضية .

أما أمى فقد تناوبتها الأمراض حتى عجزت معظم الأيام عن القيام بواجباتها المنزلية، واستسلمت دائماً للمرض والفراش، وبسبب هذه الظروف القاسية رسبت فى عامى الأول بالمعهد فلم يحزن أحد لرسوبى.. أو لم يشعر به أحد.. وتحاملت على نفسى وبذلت جهداً كبيراً لاستذكار دروسى فنجحت فى العام التالى، لكن إجازة الصيف شهدت بعد نجاحى كارثة أخرى غطت على كل شىء وأكملت جبل الحزن فى حياتنا، فلقد رحلت أمى رحمها الله عن الحياة بعد عام وبضع

عام فقط من وفاة شقيقى . وخلت الشقة الصغيرة التى نعيش فيها على
أنا وأبى من بعدهما .. وازداد تهم أبى وعشش الحزن فى روحه وصوته
ووجهه .

أما أنا فقد أصابتنى حالة غريبة من الخوف والفرع خلال الليل
فأصبحت أنهض من نومي مذعورا عدة مرات كل ليلة فينهض أبى من
نومه مفزوعا على صراخى ويحىء فيحتضنى .. وهو يردد آيات الذكر
الحكيم ويضع يده على جبهتى ويستغرق فى التلاوة حتى أهدأ
وأستسلم للنوم من جديد، ثم أصبح مرة أخرى صارخا .. وطالت
هذه الحالة فعرضنى أبى على طبيب المستوصف القريب، فوصف لى
بعض الحبوب المهدئة ونصح أبى بأن أنام إلى جواره لتهدأ مخاوفى ففعل
وأصبح يقاسمنى فراشى .

وبدأت الدراسة وجاهدت لكى أستذكر دروسى وأنهى دراستى
لأسعد قلب أبى الحزين بشيء يبتهج له بعض الابتهاج .. وهو يهدىء
دائما من روعى .. ويث فى الصبر والأمل فى الحياة ويبشرنى بأجر
الصابرين حتى نجحت بمعجزة وحصلت على شهادتى، وبدأ أبى
مساعيه فى الهيئة التى يعمل بها لتعيننى فى وظيفة مؤقتة بها .. ووعد
رؤساؤه بذلك فى أقرب فرصة .. لكن الفرصة لم تأت بعد ذلك أبدا ..
فهل تعرف لماذا يا سيدى ؟ إننى أخشى أن أذكر لك السبب فلا تصدقه

لكنها للأسف الحقيقة المرة التى أعيشها وليتها كانت كاذبة.. لقد مات
أبى الطيب الحنون وهو فى الثامنة والخمسين من عمره بلا مرض ولا
مقدمات وفاضت روحه الطاهرة وهو جالس بين زملائه فى عمله، وأنا
أبحث عن عمل وأتنقل بين الشركات الصغيرة التى تعلن عن طلب
موظفين خلال الصيف ، فوجدتنى وفى أقل من أربع سنوات قد فقدت
كل أفراد أسرتى كلهم وبقيت وحدى بلا سند ولا معين فى الحياة.. ولا
شئ سوى ذكرى أب طيب وأم حنون وأخ صديق لم نكن نفترق قبل
أن نفرقنا الحياة ..

لقد قام زملاء أبى والجيران بكل ما يتطلبه الموقف وجاء أحد زملاء
أبى بمصاريف الجنازة من الهيئة، وقاموا باستصدار إعلام الورثة لكى
أستحق معاش أبى.. وورى أبى التراب وأنا أقف أولول كالطفل
الصغير وزملاء أبى يشاركوننى البكاء ، وبعد أيام العزاء.. خرجت
لأواصل البحث عن عمل لأعول نفسى بعد أن أصبحت وحيدا فى
الحياة . وتقدمت لشركة صغيرة تطلب شبابا للعمل فى الصيف ،
ورأيت طابورا طويلا من الشباب ينتظر مقابلة المسئول فوقفت فى
الصالة يائسا من كل شئ ومستغرقا فى أفكارى وأحزانى فلاحظت أن
الموظف الذى يسجل بيانات الشباب قبل إدخالهم إلى لجنة الاختبار،
ينظر إلى باهتمام فارتعبت وكدت أغادر الصالة.. لكنه أشار لى أن

أقرب منه وسألني عن اسمي ودراستي، ثم سألني : ماذا يعمل أبوك ؟ فأجبت بأنه بين يدي الله ففوجئت به يسألني : متى ؟ فأجبت به بلا وعي : منذ ثلاثة أسابيع ! فهز رأسه كأنها يقول لنفسه أن تقديره قد صح ! ثم قال لي : انصرف الآن ولا تدخل إلى اللجنة وعد في الصباح لمقابلتي ، فشكرته وانصرفت .

ورجعت إليه في اليوم التالي بالفعل فرحب بي وعرفني بنفسه وبأنه رئيس قسم التدريب في الشركة، وقال لي إنه سوف يدربنى بنفسه على العمل ولن يدعنى أعمل كمندوب مبيعات بالعمولة كغيري من الذين قبلوا بالشركة، وإنما سيعلمنى أعمال السكرتارية والكمبيوتر وسأعمل معه مباشرة . فلم أملك نفسى من البكاء أمامه وأنا أشكره حتى خجلت من نفسى ، لكنه هدأ من روعى وسألني عن حكايتى فرويتها له باختصار وتأثر لها كثيرا حتى دمعت عيناه وصارحنى بأننى قد لفتت نظره من بين الشباب المنتظرين بانكسارى، وبأننى كنت أرتجف بدون أن أدري خلال وقوفى حتى ظننها حالة عصبية عندى، ثم طلب منى أن أعتبره أخى الأكبر ومسئولا عنى ووعدنى بأن يتم تعيينى بالشركة بمرتب مائة جنيه، وبأنه سوف يساندنى فى الحياة إلى أن أقف على قدمى إن شاء الله .

وبدأت عملى معه فى نفس اليوم وانتظمت فى العمل من التاسعة

صباحا إلى أن يأمرنى بالانصراف فى الخامسة مساء أو السادسة أو السابعة حسب حاجة العمل، وانهش كثيرا حين تأخرت معه فى العمل ذات يوم حتى الثامنة مساء فرجوته أن يسمح لى بالمبيت فى الشركة على أى مقعد حتى الصباح. وكان هو دائما آخر من يغادر الشركة فيطفئ الأنوار، ثم يغلق بابها فتصور أننى لا أملك أجر المواصلات للعودة وعرض على سلفة حتى أقبض أول مرتب، لكنى أكدت له أن معى ما أستطيع به العودة إلى البيت، لكنى لا أريد ذلك واضطرت لمصارحته بالسبب الذى دفعنى لهذا الرجاء وهو مشكلتى التى أكتب لك من أجلها الآن، فلقد كان السبب هو أننى أخاف الليل فى شقتى الخالية بعد رحيل أبى وآخر من كان قد بقى لى من أسرتى الصغيرة، فأصبحت أعجز عن النوم فى غرفتى حيث كان يبيت معى أخى رحمه الله وعوضه عن شبابه فى الجنة، وأعجز عن النوم فى غرفة أبى وأمى رحمهما الله وأنزلهما فسيح جناته، فأضىء الغرفتين والصلاة طوال الليل وأنام منذ مات أبى رحمه الله على الكنبه فى الصلاة نوما.. السهر أرحم منه.. فقد عاودتنى حالة النهوض من النوم مفزوعا وصارخا وأنا مبهور الأنفاس وضربات قلبى عالية والعرق يغطى وجهى.. فأستعيز بالله من الشيطان الرجيم.. وأنهض فأتوضأ وأصلى.. وأظل أتجول فى الصلاة ذهابا وإيابا حتى يهدنى التعب.. وأستسلم

للنوم بعض الوقت وتكرر معى نفس القصة، فلا أرجع للنوم مرة أخرى وأغادر الشقة مع أول ضوء فى الصباح وأذهب إلى عملى وأنتظر أمامه أو فى المقهى حتى تفتح الشركة أبوابها .

ولقد وافق رئيسى الطيب على أن أبيت فى الشركة كلما تأخرت فى العمل، وليلتها لم تهاجمنى الكوابيس كما يحدث معى فى البيت، ونمت باستغراق حتى الصباح، لكن هذا الوضع ليس حلا لمشكلتى.. لهذا فإننى أسألك : أليس هناك حل لهذا الرعب القاتل الذى أعيشه كل ليلة فى مسكنى ؟ .. وهل هناك علاج لمثل حالتى هذه ؟ وهل ستستمر معى إلى النهاية ؟!

إن البعض ينصحوننى بالانتقال إلى شقة أخرى.. لكن كيف السبيل لتحقيق هذا الأمل المستحيل وأنا لا أقدر عليه.. لقد مضت على وفاة أبى الآن ثلاثة شهور، علمنى خلالها رئيسى العمل على الكمبيوتر وشملنى بعطفه ورعايته ودعانى لتناول الساندويتشات معه وقت الظهيرة عدة مرات خلال العمل بالشركة أكرمه الله فى أبنائه وصحته وأسرتة كما أكرمنى، والجميع فى الشركة يعاملوننى بحب لأننى أعاملهم جميعا باحترام وأعرض أن أقوم بأى عمل وأى خدمة لأى زميل حتى أطيل ساعات وجودى فى الشركة، وقد سعى رئيسى لدى السيد مدير

الشركة فرفع مكافأتى إلى ١٢٠ جنيها بعد شهرين فقط من العمل،
وشهد لى عنده بالطاعة والكفاءة والإخلاص فى العمل. ولقد استرحت
للعمل مع رئيسى ونويت ألا أفارقه وألا أترك الشركة أبدا من أجله
ومن أجل زملائى الطيبين، حتى ولو جاءتنى وظيفة الهيئة التى وعدنى
بها زملاء أبى يرحمه الله.. لكن الليل يا سيدى يعذبنى.. ويمرضنى..
ويفتك بصحتى ونفستى، وقد نقص وزنى خلال الشهور الثلاثة
الأخيرة ٨ كيلو جرامات مع أنى كنت نحيفا من الأصل.. فبماذا
تنصحنى أن أفعل، وهل تستطيع معاونتى فى العلاج من حالتى هذه؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

يا إلهى.. كل هذه الأحزان والآلام وأنت فى هذه السن الصغيرة!؟
ماذا أستطيع أن أقول لك يا ولدى لأهدىء من روعك وأعينك على
تحمل أقدارك هذه؟ لقد أشعلت شمعة أحزانك من طرفيها وليس من
طرف واحد، فالتهمت سعادتك وأمانك فى وقت قصير عصب، فهل
أقول لك إنك قد استوفيت بذلك قدرك المقدور من كأس الشقاء ولم
تبق به ثمالة، ولا بد أن تكون حياتك بعد ذلك إبحارا هادئا فى نهر
الحياة.. تهب عليك فيه نسائم التعويض وغيث السماء!

إن هذا منطق الأمور وعدالة الحظوظ بين البشر.. وهذا أيضا هو
الأمل في رحمة الله سبحانه وتعالى.. وفي رفقته وحنانه بالمحزونين .

والإنسان قد تعبر بحياته سحابة حالكة السواد .. في فترة من فترات
العمر لكنها لا تتجمد فوق سمائه للأبد.. ولا يمكن لها أن تفعل، وإنما
لا بد لها من أن تنقشع بعد حين مهما طال وقوفها، ولا بد أن تصفو
صفحتها وتبرغ شمس الأمل حاملة إليه جوائز الصابرين والموعودين
بالسعادة بعد الشقاء، وإن الشاعر الإنجليزي يقول إنه «إذا كان الشتاء
قد جاء فليس الربيع ببعيد» !

وشتاؤك الحزين يا صديقي قد حل عليك مبكرا بكروبه وغمته
وكآبته، ولا بد أن يأتي ربيعك من بعده وتغدق عليك الحياة بما ينسبك
رحلة الآلام .

و«الإخلاص مفرج الكرب» كما يقول أحد الصالحين.. ويعنى به
الإخلاص الذى يسلم به المرء نفسه لله سبحانه وتعالى.. فلا يعتمد إلا
عليه ولا يتجه إلا إليه.. ولا يطلب السلوى والعزاء إلا منه، فاستمسك
بهذا الركن الركين الذى لا سند للإنسان سواه فى الملمات والشدائد..
وإذا كنت قد فقدت كل أفراد أسرتك فى هذه السنوات الأربع الكثيرة،
فلسوف تدور الأيام دورتها الخالدة قريبا .

ولسوف تصنع أنت أسرتك الصغيرة ذات يوم قريب، ولسوف تكون لك شريكة حياة عطوف تعينك على وحدتك وأقدارك وتشاركك رحلة الأيام، ولسوف تنجب منها البنين والبنات فتضج الحياة في المسكن الخالي عليك الآن.. وتحنو أنت على صغارك كما حنا عليك وعلى أخيك أبواك رحمهم الله جميعا، وهكذا الحياة نتسلم فيها الراية من آبائنا ونسلمها نحن لأبنائنا راضين. ونكرر معهم ما فعله آبائنا معنا ففرق لهم كما رَقَّوا لنا ونعطف عليهم كما نهلنا نحن من نبع عطفهم وحنانهم، فلا تُفَلت أية فرصة للارتباط المشروع بفتاة تبدأ معها بناء عشك خلال الأعوام القادمة، وأنت شاب طيب وخدوم ومتدين. وقد وضع الله لك القبول عند الناس فنلت خلال وقت قصير حب رئيسك وزملائك وثقتهم بك وبإدلتهم أنت حبا بحب وعرفان، حتى لتقرر ألا تفارق رئيسك العطوف الشهم هذا وزملاءك حتى ولو جاءتك وظيفة الهيئة الحكومية التي يسعى لك فيها زملاء أهلك .

وهذه هي بعض الدوائر المضيفة بالحب والخير والتعاطف الإنساني النبيل التي لا تخلو منها الحياة رغم عنائها وجهامتها في بعض الأحيان، فتعامل مع هذا الجانب الطيب من الحياة واستمسك به.. وتفتح للحياة من جديد، فلسوف تحقق نجاحك وأحلامك وطموحك في مستقبل آمن سعيد بإذن الله.. فالنجاح أيضا قد ينبع أحيانا من الحزن والألم،

وليس الفن وحده كما قال ذات يوم الفنان الإسباني العالمى بيكاسو
متشكيا من أحزانه وآلامه .

ولقد كان اليتيم الأشهر ومعلم البشرية (صلوات الله وسلامه عليه)
كما وصفه أحد الصحابة الأكرمين دائم الفكر متواصل الأحزان، ومع
ذلك فلقد غيّر وجه البشرية والحياة إلى يوم الدين، وما أكثر الناجحين
والسعداء الذين بدأوا حياتهم بالغوص فى بئر الأحزان والآلام حتى
الأعماق السحيقة، ثم هطلت عليهم بعد ذلك جوائز السماء بلا حساب
وأكرمهم الحياة إلى نهاية الرحلة. فانتظر نصيبك العادل من السعادة
والنجاح فلقد قدمت كل قرابينك وأديت ضريبة الألم كاملة، ولم يبق
لك إلا انتظار الجوائز .. أما الحالة التى تعاني منها الآن، فهى حالة
مؤقتة ومرتبطة بالأهوال التى عانيت بها خلال تلك السنوات الأربع
القائمة فى حياتك، ولن تلازمك طوال العمر كما تخشى ولن يطول
عهدك بها كثيرا بإذن الله، فهى اضطراب من اضطرابات النوم النفسية
يسمىها أطباء النفس اضطراب الفزع الليلي، ويعتبر مزمنًا يتطلب
العلاج إذا زادت فترته عن شهر كامل، وهو اضطراب تتكرر فيه
نوبات الاستيقاظ المفاجيء أثناء الليل مصحوبا بصرخة هلع ويقع
غالبًا فى الثلث الأول من النوم، وينتفض من يعانيه جالسًا فى فراشه
مفزوعا تبدو عليه علامات الهلع مع اتساع فى فتحة إنسان العين إلى

سرعة في التنفس والنبض والعرق الغزير، ويبقى المفزوع على هذه الحال لفترة حتى يهدأ الفوران الداخلي الذي أحدثه لديه هذا الاضطراب، والذي يرتبط غالباً ببقايا حلم مفزع أو بضغط نفسية شديدة. وهو اضطراب شائع بين الأطفال في المرحلة بين أربع سنوات واثنتي عشرة سنة، ويصيب الكبار أيضاً في العشرينيات والثلاثينيات من العمر، وقلماً يصيبهم بشكل مزمن بعد الأربعين.. وعلاجه في الأطفال هو أن تهدىء الأم أو الأب روع الطفل، ولا يحتاج الأطفال لعلاج متخصص إلا إذا كانت هناك أعراض نفسية أو جسمية أخرى مصاحبة للحالة .

أما في الكبار، فإنه يحتاج إلى علاج نفسي متخصص يعتمد أساساً على فهم الظروف النفسية والاجتماعية لمن يعاني منه ومساعدته نفسياً على التوافق معها، ويندر أن يحتاج العلاج إلى استخدام العقاقير الطبية إلا في حالات معينة .

وظروفك النفسية الاجتماعية لا تحتاج إلى تفسير أو تحليل، فأنت - أعانك الله - تحمل جبلاً من الأحزان والآلام فوق كاهلك الصغير يجعلك في حالة دائمة من الفوران الداخلي خلال الليل حين تستسلم للنوم مجهداً .. فيمور ويدمدم هذا الفوران داخلك رافضاً وحدتك

وأحزانك، ومعبرا عن نفسه في هذا الاستيقاظ المفاجيء المصحوب
بصرخات الفزع وعلامات الهلع..

لكنه لن يطول إلى الأبد .. وإنما سيخمد هذا الفوران تدريجيا مع
مرور الأيام.. وبعد الذكرى .. والتسليم بما حدث والتعايش معه.. كما
سيسرع العلاج النفسى بكل تأكيد في إخماده وإعادة السكينة إلى نفسك
وقلبك بإذن الله.. فاتصل بى لأرتب لك أمر هذا العلاج الميسور فى
أقرب وقت، وترقب تعويض السماء لك وجوائزها السخية فى قادم
الأيام إن شاء الله .

* * *

الرأى الآخر !

أنا إحدى الزوجات اللاتي يشكو أزواجهن من برودهن العاطفى وتجاهلهن المشاعر الحسية والعاطفية بعد أن كبر الأبناء، ويرجعون الأسباب لهذه الفترة من العمر التى تمر بها الزوجة ... إلخ ، وأرجو أن يتسع صدرك لتسمع الطرف الآخر للمشكلة لأنها ليست حالة خاصة، ولأن العديد من الزوجات يعانين ما أعانيه .

فأنا زوجة لرجل يؤدي العبادات كاملة، ولكنه يتناسى أن الدين المعاملة، وأن الولاية التى كلفه الله بها تعنى العطف والرحمة والحنان والحب، ولا تعنى القهر والبطش والقسوة . لقد كرم الله الإنسان واحترم آدميته، فما بالك بالرجل الذى لا يحترم آدمية أهل بيته، ويتعمد إهانتهم بالسب والشتائم وأحيانا بالضرب ويذكرهم فى كل مناسبة أنهم أذلة له ، يأمر فيطيعون دون مناقشة، لأنه المتفضل عليهم بالإعالة المادية .

إن زوجى رجل سليط اللسان يستخدم الألفاظ النابية معنا ومع أهله وزملائه بلا حرج، كما أنه متسلط لا يسمع إلا لنفسه، وإذا خالفه أحد فى الرأى تكون الطامة الكبرى ، وهو يشتري لنفسه أفخر الثياب، ويبخل على أبنائه بمثلها، إيماناً منه بأن المال ماله وله أن يتصرف فيه كما يشاء ..

وهكذا ، فإن العلاقات الإنسانية لا وجود لها فى حياته .. وسوف تسألنى: ولماذا تحملت كل هذا حتى تعديت الخمسين من العمر؟! وسأجيبك بنفس رأيك، وهو أن مصلحة الأبناء فوق كل الاعتبارات الشخصية .. والآن كبر الأبناء وتعدوا سن العشرين ولا يزالون فى المرحلة الجامعية، ومع ذلك فهو لا يزال يتناول أحياناً عليهم بالضرب، ويسمعنا من الشتائم ما لا يليق برجل فى سنه ومركزه الاجتماعى والثقافى .. فهل تتوقع منى يا سيدى بعد كل ذلك أن أتجاوب معه فى المشاعر الحسيرة؟! لقد تراكمت الأحزان والآلام لسنوات طويلة ، وماتت المشاعر من سوء المعاملة وإهدار الكرامة .

وأنا لا أشكو إليك لإيمانى بأن الشكوى لله وحده سبحانه وتعالى ، وأنه وحده القادر على أن يزيح عنا الكرب والهم الذى نعيش فيه .. ولكنى أرجوك أن تنشر الرأى الآخر، حتى يسأل كل رجل يعانى

الجفاف العاطفى لزوجته نفسه : هل أنا حريص على مشاعر زوجتى وأبنائى ؟ هل أعاملهم بالمعروف وأحسن عشرتهم ؟ هل أعين أولادى على البر بالوالدين ؟ وهل يكفى تأدية الفرائض أم أن حسن الخلق من التدين أيضا ؟ ولكل رجل يمثل هذا النموذج من الرجال أقول : ابحث عن المشكلة الحقيقية، ولا تتوارى خلف المرحلة التى تمر بها المرأة فى منتصف العمر .

ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

ومن قال يا سيدتى إن الرجل الذى يهدر آدمية زوجته ويقهر إرادتها بالاحتياج المادى إليه، ويميز نفسه عنها فى الإنفاق على مطالب الحياة، ويتعمد إهانتها بالسب والشتم والضرب.. من قال إن مثل هذا الرجل يحق له أن يشكو من عدم تجاوبها معه عاطفيا ؟! إن المثل الإنجليزى القديم يقول: إن المرأة التى تحصل على أجرها لا يحق لها أن تطالب بالزواج !

وأحسب أننى أستطيع أن أقول على غرار ذلك : والرجل الذى يهدر آدمية زوجته بالضرب والشتم والإهانة لا يحق له كذلك أن يطالب بالحب ! لأن المشاعر لا سلطان عليها لأحد.. وهى ليست «قرارات» يتخذها الإنسان بإرادته واختياره .. وإنما هى نار ذاتية

الاشتعال تذكيتها الكلمة الطيبة والمعاملة الرقيقة واللفتة الكريمة
والعطاء المخلص، وتحمدها القسوة والكلمة الجافة والمعاملة الشرسة
والأنانية الكريهة .

وديننا الذى يأخذ منه البعض جانب العبادات ويهدرون منه جانب
المعاملات الإنسانية العادلة، قد أوجزه لنا الرسول الكريم (صلوات الله
وسلامه عليه) بأبلغ عبارة حين قال : الدين المعاملة !

وهو كذلك فى العدل فى كل تعاملات الحياة .. والرحمة بالآخرين
والرفق بهم ، خاصة بمن يتحمل الإنسان أمانة المسؤولية عنهم أمام
خالقه. ولهذا يأمر الدين الحنيف الأزواج والزوجات بأن يتعاملوا فيما
بينهم بالمودة والرحمة، ويأمر الآباء والأمهات بأن يعاملوا أبناءهم
بالعدل والإيثار ، وليس بالأنانية والأثرة . كما يأمر الأزواج «بأن
يقدموا لأنفسهم» حين يفضون إلى نساءهم، وليس هذا «التقديم»
سوى حسن المعاملة واللفظ والرفقة وكل مفردات قاموس المشاعر
المعاصرة .

ولهذا كله، فإننى لا أعتبر رسالتك هذه «رأيا آخر» فى المشكلة، لأنه
لا خلاف بيننا على كل ما قلت فيها .. ولأن رسائل الأزواج الذين
يشكون من عدم تجاوب زوجاتهم معهم عاطفيا، لا يفهم منها أن هناك

مشكلة في التعامل الكريم بين الأزواج والزوجات، وإنما هناك مشكلة أخرى في الفهم الخاطيء لدى بعض الزوجات لمرحلة منتصف العمر التي يجتازنها .. وفي ضرورة إيمانهن بأن المشاعر لا ترتبط بمرحلة واحدة من مراحل العمر دون غيرها وهي مرحلة الشباب وحدها .. وإنما تتعمق وتتأكد وتعبر عن نفسها بأشكال مختلفة في كل مراحل العمر .. وذلك كله في الظروف الطبيعية للعلاقة بين كل زوجين يرعى كل منهما الله في تعامله مع الآخر .. وليس بالقهر والإهانة وإهدار الكرامة لأي من الطرفين ..

فالجارية وحدها في عصور الرقيق هي التي لم يكن يحق لها أن تعرض على رغبات سيدها .. أحسن معاملتها أو أساءها .

أما الزوجة فهي إنسان مكتمل الحقوق والمشاعر ، ولا يستطيع أحد أن يجبرها على التجاوب العاطفي مع من يهدر كرامتها، ويذلها بالضرب والقهر والإهانة ! كما لا يستطيع أحد أيضا أن يجبر رجلا على الإقبال على زوجة لا تحترم مشاعره ولا تحسن معاملته ولا تحفظ كرامته .

* * *



النوافذ المغلقة

ليست رسالتى هذه عن مشكلة شخصية لى، وإنما عن قصة إنسانية مؤلمة لم أعاصر بداياتها .. ولكنى شهدت آثارها البشعة وتألمت لها .. فأنا طالب بإحدى الكليات العملية، وأمر كل يوم فى طريقى من بيتى لركوب وسيلة المواصلات التى تحملنى إلى كليتى على منزل صغير قديم بحى عين شمس له حديقة ذات باب حديدى صدىء تظهر من خلال فتحاته أطلال حديقة تمتلئ بالأشجار وأصص الزهور والتكعيبات الخشبية التى تتساق عليها النباتات المختلفة. ولقد لفت نظرى من خلال مرورى بهذا البيت يوما بعد

يوم أن الحديقة رغم أشجارها وزهورها وتكعيباتها ميتة ، وأن أوراق الشجر والزهور قد جفت بسبب نقص الماء فيما تصورت، ثم شاهدت صاحبة هذا البيت أو المقيمة فيه فرأيتها سيدة نحيلة وهزيلة الجسم للغاية وشاحبة الوجه، وتعبر قسماتها بغير كلام عن كل ما تعانى منه ..

وأثارت هذه السيدة النحيلة وحديثها الميتة فضولي، فسألت عن قصتها وعرفت أنها تعيش في هذا المنزل وحيدة ، وأنها أرملة لمهندس زراعى كان يعانى من مشكلة في الإنجاب، فلم يرزقا بأطفال، وعوض هو افتقاد الأطفال في حياته بتركيز كل اهتمامه ووقته للعناية بهذا البيت وتجميله ورعاية الحديقة وزراعتها وتنسيقها. وكان بالرغم من ذلك بخيلا ومقترا على زوجته فلا يعطيها أية نقود بالمرة، وإنما يأتى هو بمتطلبات البيت أولا بأول ويحاسبها ويدقق معها بشدة في نفقات المعيشة . واستمرت حياتها معه على هذا النحو لمدة ١٢ عاما ، ثم حدث أن صدمته سيارة مسرعة وهو يعبر الطريق فتوفى على الفور ، وشيع إلى مشواه الأخير وبكته أرملته كثيرا .. وفقدت بفقده - رغم كل شيء - الرفيق الشريك والسند الوحيد في الحياة، فلم تكد تمضى بضعة أيام على وحدتها في هذا البيت ، حتى كشف لها إخوة زوجها عن حقيقة مذهلة .. هى أنها ليست أرملة شقيقهم الراحل، وإنما هى مطلقة .. وبالتالي فلا حق لها فى شيء من ميراثه أو معاشه ، أو فى البقاء فى البيت الخالى بعد وفاته !! وقدم لها الإخوة وثيقة طلاق تثبت طلاقه لها بالفعل قبل ثلاث سنوات من رحيله عن الحياة .. وصدمت السيدة صدمة مزلة .. وتساءلت مع أى رجل كانت تعيش وقد كان حتى وفاته يحيا معها حياة زوجية كاملة ؟!

وبعد الصدمة المروعة والجرح النفسى الغائر ، بدأت رحلة المعاناة للمطالبة بحقوقها عن طريق القضاء ، وطعنت بالتزوير فى وثيقة الطلاق ، فإذا بتقرير الخبير يثبت صحتها ، وأسقط فى يد الأرملة الحائرة .. ونتج عن إثبات صحة وثيقة الطلاق حرمانها من أية حقوق لها فى الميراث عن زوجها وفى المعاش كذلك .. وأخذت المحكمة - تقديرا لظروفها - بشهادة جيرانها الذين تطوعوا للشهادة لصالحها ، وأكدوا جميعا أنها كانت حتى اليوم الأخير من حياة زوجها تعيش معه فى بيته حياة زوجية طبيعية بلا مشاكل ولا أزمات ، وأنها لم تعرف أبدا ولم يعرف أحد من الجيران أنه قد طلقها .. ولم يشر حالهما إطلاقا إلى أنها مطلقان أو منفصلان ، فقضت لها المحكمة رأفة بحالها بالبقاء فى منزل الزوجية ، وكفت أيدي إخوة الزوج عن التصرف فى البيت طوال حياتها ، ورفضت الدعوى التى أقامها عليها الإخوة لطردها منه .

وهكذا واجهت هذه السيدة الحياة بعد رحيل زوجها .. وهى تقيم فى بيت لا تملك طوبة واحدة منه ولا حق لها عليه .. وبلا أى ميراث أو معاش وبلا مدخرات ولا أقارب يتكفلون بها .. وعلى عكس ما يفعله الزوج الطيب الذى يرحل عن الحياة ، فيترك لزوجته الذكريات الجميلة وما يقيم أودها ويقيها شر الحاجة ، فلقد رحل هذا الزوج عن الحياة تاركا لها الإحساس المر بالدنس والعار والحاجة ، مما يجعلها كما علمت

تلعنه في كل صلاة ومع كل أذان بدلا من أن تترحم عليه !

وشيئا فشيئا نفذ كل ما كانت تملكه من مصاغ قليل باعتها لكي تسد بثمانه رmqها، وانعكس حالها المؤلم على حال الحديقة التي كانت زاهرة .. فتماثل الاثنان في المحنة وغدر الأيام بهما فهزل جسم السيدة ، وجفت دماء الحياة فيها تدريجيا من أثر سوء التغذية، وذبلت أشجار الحديقة وجفت أوراق أصص الزهور وماتت النباتات المتسلقة لقلة الماء ونقص الرعاية ، فلقد تراكت على هذه السيدة فواتير الماء والكهرباء ، حتى انتهى الأمر بقطعها عنها نهائيا منذ عدة سنوات .

ومنذ ذلك الحين والسيدة تعيش في ظلام دامس وبدون قطرة ماء .. ووهنت قواها حتى لم تعد تقوى على فتح نوافذ البيت كل فترة لتهويته، فيظل مغلق الأبواب والنوافذ دائما وكأنه مقبرة ، وشكت السيدة من آلام مبرحة في قدميها حتى كادت تعجزها عن الحركة ، ولقد يمر عليها اليوم واليومان والأيام الثلاثة دون أن تقوى على فتح نوافذ بيتها ، ناهيك عن أن تجد ما تقيم أودها .. ولك أن تتخيل يا سيدى أن هذه السيدة رغم كل ما تعانيه، فإن ما أعطيه لها من ماء قليل كل فترة أو يعطيه لها جيرانها .. فإنها تستخدمه في النظافة والوضوء ، ولا تشكو حالها لأحد سوى لربها .

وفى كل مرة أذهب فيها إليها حاملاً بعض الماء أتعجب لاحتمالها لكل هذه الأهوال وبصبرها العظيم على هذا الابتلاء حتى لأدير وجهي عنها لكيلا ترى دمعي .. وأدعو الله العلي العظيم أن يرفع عنها هذا البلاء .. لقد كتبت إليك هذه الكلمات لعجزى عن أن أفعل لهذه السيدة المزيد، وأرجو أن تصل هذه الكلمات إلى من بيده أن يرفع عنها بعض هذه المعاناة .. مع رجاء العلم بأن هذه السيدة تحتاج إلى من ينتقل إليها لبحث حالتها .. لأنها لا تقوى على الخروج من شدة الهزال وضعف الصحة وانعدام العناية الطبية . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

قد وصلت «الرسالة» بالفعل إلى مالك الملك ومن بيده ملكوت كل شيء سبحانه، فجرت مشيئته عز شأنه بأن ترجع الكهرباء إلى المنزل المظلم المقبور .. والماء المقطوع إلى الحديقة العطشى والأشجار الجافة والأصص الخابية ، وتنفتح نوافذ هذا البيت المغلقة ويتجدد هوائه، وتسترد سيدته دماء الصحة والعافية بأمر ربها ومشيئته وهو الرحيم العليم ، فلقد سمع الله نجوى هذه السيدة لربها وهياك لنقل الرسالة إلى وأكرمنا بتسخير بريد الجمعة لإنفاذ مشيئته برعاية هذه السيدة الوحيدة والتكفل بأمرها ، وتوفير الحياة الكريمة والرعاية الصحية اللازمة لها ،

ولسوف تزورك خلال ساعات الإخصائية الاجتماعية لبريد الجمعة ،
لتصطحبها لزيارة هذه السيدة في بيتها وحل مشكلتها بما يحفظ عليها
كرامتها و يقيها شر الحاجة ومذلة السؤال باذن الله .. فهي ممن عناهم
الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ،
تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾ .

وهؤلاء هم الأحق بالرعاية والعطاء ، لأنهم عاجزون نفسيا عن
سؤال الغير ولو كانت بهم خصاصة، ولقد تعتصر الحاجة أحدهم فلا
يطيعه لسانه في الطلب أو الشكوى لغير ربه ، ولهذا أمرنا بأن نتحرى
هؤلاء في مواقعهم وخلف أستارهم التي يستترون وراءها بعوزهم عن
الغير وبأن نبادرهم بالعطاء بغير طلب ونترفق بهم ونشعرهم بحقهم
علينا .. ونكفيهم مؤنة السؤال ، ونتحرى حفظ كرامتهم والستر عليهم
بما نقدمه لهم ، ولولا أنى قد أردت أن يشاركنى قراء هذا الباب فى قصة
هذه السيدة ليستفيدوا بدروسها المؤلمة ، ويطلعوا على وجه آخر من
وجوه النفس البشرية الملعنة ، لما نشرت رسالتك هذه ولبادرت بإرسال
الإخصائية الاجتماعية إليك على الفور بغير نشرها ، لكن كيف كان لنا
أن نعلم عن النفس البشرية وشحها وبخلها وحساباتها الدنيوية الحقيرة
فى بعض الأحيان ما علمناه من هذه القصة المحزنة ؟! ..

(١) سورة البقرة آية / ٢٧٣ .

لقد تحيرت طويلا في فهم الأسباب التي تدعو رجلا يشارك زوجته تحت سقف واحد ، وترضى هي بحياتها معه رغم حرمانها من الإنجاب ، وبخله معها ، لأن يطلقها سرا ويتكتم عنها أمر هذا فلا تعلم به في حينه ، ثم يواصل حياته معها كزوجين يجمعهما فراش واحد ، ويرضى هو لنفسه بهذا الوضع الآثم ويقبل بهذا الخنا على زوجته متحملا عنها وزره الكامل ، لأنها لا تعرف به ويعلم به أيضا إخوته فلا ينهونه عنه ، ولا يحثونه على تصحيح وضعه الشائن ووضع هذه السيدة الضحية ، ولا يبرثون ذمتهم من إثم المشاركة بالصمت في خداع هذه السيدة . ثم يرحل عن الحياة فجأة ، فإذا بهؤلاء الإخوة يشهرون في وجه أرملته وثيقة طلاق عمرها ثلاث سنوات ويسعون لطردها من بيت أخيهم وحرمانها من ميراثه ومعاشه ، بغير أن يتوقف أحدهم ويسأل نفسه : كيف رضى بأن يعلم عن أخيه أنه يعاشر من تحرم عليه معاشرتها بغير أن يبرىء ذمته من إثمه بنصحه أو على الأقل بإعلام هذه السيدة بما علم به لترى رأيها في حياتها معه ، ويبرأ هو من حقها عليه؟! ..

وأى شيء من متاع الحياة يستحق أن يشارك إنسان أخاه بالصمت الشائن على مثل هذا الدنس الذي ينكره الشرع والدين والقانون؟! .. لقد فكرت طويلا في دوافع هذا الرجل لما فعل ، فلم أجد له تفسيراً

سوى بخله الذى تمكن منه حتى صبغ نظرتة إلى كل شىء فى الحياة بالصبغة المادية الكريهة، حتى لو كان ذلك على حساب الحق والعدل والفضائل الدينية والأخلاقية .

فلقد كره الرجل أن تشاركه السيدة التى تقاسمه حياته فى شىء من أملاكه أو معاشه أو ماله وهو على قيد الحياة وبعد رحيله عنها، وكره أن تنازع إخوته بعد وفاته فى ملكية البيت الذى يملكه، ويبدو أن لإخوته نصيبا منه بالميراث عن الأب، فطلق زوجته وتحايل على عدم إبلاغها بذلك، وتستر عليه إخوته طلبا لمتاع الدنيا الرخيص، وواصل حياته معها فى الدنس والإثم مقدرا فيها يبدو أنه سيطول به العمر ، وقد يأتى الوقت الذى يراه هو مناسبا لإخراج هذه الزوجة من حياته بلا خسائر كبيرة ويكتفى بوحدته فى البيت والحديقة، أو يستبدل بها زوجة أخرى أقل نفقة إذا رغب فى ذلك ، فإذا بمكره يخيب ، وإذا بأقداره تسبق مكره وتدبيره ويرحل عن الحياة تاركا وراءه كل شىء للآخرين ومخلفا الزوجة التى عاشرها سنوات طوالا لا تدرى أكانت أرملته أم مطلقة! ولا تجد ما تواجه به الحياة، وتعانى مما تشعر به من إحساس غائر بالإثم لغدره بها ومعاشرتة لها بغير زواج لثلاث سنوات قبل الوفاة .. وكل ذلك لكى لا تنازع إخوته فى حصة محدودة من بيت صغير وحصة

بائسة من معاش هزيل مهما بلغ قدره.. فأى إثم .. وأى مكر حقير!؟
يا إلهى .. إننى لم أستطع حتى الآن برغم خبرة السنين أن أفهم هذا
التناقض الغريب بين صن رجل كهذا الرجل على زوجته بأن ترث
حقها المشروع فى ماله بعد الرحيل مما يقطع بشحه وبخله الفاضح
وعدم عدالته، وبين هذا الإحساس العائلى المفترض فيه أن يكون من
الفضائل بشرط العدل والذي يدفع مثل هذا الرجل لإيثار إخوته
بميراثه دون زوجته.. فهل يستطيع أحد أن يفسر لى هذا التناقض
الغريب بين المنع للزوجة والإيثار للإخوة، وهما نقيضان تناقض المنع
والعطاء ولا يجتمعان فى النفس الشحيحة إلا نادرا؟.. أم ترى أن هذا
الرجل لم يكن يضع حتى إخوته فى حساباته، وكان مطمئنا إلى الدنيا..
وإلى أنه سوف يعمر طويلا فينفرد فيها دون زوجته والجميع بماله
وأملأكه إلى ما لا نهاية!؟

فلندع إذن أمره لخالقه، ولنفكر معا فى كيفية تعويض هذه السيدة
المتعففة عما تعرضت له من عناء كاد يقضى عليها فى وحدتها.. كما
قضى من قبل على أشجار حديقتها وزهورها ونباتاتها.. وشكرالك
على رسالتك الكريمة هذه.. وأرجو الله أن يجزيك عنها خيرا كثيرا فى
حياتك ومستقبلك بإذن الله.

* * *

كتب للمؤلف

- | | | | |
|------|----------------|-------------------|---------------------------|
| ١٩٩٨ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ١ - أصدقاء على الورق |
| ١٩٨٧ | الطبعة الأولى | أدب رحلات | ٢ - يوميات طالب بعثة |
| ١٩٩٨ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ٣ - هتاف المعذبين |
| ٢٠٠١ | الطبعة السادسة | مقالات وصور أدبية | ٤ - صديقي لا تأكل نفسك |
| ٢٠٠١ | الطبعة الرابعة | قصص إنسانية | ٥ - نهر الحياة |
| ٢٠٠١ | الطبعة الرابعة | قصص إنسانية | ٦ - العصافير الخرساء |
| ٢٠٠١ | الطبعة الرابعة | مقالات وصور أدبية | ٧ - صديقي ما أعظمك |
| ٢٠٠١ | الطبعة الرابعة | مقالات وصور أدبية | ٨ - افتح قلبك |
| ٢٠٠١ | الطبعة الرابعة | مقالات وصور أدبية | ٩ - اندهش يا صديقي |
| ٢٠٠١ | الطبعة الثالثة | قصص إنسانية | ١٠ - أزواج وزوجات |
| ٢٠٠١ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ١١ - أرجوك لا تفهمنى |
| ٢٠٠١ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ١٢ - رسائل محترقة |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ١٣ - أماكن في القلب |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثالثة | قصص رومانسية | ١٤ - لا تنسنى |
| ١٩٩٦ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ١٥ - نهر الدموع |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الرابعة | قصص إنسانية | ١٦ - أقنعة الحب السبعة |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ١٧ - مكتوب على الجبين |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ١٨ - أوراق الليل |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ١٩ - طائر الأحزان |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية | ٢٠ - أعط الصباح فرصة |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | قصص قصيرة | ٢١ - الحب فوق البلاط |
| ٢٠٠١ | الطبعة الثالثة | أدب رحلات | ٢٢ - سائح في دنيا الله |
| ٢٠٠١ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ٢٣ - قالت الأيام |
| ١٩٩٧ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية | ٢٤ - صور من حياتهم |
| ٢٠٠١ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية | ٢٥ - أهلاً . . مع السلامة |
| ٢٠٠١ | الطبعة الثانية | خواطر وتأملات | ٢٦ - قدمت أعذارى |
| ١٩٩٩ | الطبعة الأولى | قصص إنسانية | ٢٧ - أيام السعادة والشقاء |

● مكتب المؤلف من إصدارات « الدار المصرية اللبنانية »

٢٠٠١	الطبعة الأولى	قصص إنسانية	٢٨ - حصاد الصبر
٢٠٠١	الطبعة الأولى	قصص إنسانية	٢٩ - صوت من السماء
١٩٩٨	الطبعة الخامسة	قصص إنسانية	٣٠ - العيون الحمراء
٢٠٠٠	الطبعة الرابعة	مقالات وصور أدبية	٣١ - وقت للسعادة . . وقت للبكاء
١٩٩٦	الطبعة الثالثة	قصص إنسانية	٣٢ - شركاء في الحياة
١٩٩٩	الطبعة الثالثة	صور أدبية	٣٣ - خاتم في إصبع القلب
١٩٩٩	الطبعة الثالثة	مقالات	٣٤ - وحدي مع الآخرين
٢٠٠٠	الطبعة الثانية	مقالات وصور أدبية	٣٥ - ساعات من العمر
٢٠٠٠	الطبعة الثالثة	مقالات وصور أدبية	٣٦ - عاشوا في خيالي
٢٠٠٠	الطبعة الثانية	مقالات وصور أدبية	٣٧ - ترانيم الحب والعذاب
٢٠٠٠	الطبعة الثانية	قصص إنسانية	٣٨ - الثمرة المرة
٢٠٠٠	الطبعة الثانية	قصص إنسانية	٣٩ - دموع القلب
٢٠٠٠	الطبعة الثانية	مقالات وصور أدبية	٤٠ - أرجوك أعطني عمرك
٢٠٠٠	الطبعة الأولى	صور ومقالات أدبية	٤١ - من المفكرة الزرقاء
٢٠٠٠	الطبعة الأولى	قصص إنسانية	٤٢ - الأرض المحترقة
٢٠٠١	الطبعة الثالثة	مقالات وصور أدبية	٤٣ - سلامتك من الآه
٢٠٠١	الطبعة الثانية	قصص إنسانية	٤٤ - هو وهى والآخرين
٢٠٠١	الطبعة الأولى		٤٥ - حكايات شارعنا

الفهرس

٧	● هذا الكتاب
١١	١ - الحلقة الثالثة
٢٧	٢ - العبارة القاسية
٣٥	٣ - الاعترافات المريرة
٥٥	٤ - اللحظة الفاصلة
٦٥	٥ - الورقة المطوية
٧٩	٦ - الضيفة اللذيذة
٨٩	٧ - القطة المدلّلة
١٠٣	٨ - الجملة الناقصة
١١٧	٩ - بصمات الشقاء
١٣١	١٠ - العقل الجميل
١٣٩	١١ - الشيء الفظيع

- ١٢ - الحجر الثقيل ١٥٧
- ١٣ - الاتفاق الصامت ١٦٧
- ١٤ - مخالب الحدأة ١٨٥
- ١٥ - ابتسامة الخجل ١٩٣
- ١٦ - الأشياء الجميلة ٢١٣
- ١٧ - صرخات في الليل ٢٢١
- ١٨ - الرأى الآخر ٢٣٧
- ١٩ - النوافذ المغلقة ٢٤٣

هو وهى والآخرون



* مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.

* حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.

* يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.

* صدر له ٤٥ كتاباً ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصاً قصيرة وصوراً أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.

* له ثلاث مجموعات قصصية هى: (أماكن فى القلب) (ولاتسنى) ، (والحب فوق البلاط).

من النادر أن يعيش الإنسان حياة تفرها سعادة دائمة .. بل كثيراً ماتحيط بالإنسان أنواع من المشاكل قد تفرقه فى بحر من الهموم والآلام والأحزان.

والناس أمام هذه المشاكل ينقسمون إلى جماعتين متناقضتين : جماعة منهما تكتم أحزانها فى الصدور ولا تبوح بها .. وجماعة أخرى تجهر بتلك المشاكل التى يصادفونها فى حياتهم من أجل البحث عن من يستطيع أن يواسيهم أو من يجد لهذه المشاكل حلاً يرضيهم ويخفف عنهم وطأة ما يعانون من آلام وأحزان.

وفى باب (بريد الجمعة) الشهير بجريدة الأهرام يتلقى الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع سبلاً من الرسائل التى يكتبها له المحزونون والمهمومون الذين يعانون من مشاكل إنسانية أو اجتماعية يستعصى عليهم حلها ، راجين منه إرشادهم إلى الطريق السليم لحلها والتخفيف من آلامها.

وقد من الله جلت قدرته على الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بموهبة فذة وقدرة فائقة على إرشاد هؤلاء المحزونين إلى الحلول السليمة ، ومواساتهم فيما يعانونه من آلام وهموم وأحزان .. وهكذا يكون التراحم بين الناس!

الدار المصرية اللبنانية

